بنات الماء

(رواية)

أشرف غيث

أشرف غيث: بنات الماء (رواية)

الحضارة للنشر

٧ شارع أبو السعود – الدقى ١٢٣١١ – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-12) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: فبراير ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب 2011/ 3348
ISBN 978-977-476-097-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بنات الماء

لا تغنى الأجنحة عن الطيران.. أجـــل، فمـــا أغنـــت الأجنحة عن الطيران، ولكن الطائر الذي يعيش الحرية في نفسه ولا نراه في السماء فلماذا يطـــير؟! ليـــست الشمس هي التي أسقطت إكاروس[1]، وإنمـــا ســـقط والصعود يحوله إلى نقطة ساكنة ضئيلة في فضاء الحرية، اخفض جناحيك حتى تراك بنات الماء فربما أسرعن إلى الصخرة وحولنها موجة طافية!

---

[1] إكاروس فتى أسطورة إغريقية هرب مع أبيه ديدالوس من الملك مينوس الذي غره المُلك وسطوته، ولم يجد في علم ديدالوس ومهارته إلا ما يستذل به شعبه؛ لذلك أمر ديدالوس أن يصنع متاهة يسوم فيها شعبه سوء الملك، وسوء العذاب، ثم سام ديدالوس جريرة علمه، وتحداه أن يخرج من ضروب المتاهة التي صنعتها مهارته، وحبسه فيها؛ ليعجز عن الخروج منها حتى أخرجته الملكة، وهرب هو وابنه إلي جزيرة الأسطورة الإغريقية، ولكن الملك تبعهما وحاصر الجزيرة تأهبا لاقتحامها؛ ففكر ديدالوس في إنقاذ ابنه، وركب له جناحين، وحذره من الاقتراب من الماء، أو الشمس، ولكن إيكاروس استخفه المطار حتى صعد إلى وهج الشمس، ولم يدري إلا والجناحين يفك لحامهما، ويكون سقوطه على الصخرة مناحة بنات الماء؛ فخرجن منها يبكين سقوطه وحلمه، ولا يبكين غرارة المُلك، وعذاب الشعوب!

مدينة النقائض قريرة قرارة الحكمة في وهدها[1] الموصولة بالقبة الزرقاء.

سحرها ما يعتم ينقلب عليها. لموها حياة هي روح الأبد ولحياها موت هو ضمير الواقع.

تسبق العالم بأميال و يسبقها العالم بأميال؛ تحاكيه في قشوره، والعالم يحاكيها في لبابها.

فريدة في قبحها وجمالها. سهلة حتى تكون لمن غلب، ومنيعة منعة الأقدار.

تراثها مرآة لكل من عبروها، واستوطنوها، واحتلوها؛ كأنه سجل الإنسان المنطوي على الصورة والمثال، والبدء والانتهاء!

هكذا كان بلد العجائب يوم سبر نيله "هيرودوت" قبل الميلاد، وهكذا يكون من ذِروة الجبل التي صعدها أول أيام هروبه من المدارسة حاملا حقيبتها أو تلك الصخرة، وما إن أهال ترابها المنطوي على مُخلفات الأفران؛ ليدفن أشلاء ما انتهبته الحدأة من كتاكيت السطح؛ صادفه ما احتضر من الحضارة: جُذذ لوحات، وفسيفساء، وجص، وبلاطات خزف، وزهريات، وفخار، ومسا رج، وأوانٍ، وقماقم عطور، وتمائم تعاويذ!

آكام وراءها ما وراءها؟

تمتد في انحدارة من قرافة الغفير إلى قرافة الوزير، وهي بمثابة صدادات كانت تمنع سيول المقطم عن سور القاهرة، ومن حيثما نظرت طالعتك بظهرها أشجار الكافور العملاقة، ويتاخم منحدرها ذلك البناء

[1] الوهدة: الأرض المنخفضة العميقة.

المقوض، ولا يزال يتشوفه[1] من سطح البيت، وطامحا إليه "كقمقم" للخيال حتى جاء من خلفه صوت جاره معلم الكتاب يقول:

– خيال حيران، أم رغبة جامحة في صعود ذِروة أشجار الكافور وأجواء الطيور؟

سأله محروس مشيرا إلى البناء المُقوض:

– أهو شاهد قبر؟!

بسمَ قائلا:

– وشاهد على سكان القاهرة أيضاً!

بنهم الفضول قال:

– ولكن الشواهد لا تكون إلا على القبور!

استعرض طرفه سفح المرتفعات، وسور القاهرة وأبراجه التي فصلتها مقابر الوزير عن صخور القلعة وأبراجها، وقال كأنما يحدث نفسه:

– وللتاريخ شواهد كالقبور!

ورجع إلى محروس يقول له:

– إنه ما بقى من برج مراقبة، كان له حراس يقومون على كل خطر يُهدد سكان السور من حيث قدم الغزاة، والخلفاء!

هللَ في نفسه:

"سوف أجعل "أم وجيدة" تصدق أنني واحد من هؤلاء الحراس".

رفع ذراعه من فوق سور السطح إلى سور القاهرة يسأله:

– من الذي بنى السور؟

– الوزير قراقوش.

– يعني أيه كلمة قراقوش؟

---

[1] يتشوفه: يطمح إليه.

- تعني الطائر الأسود!

سرحَ محروس في خيال مُحبب أو في بـــاكورة "القمقـــم" الـــتي ستجعل أم وجيدة تصدقه لما يُخبرها أن الطائر الأسود هو باني السور، ولم تكذب خياله وهو يقول لها:

"وأنا الطائر الأسود!"

فتتواتر خواطر التبسم في ألق عينيها الضيقتين، وتجعله يصدق نبـــأة البومة البيضاء، واقتران ظهورها في وهج المرتفعات ببشائر هي الـــبلاء وعِبَر هي العماء!

كانت المرتفعات وبرج مراقبتها، وأشجار الكافور وأجواء طيورها "قمقما للخيال" أما حجرة اليمام التي تعلو بيت أم وجيدة العتيق في نشوز وعزلة يوائمان جلال أسرارها فهي "قمقم الموت" الذي يهفو إليه خيال الطفولة، ويتصدر الأفق فيما بين طبلية المذاكرة، وذروة المرتفعات، وهي متبوأ المرأة حيث تعاشر اليمام ويعاشرها، وحيث تلوح الحجرة من أية جهة كملاذ لأرواح مودعة، وكمرصد لنَبْأَة الموت وعويله القصي. تستشعر نبْأته كأنها كاتمة أسراره، وعاطفته المتوحدة بمن سيموت من الأحبة والجيران والفنانين والساسة وضحايا الحروب والفتن، والأوبئة..

أو ينقبض شعور الموت في قلبها ويخاطرها بنَبْأة طائرة كنعش مغلق على مذيعة شهيرة مُحببة إليها. حتى القطط والكلاب التي تآلفتها إيلاف الذكرى، أو مرت عليها مرور الكرام كانت لها نبآت وهمس خفي ملهم يُرهف في روعها شعور الموت.

وكذلك خاطر روعها نبأة عابر سبيل تحرسه روحه أربعين يوما؛ فبدا لها كمسافر شغلته جلبة القضبان وعجلات القطار عن بهجة السفر.

هو شاب فنان مصور، كان يتجول بين دهور الألوان والأزقة، فهش وجهه ببشاشة الإلهام وأم وجيدة تستقبله بنظرة "يمامة" فيها من الحنكة مداها ووجدها وسكينتها.

كانت جالسة تتشمس على الحجر الصوان. مصطبة بيتها المعقود مدخله على باب ذي ضلفة واحدة ضخمة، هي مسند لظهر "حيلة" وغفق[1] نومه الخفيف المتصل أرقه بثقلة النوم؛ اتصال الموجة بالموجة في

---

[1] الغفق النوم مع سماع كلام الناس.

محيط من سمر الدنيا وثرثرة الناس، فحيثما كان السمر كان غفق حيلة سواء في القرافة، أو سهر "السُّطَل" والأفراح والمقاهي وممر بوابة المتوالي، ودروس التوحيد والتصوف في حوش "الشاهد" جد أم وجيدة..

وكأنما تعتعة[١] كلامه المحبوس في صدره وعقدة لسانه؛ جيَشان نوم ينوخ به في وخمة السبات؛ لكي يتصل بسمر السمار بلسان الأحلام.

ألقى عليها الفنان تحية العابر فحيته بأحسن منها، واحتفى بدعوتها الموجزة وصدقها الصراح:

- تفضل!

ونهض للتحية "حيلة" كأنها مُفتتح حلم، ومشى متثاقلاً بعبال[٢] جسمه داخل الحوش. احضر كرسيا من خوص النخيل، ثم تلقى شكر الضيف، ورجع كما كان إلى متكأ الباب.

استرسل حديثهما كمسافرين في عربة قطار. الفنان لا يريد للجلبة أن تنفض، وهى تستشعر نبأها، ويلتحد[٣] بنفسه يُحدثها في مُلتحد من حنان عيني ضيقتين كوَصْوَص[٤] الإلهام وثقب ضوءه:

"أي جلبة للسفر بيننا؟ وأي حنان شق صدفة نفسك؟ وأي أمواج للدهر في عينيها تعبر بك أطلالا هي وجد الحياة الباكي من فرحة الدوام!؟".

أكل معهما الدوم، والنعناع الأخضر، وغزل البنات، والخرشوف.. وما أن نادى بائع الجزر الأحمر حتى خرج من الحوش حمار؛ فقه حيلة

---

[١] التعتعة: التردد في الكلام من حصر أو عي.

[٢] العبال: الكثير من كل شيء.

[٣] يلتحد: يلجأ.

[٤] الوصوص: ثقب الضوء

واحتجزه جانبه.

قالت أم وجيدة باسمة:

– هذا هو" الأرمد"[1] حمار حيلة يريد أن يشاركنا الجزر الأحمر!

فتبسم الفنان قائلا:

– قد سمحت لى أن أكون واحدا منكم؛ فهل تسمحين لى أن أشعر "الأرمد" بذلك واشترى له الجزر؟

وكان تبسمها سماحا، وأرسل له حيلة "الأرمد"، ثم قفل إليه راضيا بما أُطعم من الجزر وخضرته، فيما دخن الفنان سيجارة أم وجيدة، وحسا قهوتها، ولما تنشق بنشوقها؛ تربص قَهُّ حيلة المكتوم بعُطاسه تربص الرذاذ بالاسِتنثار[2]، ثم كان همل دموعهما إذ الاثنان هامدان إلا من بعكوكة[3] لهاث تنم على ماجهداه في العُطاس والقه المكتوم. أخفى حيلة وجهه في وجه الأرمد مكتفيا بلحظ خبيث يتربص بالضيف، فيما تعمق هذا ناصيته العريضة وسائر وجهه الضيق وخفي أذنيه ومشفره الغليظ الرعاش، وطرأ في عينى حيلة تهليل لرجل لا يُستهان بقَصِره، موفور الحماسة وإن تقاصرت دونها طاقته، وفى نظرته معين طرب يصفو كالدهاء، ويؤبه له كعطره الرفراف.

إنه "عم نحمده" تاجر الجمال، ومتعهد الأموات بمكرمة الدفن حيثما ماتوا. قام الشاب يصافحه؛ فأمسك بيده ريثما يفسر له ما تعمقه في سحنة حيلة. قال عم نحمده:

– إذا ارتعش مشفر حيلة من ضحك، أو غضب وطأطأ خفي أذنيه

---

(1) الأرمد: معناها المصروع.

(2) الأستنثار: الأستنشاق.

(3) البعكوكة: أثر الشيء.

فهو وحماره نطفة مهجنة!

وضغط يده يستمهل الدهشة الباسمة؛ ليقول:

- حيلة يخفى عنا عام مولده، والعام الذى بلغ فيه حمار "دْئـدش" أبيه الحُلم؟

التحد الفنان بنفسه:

"أرأيت كيف يكون لون الوجد والضحك والدهاء؟ قدر عليك أن يمتد عمرك في الماضي، وتعبر بك دهور الأزقة دهشة الألوان!".

أجلسه عم نحمده صامدا لدعابة أم وجيدة، أو قَصاصها قالت مخاطبة ضيفها:

- نحمده رجل من عاشره كإنسان أحب الحياة، ومن عاشره كحانوتي أحب الموت، ومن عاشره كتاجر جمال صبر على الموت والحياة، ومن عاشره قصيرا داهية فهي زوجه!

أبهجهم ابتهاج حيلة وفواصل قهقهاته؛ حتى أعلن عم نحمده عن سبب مجيئه قال لحيلة:

- "عشم" النجار فرغ من النعشين هيا جهز لنا الكارو لنجلبهما.

فلفظت حنجرته عبارة متآكلة مطلسمة، أو هُباشة من ذبذبات غليظة قد ضمرت أحبالها الصوتية؛ مما أضحك الفنان وحيره إن كان حيلة يتكلم لأول مرة في حياته، أم لآخر مرة؟ فقال له عم نحمده بجدية خادعة:

- كلام حيلة اليومي همسات حمار تخرج من حنجرة إنسان!

تساءل ضاحكا:

- وماذا قال؟

أجابه ناظرا إلى الأرمد:

- كان يوبخ حماره لأنه لم يُشاركه الضحك من رأى أم وجيدة

في نحمده!

سبر الضحك رواح قلوبهم، ولم يُعكر صفو عفويته، والرضا به إلا فُجأ[1] صيحة الفرار، أو صيحة "الكبسة" وهتافها المدوي "حكومة يا ولد!" هكذا هي صيحة الفرار مألوفة داهمة. يُدوي هتافها من إحدى ثغرات الحي العتيق؛ وتتلوه هتافات تتردد كنفير غارة يشمل المساقط والأجواء ومظانّ الهروب..

طلب عم نحمده من الشاب حمل الكرسى والدخول فورا إلى الحوش؛ فنهض مُخليا جانب الشارع ومرسلا طرفه إلى ملتقى منفذيه: منفذ المرتفعات ومنفذ ساحة الباطنية، أو ساحة المقدم بُهادر ورتبته المملوكية، حيث يتدهور طلاب لذة التعاطي من هولة الجري، وتكبكبوا[2] منجرفين في اتجاه الفنان، ككتلة بشرية تفر من زبانية الفرار..

كتلة ينجرف بها الفزع إلى هاويته.

زلتها زلة القدم الواحدة، وفزعها تلاحم هو مقتلها الوشيك؛ إذا ما ارتطم كتف بكتف، أو ارتطمت الأكتاف بجدار، أو التفت بالأقدام حصباءُ الأرض أو يأس النجاة؛ فحينئذ تتقوض كتلة البشر، وتنهار أعصابها إلى حضيض اليأس والتشرذم، ولا ترى من أنقاضها إلا منكبا، أو نازفا، أو لاجئا إلى بيت، أو قاعدا إلى حائط يطلب العون والإسعاف، ومن فر بفزعه كان أول العائدين إلى ساحة الحي الجامع لنقائض البلدان، أو هو صراطها المحفوف به من كل صوب طرائق جهنم! انحصر مد الفرار عن الحوش والفنان بعتبته يستمع إلى عم نحمده

---

(1) الفجأ: الهجوم المفاجأ.

(2) تكبكبوا: تجمعوا مندفعين بشدة.

وهو يسأله:

– هل شاهدت فرارا مثل هذا؟

افتر تبسمه، وقال:

– أجل، شاهدته مرات.. ويا ليتني استطعت الفرار بشعور الفارين!

وأصغى لغُنَّة أم وجيدة الرخيمة:

– الناس كما رأيتم يأتون ليفروا. كلهم يفر، والشقي من فـــر إلى غير نفسه. الحياة لا تقبل علينا إقبال المنية. ألقوا السلام على القرير؛ فإن السعي وتيرة الحياة، وشأو[1] لا يبلغه من وقف للسلامة. إنها اللاهيـــة والشقي من أُلهى عن نفسه!

التحد الفنان بنفسه:

"من عرفك قبطيا عمدك "بكهيعص" القرآن، ومن عرفـــك فنانـــا عمدك بأديم هذه الأزقة. قدر عليك أن تتنشق بنشوقها، وتجرى بصدَفة نفسك أمواج دهورها".

لاحظ عم نحمده التحاده بوجه المرأة؛ فقال يستفيقه:

– أم وجيدة سوف تلهيك عن أم وجيدة!

تغاضت الأم عن الدعابة وشغلها أن يكون الضيف الغريب عرضة لمخبري "الكَبْسة" حال مرورهم، فطلبت منه الجلوس علـــى الكرســـي الذي بيده، أو الجلوس بإحدى أرائك الحوش، فقال يطيب خواطرها:

– حنانيك! أنا وجهي انكشف عليهم.

فقال عم نحمده:

– العبرة بالقفا في عُرف هؤلاء!

---

[1] الشأو: الغاية والهدف.

قه حيلة في وجه الأرمد، وتبعبع[1] الكلام في حنجرته بما أضحك أم وجيدة، وبما فسره عم نحمده للشاب قائلا:

– حيلة شاف "خلف" المُخبر وهو ماشٍ خلفك؟

فاقسم الفنان:

– والله! لقد رسمت خلفاً كظل إنسان ينحدر على ظهور أناس ملتصقة بحيث لا تظهر وجوههم!

وكان عم نحمده يعرف "خلفا" معرفة الجليس المقيم بدكانه قرب بوابة المتولي، وذلك منذ تلقاه وهو طالب بالأزهر يبحث عن سكن فدله على شقة بدرب العنبة. قطنها سنوات بعد التحاقه بالمباحث، وخلال هذين العهدين لم ينقطع عن الدكان.

سأله عم نحمده:

– أو حقا وقعت في سكة خلف؟

قال بنبرات تحتفي بذكرى الوقوع:

– هي سكة المقريزي التي أوقعتني في سكة خلف!

وحدثهم عن صيحة الفرار وهتافها الخاطف المتوالي الذي أخوى ساحة المقريزي العامرة، ولم يدر إلا ومُخبران يستوقفانه، ويتحسسان، ويفركان، ويضغطان، ويستكشفان، ويبتذلان ما ظهر منه وما بطن، ثم أجبره خلف على فغر فمه، وفحصه مُقسما بأم الفنان الغريب أن رائحة فمه توشى بأنه حامل في "توءم" أي قرشي حشيش.

قرقر حيلة، وصبروا علي هياج ضحكه باسمين حتى تبعبع كلامه بما ترجمه عم نحمده قائلا:

– حيلة يُخبرك أن خلف فعل بالأرمد مثل ما فعل بك؟

---

[1] تبعبع: تتابع الكلام في عجلة.

ثم بلهجة تثير فضوله:

– إن بقيت معنا حتى طلعة رجب القادم إلى القرافة؛ سوف أخبرك بما حدث للأرمد في طلعة رجب الفائت؟

يقصد يوم دس الكردي "حبة" أفيون في جيب الصدر من جلباب حيلة، وقال له:

– اليوم أريدك حصانا يا حيلة وليس أرمدا، إن نمت نم واقفا.. العيال وعماهم معك ترجع هم كما أخذهم.

ثم مشى حيلة لصق الأرمد ناسيا "حبة" الأفيون، كما ينساها في سهرات الأفراح، ورحلات السفر إلى الأموات بصحبة عم نحمده، وطوارئ الاعتكاف بالقرافة بصحبة أم وجيدة؛ حين تعتريها غِيَر النبآت وبلبلة الأرواح..

تراص الأطفال بمقدمة الكارو وسائر إطارها، وقد توالى صخبهم على حيلة كريح ثَؤْباء تنعسه فينة، وفينة تجيش به إلى لهو الاصطخاب وخفته الوثابة، فلا يزال يتلفت إليهم وهو بين الصحو والنعاس، ولدى ثغرة الجبل احتجزه خلف بإشارة من "فخري" بك الضابط، وكان هذا قد حتأ[1] بظهر الكارو امرأة لا يعيبها الامتلاء. امرأة لا يعيبها الامتلاء. امتلاء غير جائر جوارحه واضحة معلنة، هو نضارها، وحمرة وجهها وجيدها المصبوب بصدر مكتنز بإغراء شهي خاطف للأبصار. سألها الضابط:

– ألست امرأة الكردي؟

فقالت وكحل عينيها يُبدى العبوس مَلامًا:

– وهؤلاء أولاده في زيارة إلى قبر جدهم وجدهم!

---

[1] حتأ: النظر بحدة.

فراغت عيناه عن جارحة كحلها صوب حيلة؛ مما عمد بخلف الذى فغمت أنفه رائحة "حبة" الأفيون، أن يُعرض عـــن الحمـــار الآدمـــي المعروف لديه، ويرتاب في الحمار الطبيعي؛ فدار حوله يفتش برذعتـــه والخيش والأحزمة والعريش، ويبتعد عنه فتـــضيع رائحـــة الأفيـــون.. يتفقدها في عب أسفل الكارو، وفيما بين الأطفال وما شذ من عطـــور النساء، ثم ارتد إلى حيله يقول له مرجحا ظنا لا تظنه الحمير:

- قل للأرمد يفتح حنكه!

ظن خلف أن النسوة ورطن حيلة، وحملنه على إخفاء الأفيـــون، أو إهداره في جوف الأرمد لما فجئن بكمين المباحث والكـــارو ينحـــدر نحوهم، ولكن البك لم يظن ظن خلف، و لم يخطر بظنه أن يُذعن الحمار لصاحبه ويفغر حنكه!

سأل الضابط المُخبرين:

- ماذا يشم خلف في حنك الحمار؟!

فأهلسوا[1] بالضحك الفاتر وحبسوه قدر المستطاع إكراما لخلف، الذي أجاب البك بما يُبرئ حيلة من التواطؤ مع الحمار، أو درايته بمكان رائحة الأفيون. قال:

- حيلة ده، حمار يا فخري بك!

فقال كمن أخذ بحجته:

- وماذا تنتظر يا خلف؟ مُر الحمار أن يطلب من صاحبه فتح فمه؛ وإن امتنع الحمار استأذنه في تفتيش حيله!

فضرب بكفه عبال حيلة "المرطرط" وقال:

- حيلة، عار في قافلة الحريم والأحياء يا فخري بك!

---

[1] أهلس: اخفى ضحكه. والإهلاس ضحك فيه فتور.

ثم سُمح للكارو أن تسير بسلام والنسوة بظهرها ينتهزن الضحكات هز المُخالبة[1] والانشراح..

ولما عاتب عم نحمده خلفاً بالدكان قال له:

- فخرى بك، ارتاب في امرأة الكردي، بل إنه ارتاب في أيضا، و لم يصدقني وأنا أخبره بوجهة الكارو إلى القرافة!

وارتبك خلف قائلا:

- لقد أعمتني رائحة الأفيون عن الحمار الآدمي الذى أعرفه؟

يقصد حيلة، وتضاحك قائلاً:

- لم ينقذ حيلة إلا "سنة الأفيون" التي اصطبحت بها. تركته يفلت وأنا أقول لنفسي: الرائحة رائحة فمك يا خلف!

احتشدت "الكبسة" في مضيق الشارع ولا يكاد يُسمع لها هسيس[2]؛ وإنما هي نظرات مخبريها وضبطها تجتاح كل شي، ولا شيء يصمد لسطوتها..

كان خلف في مؤخرتها يدفع أمامه فتيين، قد عقد طرفي قميصهما بعقدتين "ككلبش" حديد. واستطاع لباع فضوله وهوجاء طوله أن يفرز بباب الحوش، وجه عم نحمده، ووجه الفنان الذى تبسم من نظرته "الهوائية كغاز سام يغتالك وأنت تحلم!" لم يغض خلف بصره عنه حتى حازاه ومال على عم نحمده يومئ برأسه ويقول:

- الزبون ده، خذ حقك منه مُقدما لأنه سيتبخر قبل أن تدخله النعش!

---

(1) المخالبة: المخادعة.

(2) الهسيس: كلام النفس أو الخفي.

يشير إلى هُزال الفنان وانضواء[1] بدنه. وأوقف خلف الفتايين ضاربا بكفه ظهر أحدهما، وقال لأم وجيدة:

- ضيفك رسام ضاقت به البلد وجاءك لتأخذي "أتره" يمكن ترقيه من خرف الرسم، وخراعة صحته!

ثم ضرب ظهر الفتى الآخر ليلحق ثلاثتهم بحشد "الكبسة". أوشك الفنان على التبخر من الضحك، فأمهله عم نحمده وقال:

- خلف يذكرك كما يذكر الأرمد!

قال:

- لما تحقق من أنني رسام، وأن حملي في قرشي الحشيش كاذب؛ طالبني أن أرسمه بوجه لا يستطيع أن يراه خاصة في القسم!

فقلت له:

- إذن، لا حيلة لى إلا برسمك في الظلام؟ فحرك زميله المُخبر لمغادرة ساحة المقريزي وهو يقول:

- ارسمني أنت في الظلام وأنا سأتفرج على نفسي في الشمس!

سألته طامعا في "قفشته":

- شمس القسم؟

فقال:

- القسم، شمسه ليلية مثل نجوم النهار!

كركر حيلة من كلمة "الحيلة"، وتعمق الفنان وجهه وتضاعيفه المدرعة الطفولية، والتحد بنفسه يُحدثه:

"لو يتكلم لسانك يا حيلة كما يضحك وجهك، وتتفرس عينك؟".

سمع عم نحمده يقول:

---

[1] انضواء: شدة النحول.

– محنة حيلة في فوران قلبه. حيلة أخف وزنا من جلبابه يا بني!

سأله:

– هل رأيت أبا الهول يا عم نحمده؟

أذهله قائلا:

– رأيته، ولم أُخدع بصمته، لو كان صامتا ما بقى إلى الآن!

التحد بنفسه:

"من يمسك الأزميل؟ عم نحمده أم الفنان القديم؟ قدر عليك أن تُبقى في لوحة من لوحاتك مساحة لأزميل هذا الرجل؟ ".

والتقت عيناه بعيني أم وجيدة؛ فعبر أطلال الوجد الباكى إلى فرحة الدوام! وقشعرته غنة النبأة إذ تقول له:

– الأحزان نصيبك من نفسك. يبسم لها من فر إليها، وتبسم منك الأحزان وأنت تفر منها.. لو فر الظالم إلى نفسه ما تجدد ظلمه. الموت نفسه يفر إلينا ساعيا إلى وتيرة الحياة. لولا غمرة الفرار ما أتى أحد!

أجابها عم نحمده:

– ولا مات أحد يا أم وجيدة!

ثم استأذنها ضاحكا في أن يفر بحيلة والأرمد، وخير الرسام قائلا:

– إن جئت معي سأريك ما لم يره رسام من قبل؟

فقال يذكره بنصيحة خلف بأدراجه في النعش قبل أن يتبخر:

– لعلهما النعشان؟!

فقالت أم وجيدة باسمة تشوقه ولا تفسد على نحمده دواعي الضيافة:

– نحمده سوف يُخلبك بممر الفسيفساء والفسقية أسفل بيته!

كان محروس يرابض لندوة السطح مساء كل جمعة. يجلس إلى الطبلية يذاكر ولا يذاكر، بينما يجلس معلم الكتاب على دكة المطالعات، وقد يطرح سؤلا على الندوة:

- هل يستطيع الخيال أن يحول عقول علمائنا النظرية الهاضمة لنظريات الغرب إلى عقول معملية تطبق نظريات العلم؟

فقال مدرس جامعي يُدرس الكيمياء بلهجة تتعجب ولا تستفسر:

- وما للخيال والمعمل؟!

فأجابه:

- الخيال وحده هو الذى سيقول لنا ما الشمس؟

قال يماريه:

- وماذا سيقول لنا العلم؟

- العلم قد يصف عناصرها وانفجاراتها، ولكنه لا يقول لنا لماذا تدفئنا وتحرص على حياتنا؟ الخيال يحول انفجارات الشمس إلى عاطفة بيننا وبينها، وإلا فلم تصل إلينا وتعرفنا بنفسها؟ ولماذا تحترق من أجلنا؟ هكذا يفكر الخيال.

ثم ضرب مثل التفاحة قائلا:

- العلم يقول لنا لماذا التفاحة مفيدة؟ والخيال يقول لنا لماذا هي لذيذة ولذتها المميزة عن سواها تريدنا؟

وشاركه آخر:

- قد يُشبه لنا رجلين، أما طعم الموز وطعم التفاح فلا شبة بينهما!

- الحواس تنبهنا إلى لذة التفاحة المنسية!

- أو لذة الخيال الذى يحول عناصر التفاحة إلى معنى من بدائه الكون مستحيل اختلاطه بغيره!

- أو لذة الكائن الناقص المتجرد للكمال!

ويدهشهم محروس من وراء الطبلية قائلا:

- والعناصر تتحول في المعمل لا أشعر بقيود المدرسة، هناك دائما معنى من تحول الكبريت إلى نار، والنار إلى دخان، والدخان إلى شيء آخر ننتظر حدوثه؟

وكأنما فتح لهم شعوره بابا ظاهره فيه الرحمة، وفي باطنه لذة الكشف؛ فكافأه معلمه بنظرة الإعجاب وإيماءة التسليم، وقال:

- إرادة التحول هذه هي "جذبة الخيال" إلى صورة النار وصورة الدخان ومن ثم إلى غير المحدود؟

- أو إلى ما كانت حدوده وحدة، كوحدة الكون وجوهر الروح!

- الكمال كل يوم هو في شأن؟

وتبدل الإعجاب في نظرته سؤالا:

- أليس الدخان أذى للحواس في حين أنه معنى وإرادة في الخيال والبديهة!؟

ويتبدل السؤال في نظرته عطفة ويقول له:

- لا يكفى القعود للمذاكرة ولابد من خيال يجذبك إلى طموح النجاح واستقلاله، وإلى بديهة تجمع شتات المعرفة، أو تحد من غلواء العلم!

جذب الخيال محروسا إلى استقلال النجاح وطموحه، واستأنف معالجة تعسُّره في حل مسائل الحساب. انحنى على الكراسة وفروض المسألة الرياضية تسبح مع نقرات القلم في مجرة من النقاط المنضغطة، والمطوقة بألسنة من غبار خياله الكوني.. وما درى إلا والأعداد تصفو خطواها، وتنتظم نتائجها، فطفق يقيدها بين السطور أو خيوط جاذبيتها غير مصدق أن للأعداد خيال كخيال الطائر الأسود، والبومة البيضاء، والمرتفعات، وبرج المراقبة، وأيضا خيال الشمس.

فرغ من حل المسألة وقد أدهشه استئثار العدد(واحد) بنتيجتها، وتكراره ثلاثا كأنه شبح فشله، أو قرينه الثالث الذي "خـــواه" طـــوال العام الدراسي، فيما كان ينحدر بدرجات التقييم من خمس، إلى أربع، إلى ثلاث، إلى اثنتين، وبتجمده عند قمة الواحد؛ واساه معلمه مواساة كالتهنئة أو كعثرة الفضيلة التى لا ينقطع رجاؤها. قال له:

– لا تحزن الواحد أكمل الأعداد، وما عاداه يفتقر إلى غيره فنحن نقول: واحد وواحد يساويان اثنين، ولا نقول: نصف ونصف يـــساويا ن واحدا، إلا تجاوزا!

وفيما كان هلال رمضان يحتفى به ما لا يحصى من نجوم تومض في سماء السطح ومضات فَيُوضَة تؤنس الوليد المنتظر اكتماله باكتمال إرادة الصائمين؛ فتح كراسة الحساب للهلال المعقوف كراهب يؤم فيوضات الروح في صلاة يريدها الواحد القهار؛ وإذا بصك الواحد المستغنى عن الغفران وتقيم المدرسة قد صكه المدرس، وذيله بتحذير إلى ولى الأمـــر بسرعة الحضور. طوي الكراسة على الطبلية ورفع رأسه للهلال يسأله: "كم هلالٍ في السماوات؟"

أرهبه نور الخشوع المتبتل المعقوف، والمستحيل تعـــدد صـــفائه. أخفض رأسه على تبسم معلمه الموشى بما يصف به استغراقه ذا الريشة والبطحة؛ أي تفرده المتهم في غير جريرة، وراق لبعضهم أن يُشركه في موضوع الندوة فناداه:

– يا صديقي محروس! أي أنواع الصيام تحب؟

قال:

– الصيام الذى يجعلك لا تفطر وأنت وحدك!

احتفت به أمارات الإعجاب، وداعبه معلمه نـــاظرا إلى كراســـة الحساب كأنما قد اطلع على الواحد الجديـــد مـــن درجـــات التقيـــيم

المدرسي، وقال يؤازره بمواساة عثرة الفضيلة:

- وكذلك لا تنقضي فوائد الواحد!

بصمت أصابع محروس العشر على الكراسة، وسألهم سؤاله لنفسه قبل أن يشرد في مولد الهلال:

- أو هناك صيام لإرضاء الأرواح؟

أجابه من كان يتحدث عن أنواع الصيام:

- نعم، كان أجددنا يرضون أرواح أسلافهم في أحلامهم بالصيام، ولازلنا نحن نرضيهم في المقابر بفطير الرحمة!

- وثمة صيام لإبعاد الشياطين!

ثم توحد خياله بالفتيات الكواعب من قبائل الأمريكتين اللاتي يُحبسن في الأكواخ، ويحجبن عن النور لأن روحا من الآلهة غيورا تستولى عليهن!

تساءل آخر:

- هل يُعد البيات الشتوي لبعض الحيوانات نوعا من الصيام؟

- ولم لا؟ وسيان أن نسمى البيات قدرة يلجأ إليها الحيوان، أو نسميه صياما فلكليهما نصيب من إرادة الحياة!.

ولّما اكتمل هلال رمضان باكتمال إرادة الصائمين كان نصيبه من صكوك الواحد المستغنى عن غفران المدرسة ما يقرب من ثلاثين صكا مزيلا بتحذيرات سرعة الحضور من ولي الأمر. لم يُفوت محروس يوم جمعة إلا وهو يقترح على معلمه، أن يرسل كراسة الحساب إلى المدرس؛ لكي يكمل له إرادة الواحد كما تكتمل إرادة الصائمين؛ فكان يعارض اقتراحه كل جمعة معارضة جديدة. كأن يقول له ضاحكاً:

- هو الذي يحتاج إلى إرادة الواحد!

وفي الجمعة التالية يقول:

- واحدك رياضة خيال، وواحده رياضة بطن!

وفي التالية يُزيل إحدى تحذيرات حضور ولي الأمر، ويكتب إليه قائلاً: سوف نحضر إليكم فوراً ما أن ينتهي عن تحذيراته الواحد الجوعان في مدرستكم!

يقصد الجوعان إلى الدروس الخصوصية. وفي الجمعة الأخيرة من رمضان سلى صيام محروس وصيام الندوة مقارناً بين رياضة الأعداد ورياضة الصيام، ثم شرح حكمة الأعداد، وعموم موسيقاها وهارمونيتها عند فيثاغورث؛ وهو من الصوامين المتوحدين، ثم تصرف في فقرة من كتاب "الله" للأستاذ العقاد، وأفهمه:

"إن الأصل في الأشياء أنها أعداد أو نغمات، وكلها حالة في الواحد، والواحد يحل فيها! وأنت يلازمك العدد، أو النغمة في دورات أبدية في حين ينفصل عنك لونك، وحجمك، وكثافتك، بل وروحك أيضا، فقد تنسخ طيرا أسود، أو طيرا أبيض!"

يقصد الطائر قراقوش، وبومة أم وجيدة.

أما مدرس الحساب فقد أُلهِم السخرية وصقيع طابور الصباح يُوسن محروسا في بياته الشتوي، ولكنه انتبه على تحية المدرس التي تناقلتها الألسن باستخفاف كاستخفاف الإشاعة بالحقيقة. ثبت عينيه عليه من مقدمة الطابور، وأقبل يقول بوجه جامع لكلفة العبوس والتهليل:

- أهلا.. أهلا بالتلميذ.. واحد.. عبد الواحد.. الرقيق!

يقصد الرق لا الرقة، وقد فصل الكلمات بفواصل وئيدة؛ أملت لكيد الاستخفاف بلقبه أن يسلب كل كلمة حياءها، واستقلال شعورها. ويشحذ ألسن زملائه؛ ففصلوا النداءات بنفس السخر المتقطع، والمتهافت من قوارع الطوابير:

- يا ولد يا رقيق!

- والنبي رقتك ما هي على حد!
- يا واحد!
- يا عبد الواحد!
- يا عبد الفصل!
- يا عبده المحروس!
- يا عم عب... بوه
- يا دو..دو
- ياهوو..

وقد آثر التضاحك معهم في الحصص، والطوابير، و"المـــرواح" حتى اكتملت عاطفة الاستخفاف في نفسه خيالا؛ قد اشتد به جناحـــا الطائر الأسود فما تهيب هجرة، وما تهيب أن يعود بأخبـــار ثـــورات الرقيق، وعبيد الشرق حيث حكومة شمسها رمز النور والحرية.

كان ينصب أخشاب الصلبان على سور السطح ويُمهَرها بأسمـــاء قادة الثورات: سبارتاكوس، وأونس، والخبيث الزنجي، وثورة التلميـــذ الأسود في الولايات الأمريكية بقيادة الشهيد مارتن لوثر، وذكر عبـــد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا، والكوشي جد اليهودي الذي جـــاء ذكره في الإصحاح السادس والثلاثين..، وكما أعمل معلمه ريـــشته في خياله بكلام "كليوس" ربة التاريخ، فقد أعملها في وعيه وكتـــب لـــه مشهدا في كراسة "شذور الخيال" افتتحه بظهور بمباى[1] قِبَل عبـــاءة شرقية سوداء ترسل طرفيها صوبه قاصدة طيَّه في غورها؛ فتقهقر.. وند صوته يصد خطرها:

- أنا بمباى فخر روما!

---

[1] بمباي: الذي قضى على ثورة العبيد بقيادة سبرتاكوس.

فيطالعه وجه من زيق العباءة:
- وأنا سبارتاكوس بشارة سقوطها!
.بمباى مزريا بالمفاجأة:
- أنت؟! ألم تأكل الطير رأسك؟
سبارتاكوس مطم-ئنا إلي الطير:
- بل الطير حرستها كما ترى!
.بمباي:
- أنت شبح حقود!
سبارتاكوس:
- وأنت حقد مُترف!
.بمباى مزهوا:
- وماذا تريد من .بمباى؟
سبارتاكوس واثقا:
- أن نتعرض معا لرعد السماء!
.بمباى مستخفا:
- وأين هي السماء التي تظلك أيها العبد الأبق؟
سبارتاكوس مرسلا هامته إلى عنان السماء:
- هي بعينها ما سوف يأتيك رعدها!

ثم يختفي الاثنان ولمعة برق تُظهر في السماء إكليل روما معلقـــا على خشبة مصلب.

سألته أمه وهو مستلقٍ في فراشه يقرأ المشهد، ويعيد قرأته:
- ما هذه الكراسة التي أَنت لها ساهر؟
تململ قائلا:
- إنها كراسة جذبة النجاح!

فأومأت برأسها إيماءات متراخية تملي له وقالت:

- جذبة النجاح أم مجاذيب السطح؟

وتأثرت بجديته، وتململه مؤولة الجذبة مجددا:

- وإن شاء الله سوف تمتحن امتحان الشهادة الابتدائية مع مجاذيب الشوارع؟

ليلتها أتاه المنام بوعي حلم؛ فرأى زملاءه في دروع الحديد تصهرهم الشمس وقد أووا إلى جثمان طاهر يحمل صدره صخرة، يعلو وينخفض بها مرددا:

"أحدُ...أحدُ.."،

ثم تلاشى ترديد الحلم في أثر حلم؛ أنطرح فيه مثل الجثمان وصدره يعلو ويهبط بحقيبة المدرسة مرددا:

"أحدُ... أحدُ...".

مدرس الكيمياء اكتشف قانون الخيال وجاذبيته، ولم يُماري معلم الكتاب في أن البدائه لها طفرات لا تباغت العقول الكبيرة، مباغتة الارتجال والغفلة، وإنما هي مباغتة التوقد ويقظة الحب من أول نظرة!

أو هي طفرة البديهة التي تلهم العقول أسرار الكون ووحيه، وهى على لذة من الفكر كلذة الثملان والنشوة السارية في أعصابه تفاجئه بنفسها في دورة من الحنين إلى الرشفة الأولى المفعمة بفحوى السكرة، وضرب له مثل التفاحة ولحظة سقوطها:

"فتلك اللحظة ليست داهمة كما قد يعتقد، بل هي الدورة الأخيرة للذة قبيل أن يفيق الثملان - يقصد نيوتن - من نشوة الجاذبية السارية في أعصابه؛ مذ ارتشفت بديهته رشفة القانون كله التي تغنى عن سائر الكأس. البدائه تضع البذور والفكر يحصد، ولابد لنشوة الثمار وإن تكن في طي الغيب من أن تسرى في روع الزارع المنتظر!".

ثم غادر مدرس الكيمياء الندوة وهو يردد ما استهلت به أمسيتها. شعر العقاد:

والعقل من نسل الحياة وإنما
قد شاب وهي صغيرة تتزين
مادام في الكون ركن في الحياة يرى
ففي صحائفه للشعر ديوان

فلاحقه معلم الكتاب:

- أو في صحائفه للخيال ديوان.

فلا غرو أن يُغلق عقل محروس دون الفروض العقلية لمسألة الحساب الثانية، ولم تسلس له أيا من خطواتها؛ فأخذ بالبرجل يرشقه في الطبلية، ولكن ظلال الذاكرة عُقف في وميضها هلال رمضان على مدرس الحساب وهو يصك الكراسة؛ ويرسل زوجه بها سرا إلى أمه.

وقبل أن تصل إلى بيتها حملت أمه الكراسة وأتت بها الفصل، وبهدوئه اللاهث أخرجه على السبورة، وقد خط مسألة وطلب منه الحل؟. ثم أزالها، وخط الثانية وأزالها، وخط الثالثة ولم يزلها، ثم أوسع ما بين ذراعيه لأمه كأنما يتبرأ من دنس بلادته وعته بلاهته، أو يخلى بينها وبينه، أو يمزق وشائجه بالفصل، إلا وشيجة قلبه "سوسن" زميلته المحتل مقعدها أول المقاعد من السبورة حتى أنه قد سمع شهيق أنفاسها الأسيفة.

ترك محروسا ساهما عييا إزاء المسألة القاهرة، وطباشيرها البنفسجي الضارب إلى سواد يشبه تراب "كيم" اسم مصر القديم. بمعنى الأرض السوداء ومنها أخذ اليونان كلمة الكيمياء كما قال مدرس الكيمياء.

كانت السبورة مُنقلَب هاوية يشهق بأنفاس أمه وظلمات عينيها. بمثل تلك النظرة في مآقيها تقوم قيامة العلم، ويُنصب لأربابه الميزان، وينفخ فيثاغورث في سوره المُشيد؛ لتنبعث الأعداد من أجداثها، ثم يشهد الواحد على نفسه بأنه البحر المسجور. والاثنان بأنها النفخة الثانية، والثلاثة بأنها البداية والوسط والنهاية، والأربعة بأنها مصادفة الحروف الأربعة في زيوس، والله، وجوف، ويهوا، وديفا، وديو، وجوت، و لورد. والخمسة القارات الخمس، والستة موسيقى الكون وسر أسراره، والسبعة عجائب الدنيا وخطاياها، والثمانية جبل الجودي، والتسعة مُثل الكائنات، والعشرة بأنها أمه.

ناولته الكراسة عيية صموتة وانصرفت من لحظتها تاركة محروسا ودقات قلبه تهبط ولا تصعد، ولكنه تزلزل وسوسن تنهض من تلقاء قلبها إلى السبورة مُزيلة المسألة تماما، ومطهرة قلبه من وضرها القهار وترابه الأسود وعلمه الذي يستعان عليه بالأرواح الشريرة!

رجع من المدرسة يلتمس جدته في البلكونة، فوجدها تتشمس

وتنقى العدس. أسقط الحقيبة إلى قدميه؛ فرفعت رأسها من المصفاة وبنات شفتيها كبنات الماء يهتدين بهدى الفراسة، وصمود الخيال، و نفخن في منقلب السبورة لينبعث طائرها الأسود، ويجوب صراط حافتيها: حافة الميلاد، وحافة الهجرة، ثم ضم جناحيه على سوسن إذ تزيل المسألة القاهرة وطباشيرها البنفسجي الأسود.

سمع جدته تقول ونظرتها تواسيه كأنها رجاء فشله:

- امرأته كانت هنا.

- من؟

- مدرس الحساب!

- لِمَ؟

- اتفقنا معها على الدرس.

حمل الحقيبة ليدور بها خياله في غباره الكوني، ثم قذفها في منقلب الهاوية.. سألته ونظرتها تواسيه كرجاء فشله:

- أين ستأخذ الدرس؟

قال باطنه: استدراجه إلى السطح وتوحيده بلذة التفاحة فضيلة كفضيلة فشله. وربما رأى خيال بطنه التفاحة في مجرة الطبلية حمراء ككوكب المريخ إله الحرب عند البابليين.

وبسهولة فادحة استدرجه محروس إلى السطح.

استطعم التفاحة بقضمتين لاهثتين، واستهل الدرس بواحدة من مسائل الطباشير البنفسجي. سودها في الكراسة، وابتهجت نظرته على معنيين ساذجين: معنى يكيد بلادته، ومعنى يتصاغر لِمَنّها. قال:

- هذه المسألة هي بداية الفرحة للمرأتين!

فقال باطنه: بل هي لعنة الفراعنة لمن نفض غبار قبرها!

تمصمص، وقال:

- ستُفرِحُ من أولاً أمك أم جدتك؟

قال باطنه: سأفرح عبيد الشرق.

لهث في قضمتين، وقال:

- أمك سوف تتعجل شطارتك.

وأدار الكراسة بينهما بذراع كسولة لاهية في القضم. بدأ الشرح؛ فأعاقه مُسائلا:

- لذة التفاحة أسبق في الوجود أم التفاحة؟

تمصمص، وحوقل في التفاحة، وضغطها قائلا:

- التفاحة طبعا، فلولاها ما عرفنا اللذة!

بارز لولاه هذه:

- ولولا اللذة ما استطعمنا التفاحة!

قضم قضمة ممعنة في التلذذ وهو يقول لنفسه:

- أليست اللذة تحصل بعد القضم؟

صوب أصبعه إلى القضم قائلا:

- بل القضم يذكرنا بلذة التفاحة المنسية!

تهافت يقول:

- التي تتنبه الآن هي معدتي!

فأبهته بكلام معلمه:

- التفاحة تسرنا وتعلمنا التجرد لسرور الآخرين، فداحتنا في الأنانية ليست فيما نغتصبه، أو فيما نضن به، وإنما الفداحة في افتقارنا لمن يسره وجودنا وفكرتنا!

تفل بذور التفاحة بلهاث عصبي، وجذب الكراسة إلى حافة الطبلية وهو يقول:

- خَلِّنا يا محروس في فرحة المرأتين!

لا الطبلية أغنت عن منقلب السبورة ولا السطح أغنى عن الفصل، وإنما هو شعور الواحد وكبرياؤه، ما ونيا يترجمان عثـــرة الفـــضيلة، أو عثرة الفشل لحنا فيثاغورثيا:

"أنا دورة الأبد وتناسخ أرواحه".

ورغم عذوبة اللحن، فقد استخفت أمه بأبديته ولاك لساها لحنـــا آخر يناهضه:

"أنت دورة البلادة وعذاب أرواحنا".

ولكن الاستماتة وليدة النار والرماد، ولإرادة التحول جذبة فعلـــت الأفاعيل بالمدرس، وقلبت سخريته سخطا، وسخطه شماتـــة، وشماتتـــه تواطؤا، وتواطؤه يأسا، ويأسه رمادا جعله؛ يستميت على ثمن الـــدرس، بينما استمات محروس في وصمة الكمال وصكوك الواحد المستغني عن درجات التقييم المدرسي.

قالت أمه للمدرس ووجهه جامع لانفعالات الرماد المستميت ويده تتدلى إلى ثمن الحصة:

- اللهم اجعل هذه الفلوس ثمنا أخيرا للواحد الأخير!

واستوضحته ويده تندس بالثمن في جيبه:

- ألم يكن من الأفضل لسمعتك ألا تعطيه درجة أصلا؟!

ثم كالمتوسلة:

- لماذا تصر على إعطائه درجة واحدة؟!

فزل لسانه في اسمه قائلا وهو مزبد جانبي الفم:

- عبد الواحد ابنك لا يعرف من الأعداد غير الواحد!

فتضاحكت مذعنة لروح العدد واحد العاقدة للألسن: عقدة الزلل، وعقدة الاستخفاف، وعقدة قلبها، فقد زل قلبها؛ ونادته هي أيضا بلقبه المُستخف به غير واعية بما نادت؛ حتى نبهها محروس قائلا:

- بقى لك نداءان وتتناسخين مع روح عبد الواحد!

فقالت:

- يقطع سنين عبيد السطح.؟

تشير إلى صلباهم المنصوبة بسوره، ورهبة المدرس والجيران من مواقعها ونسورها التي أكلت رؤوس الثوار؛ فيما نقله لهم على لسان "كليوس" ويسألونه: ومن كليوس؟ فيشير إلى طائر الوطواط وهو يُعاود المُروق بين صلبان السور.

عاود رشق البرجل في الطبلية، ثم رشقه في صورة المسألة؛ لتبدي له ظلال الذاكرة منظرا فذا صارخا، كأنه قانون الطفو يستبد بأرشميدس، ويسوقه منتشيا عاريا صائحا من حوض الماء إلى حيث الناس:

"يورك.. يورك.." أي وجدها.. وجدها.

خلفية المنظر؛ أمه ترسله بصينية مرصعة بكعك العيد إلى بيت مدرس الحساب التالي لدكان "عشم" صانع النعوش لعم نحمده. استقبلته زوجته في روب أنيق فواح باسمة شاكرة ممتنة. ناولها الصينية فاستوقفته قائلة:

- الأستاذ يريدك.

اتبع إشارة ذراعها حتى سطعت الظلال عليه وهو يفترش بلاط الصالة موسعا ما بين رجليه وضاغطا بمفصل يسراه على "ذكر بط" سمين. تركه يتفرج، ثم رفع رأسه قائلا:

- جدتك توعدتني! إذا ما واظبت أنت على درجتك الواحدة؛ فلن تكون هدية العيد إلا كعكة واحدة، ولكنها وعدتني أن الدرجة بعشر أمثالها من الكعك!

أنهى جولة "التظغيط" ومسح يده في صدر ذكر البط، ودسها في جيب البيجامة الأيمن، وتعثر في إخراجها نافضا جانب البيجامة المهلهل،

ويرفرفه رفرفة قطعة غسيل من هواء أهوج، وفى أثناء ذلك خف مفصل يسراه عن ذكر البط فدرج، واستدار شاخصا بين رجليه يلهث، ويمط رقبته مطاً هزازا، ومنتظرا في امتثال عجيب..

انتشل يده من الجيب مُشهرا ورقة منثنية. قال في حزم أقـــرب إلى الهزل منه إلى التحذير والتخويف:

- إياك! أن يعلم أحد من زملائك بما في هذه الورقة من مـــسائل مفهوم، حتى جدتك وأمك مفهوم، تحفظ الخطوات والنتائج كما تحفظ أسماء الثوار من العبيد مفهوم!

ومن تلقاء نفسه اندرج ذكر البط تحت مفصل الركبة؛ فهيـــأه لجولة تظغيط، وترك الآخر يتفرج، ويلم بأطواره وهو ساخر، ثم وهـــو ساخط،، ثم وهو شامت، ثم وهو متواطئ معه ومسربا إليـــه مـــسائل اختبار الشهر.

كان هوهو في جملة أطواره. هدوء لاهث مستمر، ولعلها عـــصبية مُنهكة، قوامها انفعال هائم كبخار الماء المتصاعد من إناء يغلي إلى غير غطاء، أو سقف، أو مصير يبشر بهطول المطر أو قوة دافعة.

كان في مجلسٍ طرُبَ الضحك فيه، أو كما قال عم نحمده:

"كان الضحك كقرين مسطول تائه عن سبب مجيئـــه إلى الـــدنيا؛ فراح يعبث بالنعمة والبلاء، ويقف على كاهل الفاسق يتعبـــد وعلـــى كاهل العابد يفسق، و لكن أستاذ الأعداد المدرسية تقوقـــع في بخـــار انفعاله حتى صاح به أحدهم مشفقا:

- ما بالك يا أستاذ فلان؟

فحفل بذبذبة اسمه في أذنيه بمقدار ما همْ برأسه ونكسه؛ فـــدارت عليه دائرة الأصوات:

- الأستاذ باله ليس معه!

- أنا شفت باله من كذا سنة ماشي لوحده!

- ماشي إلى الوراء، أم إلى الأمام؟

- لا وراء ولا أمام كان ماشيا على كيفه!

- إذن العبيط من ينتظر وصول باله!

- يا راجل! اضحك يضحك لك الضحك!

- إنه لا يقدر على الضحك بنفسه!

- إنه ضحوك بالنيابة!

- يا ساتر استر!

ثم ختم المجلس وعم نجمده يهمس لعشم النجار:

- أتصور، وبعض التصور تصور أن أستاذ الأعداد باله مخروم مثل "الكاوتش" يتسرب منه الضحك!

لما رجع بالصينية فارغة سألته أمه:

- هل وجدت الأستاذ؟

قال ومنظر افتراشه للبلاط يُلقح خياله بمشهد ينتظر القلم:

- كان "يظغط" ذكر البط!

فتبادلت وأمها نظرة سرعان ما عصف بتبسمها الضحك، ثم قالت الجدة:

- الرجال لا يفرطون في حقوقهم وواجباهم كاملة؟

وبلهجة أربكت ابنتها:

- في بعض الشئون الذكر لا يطعم الذكر إلا لعلة؟!

للنكتة القديمة علل خفية لا يصلح لها الضحك العجول.

انفض يأس المدرس رمادا مستميتا، فتولى شطر المرأتين والغـــروب غلالة صفراء. قعد على الكنبة بجوار الجدة ناشرا في الهواء ورقة اختبـــار الشهر. قال لهما:

– إليكما ما يفعله بكما وبنفسه!

تبادلتا ورقة الاختبار ودهشة التجهم توسع أحداقهما على "ذكـــر بط" مرسوم بمهارة، ويمط رقبته إلى السبورة متقاطرا من منقاره طباشير بنفسجي بالون العلم الأسود؛ يصور فداحة الجهد المسكوب في مناجاة سواد السبورة؛ بحل خطوة الدرجة الواحدة مـــن مـــسألة دون ســـائر المسائل، وقد رسم الجملة التالية كوعاء لِمَ يتقاطر من الطباشير: "بقيـــة الحل تأتى لما البط يؤذن: كوكو كوكو". كـــان المـــدرس ملـــهيا في مشروب كاكاو أحضرته أخته.. استرجعت المرأتان عبارة ابنهما: "كان يظغط ذكر البط!" فوقع المدرس لبصرهما موقع العلة الـــتي انكـــشف مستورها، وتورطت الاثنتان في استقصاء أوجه الشبه بينه وبين ذكـــر البط،، وكأنما خيال ابنهما قد بعث الفطنة في مخيلتيهما، فما طرفتا عنه وهو عاكف على الكوب يرتشفه، ويتمزمز نكهته، ويمط رقبته وبـــوزه في كبرياء مهوش، أو دِلَّة شبع ليست إلا افتقاراً للجـــوع والتظغـــيط. تركهما تتفرجان، وتستقصيان، وتديران النظرات في تهـــوش كبريائـــه ونظيره في ورقة الإجابة، وكلما مال برقبته و تمزمز نكهـــة الكاكـــاو، وهام في غفلة بخارها؛ أغربت بهما لذائذ من الضحك: لـــذة خـــاطرة كعك العيد وغمزها الذى أربك الابنة، ولذة خيال الابن الساحر، ولذة غفلة المدرس، ولذة الغيظ من فشل الابن المُستخف بالنجـــاح، ولـــذة مفاجأة العلة المستورة وغرابة أوجه الشبه "بذكر الـــبط"، ولـــولا أن مصيبة الضحك باطنها رحمة؛ لأغربت بهما لذائذه إلى حيـــث عثـــرة

الورع؛ أي التحلل من ملل القلوب إلى شراهتها. وكما سيرت المصيبة الإغراب كظمته، وإذا بالجدة تخاطب المدرس دامعة، ولعلها قصدت جره إلى لذة الضحك؛ لدرء لذة الإحراج. قالت له مستعطفة:

- لو ترسل معه في الامتحان القادم "ذكر بط" واحدا من بطك الفصيح!

فاستأنفت أمه الضحك ناشرة ورقة الإجابة كما نشرها لهما، وقالت:

- يظهر أن بط الأستاذ مُغرم بالدرجة الواحدة أيضا!

فأقسم المدرس محصنا بالغفلة:

- والله! لا بطي ولا بط غيري، ولا حتى بط الوزارة بنافع من يتوهم أن صلبان العبيد المنصوبة بأسوار السطح تحرس صخرة سيدنا بلال!

قالت أمه مُستفزة وقد أوشك لسانها أن يبدل كلمة بكلمة:

- ما المصيبة في "بط" الوزارة وليس في تلاميذها!

فألهته عن نرفزتها رشفة لهثت في نصف الكوب الفارغ؛ حتى أهاجت زفير منخريه المحبوس، وتثاءبت ساحبة تصور مصيرها الهائم وهو يزدرد الكاكاو، ثم قال غير عابئ باطلاعهما على تواطئه معه:

- إني أسلمته مسائل الاختبار مسألة.. مسألة!

وسأله:

- أين المسائل؟ أين الخطوات؟ أين النتائج؟

فتبسم لجدته تبسما يقول: كل أولئك في منقار ذكر البط المتقاطر بالطباشير البنفسجي!

وتدوم الغفلة كأنها خطايا الدنيا السبع!

فما يني يراجع معه على الطبلية مسألة بعينها، ويستظهره خطواتها ونتائجها، ثم يسخو عليه بالتواطؤ قائلا:

- هذه مسألة الغد المشهود!

وخنس المسألة بسن القلم يقول:

- سوف تُسأل في هذه أمام زملائك غدا!

ويخدعه:

- سوف أرد لك الاعتبار أمامهم!

يقصد سوف أجلبهم جلب العبيد إلى ساحة الدرس؛ حين يرون بلادتك المتندرين بها وأنا أصيرها شطارة يتندرون بها، ويستمر لاهثا:

- سوف أمحو من أذهانهم كل أثار المرات التى أخرجتك فيها إلى السبورة!

ثم ناداه نداء جدته:

- هيا أيها الطائر قراقوش! سلسل لمدرسك الخطوات ونتائجها!

فيستظهرها له استظهار الثعابين الصماء لما يبثه مزمار الهندي..

وجاء الغد المشهود؛ فأخرجه إلى السبورة، وبنفس الطباشير البنفسجى خط "مسألة التواطؤ" والتزم ميمنتها مائل الرقبة والجذع بحيث يلتقيان على خط مستقيم مائل قليل إلى السبورة، وهوش كبرياؤه في ثقة هي بعينها الغفلة المستعاذ منها. طال سهوم محروس.. فشجعه بدبة من حذائه، وتزويم يخرج من أنفه. لو سأله فيم أنت ساهم؟ ربما داهنه، وحل له المسألة، ولكن حذاءه استمر يلهث ويدب، وأنفه يزوم، ويهمهم؛ حتى تمهله محروس بنظرة الخبيثِ المخادع، وتطاول رأسه إلى منقلب السبورة، فإذا به مرعى خيال قد انبعث طائره من لواقح السديم إلى زيتونة الميلاد وأشجارها المباركة ممتدة على نَهر يجرى

بمهد المسيح إلى حيث يلتقى بقافلة المهاجرين..

خمد الدبيب وانقطع الزوم المُهمهم، وسمع همسا يلهث، ويشجعه من طرف خفي:

- هيا أيها الطائر قراقوش! أين خطوات الأمس ونتائجها؟ أين استظهارها العبقري؟

أمسك بقطعة الطباشير، ومد ذراعه إلى منقلب السبورة؛ فراوغه "ذكر البط" كما رسمه في ورقة الإجابة ماطًّا رقبته متناجيا بحل خطوة الدرجة الواحدة، وما أن تقاطر من منقاره الطباشير البنفسجي؛ انجلى هباؤه عن محروس وهو يخط خطوة المناجاة برقه كرقة العبيد، كاد يذعن لها، ويكمل حل المسألة، فأخذه إثم العزة بذل المدرس حتى شيب سهومه المستميت، وبار بهمسه الخفي.

برمق الهمس الأخير صرفه عن السبورة وهو يغتابه من خلفه رافعا إصبع السبابة لزملائه؛ ففعلوا مثله واغتابوه من أمامه رافعين سباباتهم كالمسلات، ثم تمالكوا على كلمة الاعتبار، أو كلمة الحي الذي لا يموت:

"وحدوه"

فصدرت من حناجرهم ساخرة متراسلة في بث جنائزي؛ يستهدف مقبرة فرعون مات من آلاف السنين على التوحيد..، كان طلوعه على السبورة معجزة للفصل ورب الفصل؛ أليس هو نعش الميت الذى تجدد شعائر جنازته إلى أجل غير مسمى، أو أجل من دورة خياله الأبدية؟

سأله مفتش الحساب:

- ما اسمك؟

قال باطنه: أنا أخناتون!

وقال ظاهره والمدرس غافل عن صلبان العبيد الحارسة لسيد الصخرة:

- أنا بلال بن بلال!

استبدت به الذاكرة وقد أورف السحر ظلالها؛ فهان عليه فشله المتجدد في معالجة مسائل الحساب، وفروضها العقلية الصارمة، ما لم يوحدها الخيال طفرة بالعقل الكلي، أو عاطفة الكون التي تجعل من الواحد شعور الكل، وإرادته، و مصيره. ولعلها كانت سُويعة للخلاص نازل فيها نفسه المُخدرة بلذة الفشل المُتهاوي على دَرَك من لذة الفشل وقعره؛ كأنها لذة النجاح، ولكن للذات عناد وضلال وطفرة من الصحو؛ أعز ما في صحوها استبداده المثالي بنفسه. وقد كتب في إحدى كراسات شذور الخيال بعد أعوام طوال من رياضة النفس، ورياضة الخيال يقول:

"معظم الأخلاق استبداد مثالي بالنفس ونواقصها، وكذا معظم السخرية العطوفة استبداد مثالي بغرور الإنسان وخطاياه! ".

أدخل عم نحمده الفنان المصور إلى الممر المبطن بالفسيفساء أسفل بيته، ومنه إلى الفسقية. جلسا على رخامها، وكإنسان تاجر الجمال فيه يتضاءل للحانوتى؛ أَلِف الفنان عشرة عم نحمده، ويصفه:

"إنه يرغد في كل شيء إلا قصره. يبدو كالوقف إن لم يتوارثه أهل الذكر والمعدمون خرب!"

ويلتحد بنفسه قال لي:

- لو كان أبو الهول صامتا ما بقى إلى الآن!

قلت:

- لو كنت أنت حانوتيا ينتفع بالموت ما بقى الموت إلى الآن!

هكذا بدا لأهل الذكر والمعدمين - وقفا موروثا - أو كما بدا لنفسه:

"أنا موقوف على الأموات!"

ويقهقه ويقول:

"خادم الأموات سيدهم حيث لا سيد إلا القهار!".

كان يُخيرهم وهم أحياء في أقمشة الكفن والعطور، ويراجعهم في مقاسات النعوش، وأغلبهم من قاطني ممر بوابة المتولي وأنحاء الأضرحة والمقامات وحلقات الذكر وأبراج السور..

قال له "عبادي" قاطن مسجد الملك الصالح في انتظار عودة الملك:

- كنت في الميتة الأولى (يقصد النوم) أمشى بقبقاب قعقعنى ضجيجه كأنما يشدني إلى الوراء؛ فالتفت إلى طقطقته، وقعقعة حربه لأجد القبقاب خلفي قضباني قطار. أرجعتُ رأسي إلى الطريق فكان كله مفروشا بزجاج شفاف يُنكرُ لي الماء وعيون الأسماك. كانت كلها تخيفنى بنظراتها، وهجمت على صفاء الزجاج سمكة تسألني:

- إلى أين يا عبادي؟

فقلت لها:

- القبقاب كبير عليَّ ونحمده سيقصره لي!

فأشارت إلى ملكة سبأ باب دكانك وهي تكشف عن ساقيها، وتقول:

- نحمده ينتظرك في حمام الدرب الأحمر!

قال عم نحمده:

- لم أنتظر عبادي داخل الحمام كما سمع من ملكة سبأ، وإنما هو الذى انتظرني وروحه تفيض بين يدي "المالطي" الكياس، وأوصاه:

- والنبى، والنبى يا مالطي، قل لنحمده يقصر النعش بقدر عبادي، ويعطره بالعطور التى اخترتها لأن ملكة سبأ ستشاهدني من صرح القوارير!

وخال الفنان عم نحمده صانعا لقدره، كما صنعه أباؤه، وسماه حانوتي الموت وليس الأموات. فهو سليل تجار جمال لم يسكنوا البيوت والحجرات، وإنما أووا إلى خيام خارج سور القاهرة، وبذلك توسطوا الثبات والغير، و صيرورة الصحراء ودول الحكام، حيث يلوح لهم الموت في ظعن دائم ورحال، وطالما قُذفت عليهم جثامينه من السور، أو خرجت عليهم من البوابة و هي على الكارو منضودة عطنة متهرئة، وقد تأتيهم ريحها من غيل الصحراء وكهوف المقطم، أو تدلهم الجمال على سوءات أصحابها بالعراء، والوحيد الذى تحدث إلى الجثامين وهي حياة ترزق عم نحمده. قال مُجملا عمل الموت للفنان:

- الموت اختار الفانين ليواروا جثمانه غير الفاني!

كان يشعر من نفسه الهوان تلقاء من مات، وكثيرا ما أحرجه أهالي المتوفين فيقول لهم:

"أنا وقفهم في الآخرة وهم و قفى في الدنيا!".

أعلن له الفنان عن أمنيته وهو يجالسه في ممر الفسيفساء:

- لو قدر لى أن أُسمع ميتا في قبره "قفشاتك"!

فما عتم أن قال:

- سيقدر أنك خدمته في مِيتة، وينهض مخليا لك مكانه لتضحك على راحتك!

وتركه يأخذ راحته في الضحك، ثم سأله:

- وأنت ما تظنه فاعلا؟

قال الفنان:

- من مات ظمآن لا ينسى العطش!

- وهل ينفعه الماء؟

- من الحكمة أن يقوم الإنسان من ظمأ إلى ظمأ!

فقال عم نحمده:

- أليس من الحكمة أن يقوم الإنسان من ارتواء إلى ارتواء؟

قال:

- وليكن ظمأ الارتواء يا عم نحمده، فربما احتاج الكمال لمن يعرفه؟

ورسم وجه عم نحمده في إطار من خرز مسبحة، وقد لاحظ هو نفسه أن الملامح غير مستقرة سيما الشفاه والأنف، وعلى حد تعبيره: "كان تناقض الوضوح في ملامحه أطوع للألوان من بساطة الغموض"، وقد استغرب عم نحمده ذقنه المدبب في اللوحة فقال:

- الحمد لله، سأكون أول من يحفر قبره بذقنه وليس بيده!

وقالت زوجته البدوية مستغربة النظرة النهمة في عينيه:

- مالك جعلته يحلق فينا كأعمى يخيفنا في غير شيء!

ولكى يبرهن له على فراسة زوجته ثبت اللوحة بصدر الدكان؛

ليسمعه مثار التعليقات، أو ينقلها إليه حيث يقضى الساعات في نافـــذة بوابة المتولي الشاسعة، ومنها:

- هذه المسبحة لك أم عليك يا نحمده؟

فيقول مستعرضا قصره:

- أنا لى فيها النصف!

- أهى للعرض أم للقبر؟

فيقول:

- هي لمن تعرض لها قبراً!

- أشك إن هذا وجهك يا نحمده!

- هذا ظلي في لون غيري!

يقصد ألوان الفنان. وُيسأل:

- ما هذه يا نحمده؟

فيعلنها حربا على الأنس:

- هذه مسبحة الصالحين من الجان!

وكان عم نحمده يعجب أيما عجب من سرعته في إتمام اللوحـــات، بل و من خِفة الخلاص منها، وإهمالها في حوض النافورة. فسر له الفنان ذلك قائلا:

- أنا كالغروب أمتص عصارة النهار في أقصر وقت. قدر الغروب أن يُحرم من هنيهة الفرار إلى النفس، كما أوعزت أم وجيـــدة لأبـــن الإنسان!

ويتم لوحة في نافذة البوابة ويسرع إلى الدكان يسأله:

- ما رأيك في ألوانها؟

فينثني عليها بأذنيه ويقول:

- في ألوانك خفوت كأنك واقف في آخر الدنيا مناديا!

ويقهقه، ويقول:

- بل واقف كالغروب في آخر السماء!

ويغيب عم نحمده ساعة، ثم رجع بغداء لهما من البيت، ليجد في يده لوحة صارخة الألوان. رفعها بينهما وسأله سؤال من يفاجئه بإتمامها:

- ما رأيك؟

فسد أذنيه وهو يقول:

- اللون الفاقع كالصوت الزاعق "دوشة "!

ويصارحه بقول زوجته:

- إنها تقول: رسم الجدع ده فيه نعاس ينعس القائمين من النوم!

وقد حياها في الحارة كَهْلَة سافرة الوجه دون أن يعلم أنها بدوية؛ فرسمها صبية ميساء مبرقعة تضرب في صحراء، وهى على التفاتة أبية إلى جمل يضرب بعيدا عنها وفى عينيه ما في عينيها من مثابرة وإباء؛ فانتهزت الأمسية ونزلت إلى ممر الفسيفساء حاملة طبق بسبوسة بيد ولوحتها بالأخرى. قام إليها الفنان، وتناول الطبق متبسما كأنما يشكرها، أو يستطلع رأيها في اللوحة فأشهرتها قائلة:

- الجمل هو الذى يفارقني أم أنا المفارقة لهو؟

قال الفنان:

- لا فراق بينكما، وإنما لقاء دائم دوام الصحراء.

فأشارت باللوحة إلى زوجها قائلة:

- إنه يهددنى بالفراق ويزعم أنك مثل أم وجيدة ترمى "بودع الألوان" وتشوف الغيب!

هنئوا بالضحك حتى قالت البدوية:

- الجمل ده، أنا لا أريده في اللوحة دى يا ابني!

ثم ولتهما ظهرها قائلة:

- اللوحة عندى فوق، لما ترمى ودعك اطلع وخدها!

وجالسه وهو يُصلح نعشا في منذرة البيت، وإذا به يتوقف عن دق المسمار مصغيا إلى حيلة وهو يبرطم مانعا الأرمد من دخول المنـــذرة، وقد لج عنادهما ففضه عم نحمده قائلا:

- دعه يا حيلة!

تقدم على الأرمد وهو يؤنبه على طرد "الجنيدى" لهما من القهـــوة بسببه.. لاحظ عم نحمده كوب الشاي في يده فداعبه:

- وأين شاي الأرمد؟

أشاح مغاضبا ولكنه قه والأرمد يستقر إلى النعش يتشممه، ويسف ريحه بمنخريه، فيلتقط نحمده باعث القه، ويدغـــدغ جيـــشان حيلـــة مستحلفا إياه أن يحكى لضيفيهما ما حدث بـــالأمس؟ غمـــس حيلـــة نظرته في كوب الشاى غير قادر على النظر إلى الأرمد الغامس وجهه في النعش، وكضحوك يستهويه صمت العواصف صمت نحمده؛ حـــتى تكهن الفنان وقال مغالبا الضحك:

- إما أن يكون حيلة نام في النعش أمس أو الأرمد هو الذي نـــام فيه؟

فقال عم نحمده بإيحاء يشجعه على اختيار نحمده:

- لا هذا ولا هذا!

قال:

- لا تقل هذا، وقل لى ما حدث بالأمس؟

بالأمس أدرج هو وحيلة على الكارو النعش بجثة الـــشيخ ســـباق محدث الجان، ومخرجه من الأجسام، ثم لبثا ينتظران في المنذرة لعل أحدا من أقاربه يجئ ، ثم أسفر الانتظار عن قدوم ثلاثة رجال كان الـــشيخ

سباق يجزم أن ثلاثتهم توائم لجان إنجليزي. وإذ سأله سائل:

- كيف يا سباق والثلاثة بينهم حين من الدهر؟!

فيقول متعجبا ومتلاعبا بالألفاظ والنسل:

- دهر! اى دهر؟ هذا ظهرك أنت يا هذا وللجان ظهورهم!

يشير إلى الآية الكريمة:

"وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم..".

ويتلقاه عم نحمده حيث تقفه متلاعبا مثله قائلا:

- لا دهري هو ظهرك، ولا ظهري هو دهرك، ولا دهري وظهرك جان لسباق!

أسند الثلاثة ظهورهم إلى بيت سباق بحيث يواجهون الأرمد! ولا يُدرى بما نفثوا فيه حتى نهق بما يُشبه عزيف جان؟ وقاموا إليه يفعلون مثل ما يفعل سباق حين يخرج الجن من الأنس. حدثوا أذنيه، وتفلوا في منخريه، وعصبوا عينيه، ومن اليمين والشمال صفعوا صدغيه وفخذيه؛ فيما ثنى الأرمد عريش الكارو وطاح بها إلى الخلف مرتطما بالبيوت والأبواب، ثم طرح النعش؛ فتفصت منه جثة الشيخ سباق فخروا إليها وهى تمسهم بمسها إلى أن صبت عليهم البدوية من الشباك جام الغضب وجام الماء.. وتخاطب حيلة:

- هاهم يا حيلة إلى الماء نطفئ نارهم. اجلد ظهورهم يا حيلة. اطردهم من الحارة طرد الجان!

و تحذر زوجها:

- لا تقف في وجهه يا نحمده أطلقه عليهم!

وهكذا طردوا طرد الجان..

خلص حيلة حماره من العريش المنثنى والمنحشر بين دفتى الحارة، ثم أدخل سباق النعش وشال برأسه الضخم إليها؛ فضحكت وأضحكته

ضحكات انسربت من منخريه وديعة ناعمة كأنها نهايات ناهقات نزق بها حمار لعوب يتصدى لأتان، كما وصفها عم نحمده للفنان، ثم قال:

– لو شاهد سباق ما حدث في الحارة ربما جزم أن الثلاثة تـوائم لحمار جانه عفريت مصري معتق وليس إنجليزيا!

غادر الفنان المنذرة وهو ملتحد بنفسه:

– قدر عليك أن يُبخرك ضحك الفن لا مُلماتـه، الألـوان ودع يكشف به الفنان أسرار المهنة، ولكن لا يستطيع أحد أن يرمى رميـه، أين النقاد من نقد نحمده؟ لم يقل لى أنت ذئبي، أو باطني، أو مستقبلي، أو فوق واقعي، أو عبثي، أو إذمي.؟

قلت له:

– البعض يريدني أن أُتأتيء بالألوان كما يُتأتيء الطفل بالكلمات!

فقال:

– وهل يكون النقد تأتأة أيضا؟ أم يغالط الناقد نفـسه ويغـالط التأتأة!؟

وقهقه ليقول:

– نقد مثل هذا يلزمه "رضعة" قبل الفن لينـام عليهـا نقـادك المتتأتئين!

هذا الرجل نظر في لوحة سريالي كان يجاورني في نافذة البوابة فلم يبخل عليه بالإلهام، وقال له حين مررنا عليه بالدكان:

– ألهمني أنت الفرجة وألهمك أنا الرسم، ولا تصدق أنك مُلـهم وأنت عاجز عن إلهامي!

ثم قهقه وقال:

– اصحبه إلى أم وجيدة لعله يرد ما أخذه!

وسرنا إلى نافذ البوابة وأنا أقول لصاحبي السريالي:

- نعم ليس فنانا من لم يرد ما أخذه!

فسألني:

- من هي أم وجيدة؟

فقلت دون تفكير:

- إلها الرامية "بودع النبأت" نبأت الموت لا الحياة!

في أول لقاء بها سألها عن الموت؟ فقالت:

- الموت ثمرة الذكرى والتذكرة، من فاته الوفاء لهما نضبت ثماره والثمار غير مقطوعة ولا ممنوعة!

تقصد ثمار الجنة. قال لها:

- وفراق الأحبة؟

قالت:

- غصة تكربُ من انقطع وفاؤه!

ثم غادرنا الحجر الصوان وأنا أقول له:

- إلها تفرق من الموت لأنه فصام كلمح البصر عن الرب، أو انقباض روح صاعدة لباريها، فما نبآتها المتواترات إلا مناجاة أرواح صاعدة، وما انتبذها للقرافة إبان الحروب إلا اعتصام بأرواح لا تموت جزافا كما يموت الإنسان!

فقال السريالى كأنه يعرف أم وجيدة:

- لعل المرأة نباتية؟

- أحسنت، فهى لم تأكل اللحوم قط، ولكن امرأة نحمده تشيع عنها ألها "تتوحم" على زواحف القبور إبان الحروب!

- المسكينة! بما تغنيها زواحف القبور؟ والموت نفسه لم يقتل كما قتلت حربان عالميتان بينهما سنوات هي عمر جيل!

وليلتها لم ينم السريالى حتى أصبح الاثنان بدكان عم نحمده. جلس

وراء المكتب يقول له:

- جئتك بشيء من ديونك!

وأسلمه لوحة لمعبد تقف بين أعمدته امرأة يتسامى عودها في عباءة سوداء، وتصعد رقبتها متطلعة لما يجلوه وهج ينفذ إلى بحبوحة وادي مُلقى بها معاول الصخور، ولم يدم إمعان عم نحمده في اللوحة حتى قال:

- هذه ديونى أنا أم ديون أم وجيدة؟

فقال الفنان على الفور:

- أنت لك فيها النصف!

استطاب الرجل نكتته التى لا يمل ترديدها سخراً من قصره.

الشيخ حنفي مؤسس كُتاب مسجد أبو حريبة كتب قصيدة تصور وصل حبيبته المقطوع بسفينة نوح عليه السلام؛ فهتف به احد المشايخ وهم جلوس بحوش "الشاهد" يستمعون إلى القصيدة:

- وأنت وأم وجيدة يمامتان المحبة!

يشير إلى يمامتي السفينة. أى إنهما بر العشق ومأمنه للعاشقين أمثالهم.

وقد سُأل معلم الكتاب:

- ألم تحب أم وجيدة الشيخ حنفي؟

فقال:

- حب أم وجيدة شفاء يُشبه مرض الإنسان. المرض يصيب غيرها فتبكى من بلائه، وإن أصابها فهو صلاة ووصل وتجلٍ يشفق منه جبل موسى. تعاود المريض وتبكى جواره، ثم تشد أزره قائلة: "الجسد أأتمر بأمر القيوم وحمل كلماته. والله لو أن الجسد أبى حمل أمانة الكلمة؛ ما مرض أبداً. ولكنه اللطف والصلاة الموصولة. أنت تذهب إليه خمسة؛ وإذا مرضت يهرول إليك حتى تظن أنك شفيت!".

وكان الشيخ لا يمل عن مراودها بالزواج، ويعيد على قلبها مجازات القصيدة وهما متجاورن بالحجر الصوان، وأرائك حوش الشاهد، أو بستانه حين تنتبذه بالقرافة، ويستشهد بأزواج السفينة الحائرة المتسائلة عن زوجين بالسفينة يكتمل بهما الأزواج، وسوف يكون زواجهما ابتهالا بالنجاة على جبل الجودي!

قالت إحدى اليمامتين:

- أمل حبهما مثل ابتهال النجاة!

فقالت الأخرى:

- إن لم يتزوجا في السفينة؛ فلا أمل في زواجهما!

وكانت "اليمامة" لا تمل التلميح له بأن حبهما ابتلاء واصب، لا تنطفئ جذوته، ولن يسكن ريح أمله، ولا ريح سفينته ما دامت عيون الأرض تتفجر.

وأحيانا يصدق الشيخ قلبه في أن موافقتها على الزواج، لا بد أن تكون إشارة ورمزاً؟ لذلك ما أن أوعزت إليه بفكرة تأسيس الكُتاب؛ حسب الفكرة ابتهالا من أزواج السفينة بالزواج، فأوفى بعهده، ثم سعى إليها يزف النبأ، ويدعوها أن تزيح الستار عن لوح الكُتاب؛ فبادرته قائلة:

- آن لك أن تتزوج يا حنفي!

فسألها غير يائس:

- وأنت؟!

قالت مسوفة في غير وحشة:

- لما يجيء المحمل بالشاهد؟

فسكت الشيخ حنفى حينا عن دعوة الزواج، و لكنه لم يسكت عن دعوتها إلى إلقاء الدروس في المساجد..

فكانت تجيبه:

- إن فرغت من نفسى أفرغ لغيري.

فيذكر لها الشيخة فلانة، وفلانة، وفلانة..

ويُؤملها:

- لهن ألسن ولهن أنفس، وما ألسنتهن بقدر نفوسهن مثلك.

فتناديه معاتبة:

- يا حنفي، إني أخجل من وعظ النساء!

فيصبر الصبر الجميل وينقل لها اجتهاد معلم الكتاب، أو تلميذ العقاد كما تناديه:

"هي تستحي من الوعظ لإبحارها في لجة ضعفها. القوى الضعيف لا يفتئت[1] ولكنه يعظ غيره، والضعيف القوى مثل أم وجيدة لا يفتئت ولا يعظ،، والضعيف فقط مثل القوى فقط، وعظهما محض رياء وافتأهما محض بغي!".

ويوم خطبت "جنات" أختيها لم يكذب الشيخ قلبه. أستأذها في الخطبة؛ فاعتذرت له برؤية قد رأت في فلقها جمل "الشاهد" وهو يبرك في بستان القرافة، ولكن الشاهد لم يظهر لها. حدثها، ثم أرتفع المحمل للهجرة وماد قلبها بميده، وأحست بخفقه يتوقف؛ إذ الهودج تتساقط منه لؤلؤات ثلاث نبت زُهيرات ثلاث ما أن اهتز بها تراب البستان.

وهن اللؤلؤات اللاتي تراءين لجنات، وتساقطن من محمل الشاهد إلى نفس التراب ولكن نبتن دوداً!

كرُب قلب الشيخ من غير وجهها الصبوح وهي تستأذنه في انتباذ بستان "الشاهد" بالقرافة. صاحبها إلى حيث شأت وهو يحدث نفسه:

"حجاب جنات دود، وحجاب أم وجيدة زُهيرات. إنها كالقدر تفسيرها لمم. نثق فيها ثقتنا في خواتمه، ولا نصبر على تباشيره وتباشيرها. ولوعة الفراق عندها تحجب عنا حقيقة الموت، فهو نبت الذكرى ووصل الإخلاص؛ لذلك يطول مكثها في بستان الشاهد، وتنتبذه في غير الأعياد والمواسم، أو حين تأتمنها الأرواح على سر الموت وقد كُشف عنها حجاب الحياة!".

ويسأله الشيوخ الذين أحبها:

- ألم تتزوج أم وجيدة؟!

فيقول معزيا قلبه في الزواج بحبها:

---

[1] يفتئت: أي يسطو ويستبد.

- الزواج يحجبها عن المنية ومنابت الذكرى!

لم يسألها عن الزُهيرات الثلاث ولا الدود الثلاث، ولكنه عرف بعد زواج "جنات" أهن بناها. مفازة ونهلة وساجدة، وقد توفيت مفازة ونهلة مع جنينيهما وبينهما عام من "طلق المنية"، أما ساجدة فقد تزوجها شاب من مدافن الشوام، وهاجر بها.

كانت أم وجيدة وجنات سليلتي صوفي عاصر الحملة الفرنسية، وكان مريدوه يُسمون أنفسهم بالغائبين، ويسمونه "بالشاهد"، إذ كان ديدنه التوسل بالشطر الأعظم، والمقام عنده مقام الهجرة، أما نية العودة؛ فركود يفسد صفاء الماء الجاري، ولا يزال مريدوه ينحلون لقبه لذريته خلفا من بعد خلف، ويرتادون حوش البيت المفتوح قبوه علي شعب القرافة الذي أحدثته السيول. ولما تسامعت الصحراء بنبأ الحملة الفرنسية؛ عاد الشاهد، وقد فزع إليه المجاورون بالأزهر، ولكنه تركهم في الحوش وفزع هو إلى خيول الحملة المربوطة في محراب الجامع العريق، ثم شرب بولها، وخرج إلى مقام الخروج من البوابة المحروقة، ولم يعد ليشاهد الفرنسيين وهم يردمون البوابة؛ إذ أنها كانت مربض الثوار وما حولها لجنود الحملة..

فيمَ شرب الشاهد بول الخيل وخرج؟

وفيمَ تنتبذ حفيدته بستانه بالقرافة إبان الفتن، و الحروب؟

أهو اعتصام بأرواح لا تموت جزافا كما يموت الإنسان، على وصف الفنان الشاب؟ أم هي الضرورة التاريخية التي أباحت المحظور فاخذ الشاهد برخصته وأعتصم بصفاء الماء الجاري؟

لم يستغرب الفنان ألا يجد صورة لحفيد من أحفاد الشاهد، ولا حتى والد أم وجيدة وجنات الذي توفي هو وأمهما في وباء الكوليرا. وقد كفلهما جدهما الشاهد الأخير المقتدي بالشاهد الأول في الخروج والمقام ونبذ العودة. في خروجه الأخير أوصى بالطفلتين الست "كوثر" ‘عمتهما غير الشقيقة التي قال عنها عم نحمده:

"هي امتداد وراثي لأم وجيدة. الست كوثر من دراويش القرافة، كما كان جداهما من دراويش الصحراء!".

وتقول عنها أم وجيدة:

الست كوثر أرتني القرافة أعراف[1] أرواح وبرزخ لقاء، كانت القرافة أعراف طفولتي، وبرزخ مشيبي!

شببت للعب وهى تفتح قبر الشاهد؛ لترميمه وصيانته بعدما رشح سقفه ونفذت منه جذور تتشبث بجدار حجرة من حجراته حتى انغرست في تربتها تلتف مُؤْتَشِبة مقوسة "كملاذ روح!"

وتذكر بدوى الغفير وهو منحني على سلم القبر يحذرها من مواصلة القعود خلف الجذور، وقد أخبرها أن الشاهد أحضر نباتها من غار في الصحراء، وبَذره بين الصبار والزهور، وهز بدوى رأسه تحصرا وقال:

- لما سبرت جذور النبات السقف لم تجد جدك!

وتذكر جنات إذ تغافلها وتختبئ في قوس الجذور

أو "ملاذ الروح" فتأتى باب الحجرة، تناديها وهى على توجس يصرفها إلى العمال بالحجرتين الأخرتين. سألتهم عنها؛ فعبثوا بحيرتها وتوجسها مشيرين إلى سحلية مذهبة. قالت ساخرة:

- أو تعرف السحلية أين أم وجيدة؟

فقالوا بتهويل أخافها:

- بل هي أختك التي مسخها جني القبر سحلية!

رغم تضاحكهم لم تطرف عينها عن السحلية، ولا غفل بالها عن الحارس الجني. أخلفتهم مسرعة إلى حوش الست كوثر، ووقفت حيالها مشتتة مضجرة تقول:

- العمال خبئوا أم وجيدة وزعموا أن الجان مسخها سحلية!

---

[1] الأعراف: برزخ تجتمع فيه الأرواح، وفي القرآن الكريم سورة تسمى الأعراف.

فطمأنتها قائلة:

- الجان لا يسكنون القبور. ستجدينها خلف الجذور.

رجعت مسرعة إلى الحجرة ونادت عليها من بابها متهيبة قوس الجذور وكثافتها.. وتجرأت متجاوزة الباب، وكصدى لندائها الملول ضربت أم وجيدة ظهرها؛ فاستدارت مرتاعة مبهورة تزجرها:

- أنت مخيفة كسحالي القبور!

أمسكت يدها متوددة ومرددة:

- هذه جذور جدنا، لا تخافي هذه جذوره!

التفتت جنات إلى الجذور فتقهقرت صارخة، وجذبت ذراع أختها فطرحتها في طريق حية تسعى كأنما الحية تقصد طريحة التراب. استصرخت جنات العمال وهى تجذب كتفها و تجرجرها حتى رفعها عامل مُهيلا التراب بقدمه على عيني الحية؛ فانحرفت لائذة بالجذور، بينما لاذت جنات بالست كوثر، وفيما تأهب آخر بعتلة احتجزه بدوى الغفير وهو يقول من السلم:

- لا شأن لك بالحية!

ومن خلفه تساءل أبو حيلة عم "دئدْش" بلكنته الغليظة:

- أهدم السقف.؟

أجابه بدوى:

- بل هي الحية!

أشاح العامل بالعتلة مستنكراً لا مبالاة بدوى وقال:

- ألم ترى ضخامتها؟ يجب قتلها!

وجدت نفسها تقول:

- لا تقتلوها إنها حية جدي!

أيدها بدوى قائلا:

- قاتلها لن ينجو ولو بعد حين!

كتكت ضحك عم "دئدش" دون أن تكتمل له قهقهة، وتغلب على لكنته؛ ليفشى سر بدوى ويعرف الجميع أنه يزوج الحيات داخل القبور، ثم يبيع صغارها أسفل كوبرى المجاورين، وقهقه بدوى مثله وقال:

- أنا أبيعها لكى لا تأكلها أنت!

فتأفف عامل:

- يا خال! الحية ستأكلنا نحن!

ثم حسمت الست كوثر شقاقهم، قالت من رأس السلم وفى يدها جنات:

- اتركوها لحالها.

فوجدت أم وجيدة نفسها تقول للعامل الممسك بالعتلة:

- اتركها لحالها!

ولم تنقض ساعة حتى سولت لجنات نزول القبر؛ والبحث عن الحية وزوجها وصغارها، وشجعتها عابرة مرات من قوس الجذور، ولكن جنات لم يغب عن بالها ضخامة الحية وسعيها الحثيث نحو أختيها؛ فانصرفت من عتبة الحجرة، ثم رجعت "بدئدش" بحث معهما لحظات استطاب خلالها ملساء التراب؛ فاستلقى على ظهره حيال الجذور، وفى لحظة أخرى خرخر كأن صغار الحية منحشرة في حلقه. توجستا منه خيفة، وما لبثتا أن تضاحكتا وطافتا حول كيانه الهائل بحماسة تطيش بهما تارة، وتارة تقلبهما على أطرافه وبطنه البجراء[1]، بينما هو يخرخر في راحة النوم الأبدية؛ مما جعل العمال يتغامزون بأن الحية في بطنه

---

[1] البجراء: الضخمة.

عاجزة عن الخروج بصغارها ؛ فأجفلت جنات، وانزوت خارج الحجرة ومنها إلى الست كوثر، فيما جلست أم وجيدة إلى الكيان الهائل ولحيته الرمادية المنكوشة. خبطت بطنه بكفها الصغير؛ فسكتت الخرخـــرة[1]، وما إن هول العمال بموته؛ استجابت لمثير الموت ولذها وحشة البكـــاء المدخر، ولوعة المنية المتناغمة بغنة الوفاء، وجعلـــت تـــذكره بحمـــاره وزوجته والست كوثر، وبكل ما بدا لها أنه يحبه، ثم ذكرتـــه بجـــدها والمحمل؛ فارتعد كيانه كله، وجهر بكلمات غير مفهومة.؟ وقد أوحى إليها ارتعاده وقيامه وبكاؤه أن الأموات يحيون بالـــذكرى، ولا عـــزاء للأحياء بدونها، ومن ساعتها وعت أن القرافة:

"أعراف الأموات وبرزخ ذكراهم".

فكُلفت بزيارتها في مسيس[2] ذكراها، ألا وهى الأعياد، وعنَ لهـــا أن تشترى للأموات ملابس العيد، أي الكفن. قالت للـــست كـــوثر قاصدة تذكيرها:

- هل اشتريت لزوجك زى العيد؟

كانت على الكارو تنتظر ركوبها ولأنها ألفت مثل هذه الخـــواطر قالت:

- الملائكة لا يتركون ميتا بغير ملابس العيد!

فسألتها:

- ومن أين يشترى الملائكة الكفن؟

فغمغمت:

- أي كفن؟

---

[1] الخرخرة: صوت النائم والمختنق.

[2] المسيس: شدة الحاجة والاحتياج، ويقال بينهما ماسة أي قرابة قريبة

قالت جنات:

- إنها تريد شراء كفنين لأبوينا كل عيد!

قرت بها عين الست كوثر مغتبطة بخواطرها ووفائها وطلبت من حيلة رفعها إلى ذراعيها، وضمتها قائلة:

- طيب الله ثرى أمك، كانت تعيش بين الأحياء كأنهم أموات، وتعيش بين الأموات كأنهم أحياء. الحي تذكره باللقاء الميت والميت تذكره بالأحياء. فما أصدق عاطفتها ووفاءها، وما أطيبه من قلب عاش في الدنيا بعطفة الآخرة.

سألتها وهي في صدرها:

- من سيشترى الكفنين نحن أم الملائكة؟

أنبتها جنات بنظرتها قائلة:

- قلت لك إن أعياد الأموات ليست كأعيادنا وملابسهم ليست كملابسنا!

قالت تؤنبها بنظرتها أيضا:

- ومتى هي أيام أعيادهم إن لم تكن أيام أعيادنا؟

فمسحت الست كوثر صدر جنات قائلة:

- جدكما هو جدي يا ست جنات، وسبحانه قابض الأرواح، فقد استجاب لدعائه حيث يرفع ذراعيه مبتهلا:

"هجرتي إليك مغنم وعودتي إلى دارى غرمُ ".

سمعوا عم "دئدْش" يقول بلكنته الغليظة:

- لا أحد غيري ساس له جمل المحمل.

وجاش قائلا:

- كنت سأفتك بلصوص الصحراء، ولكنه خلا بهم ثم عادوا يلبون لبيك اللهم لبيك!

وارتعد كيانه كله طامحا برأسه الضخم إلى السماء متمثلا المحمـــل، وجهرت حنجرته بالتلبية.. حتى باعد النشيج بين كلماتها، و لم يـــسمع منه إلا بثا غليظا.؟ مشى بالأرمد قليلا، والتفـــت إلى الـــست كـــوثر يرجوها:

- هلا طلبت لى من سيدة الدلالة كفنا للعيد القادم؟

ولكن عيده امتد إلى ما بعد عيد الست كوثر. في عام عيدها قالت لأم وجيدة:

- واحد من مريدي الشاهد يريد خطبتك.

فقالت:

- زوجه جنات!

فلم تقل شيئا ونظرت إليها بما أسترعى قلب أم وجيدة، وإذا بخاطر يريها الست كوثر وقد انفسح لها طريق وضيُء بين جذور ملاذ الـــروح بقبر الشاهد، وهو نفس الملاذ الذي انفسح لجنات و لم تـــشاهد زواج بناتها الثلاث!

تزينت الحارة لفرح ساجدة..

كاعب[1] ممنوعة من خواطر القلوب. من اشتهاها احترق، ومن عشقها زينها لعريسها كأب لم يطرق بابه خاطب. وهى الباقية من بنات "جنات" أخت المرأة الصبوح:

"في عمر حمامة فقدت الأحبة. بين مفازة ولهلة، طلق مخاض؟"

تقصد التسعة أشهر المنصرمة بين وفاهما، فكلتاهما توفيت مع جنينها في مخاض المنية!

وتذكر "بهية" الداية يوم عقدت العقدة على صرتي الجنينين:

"الداية عقدت العقدة. "عقدة اللقاء" الحياة تفرقنا والمنية تجمعنا.. أطفالي أخذوا أطفالي إلى ذكرى الحياة، وأبقوني وحدي في ذكرى المنية! ".

وتجاوبها ساجدة والجنين الثانى على يديها فائض الروح:

"الحياة في أسرتنا موت بعده موت. نعم يا أماه، نحن لا نصبر على الفراق فما أسرع لقائنا!".

وارت أم وجيدة الجنينين والأمين في جوف البستان بين جنات والست كوثر، وكفن رمزي للشاهد تجدده بتجدد الأعياد؛ ثم تتمايل بغنة السفر:

"سفري دائم بين مائين: ماء الرحم وماء الغسل!".

وما من جنازة شيعتها لجارة، أو صديقة، أو حبيبة ؛ إلا وهى تسبقها إلى اللحد، ثم تسويه لها، وتستقبلها في القبر بغنة اللقاء:

"إننى سبقتك يا فلانة، اكشفوا عن وجهها حجاب الموت؛ ألا تحبون أن ترى قلوبكم؟"

---

[1] الكاعب: الفتاة الناهدة الصغيرة.

تقصد أن يفكوا عن وجهها عقال الكفن.

ولم ينس احد ذلك البكاء وهى تكشف الحجاب عن وجوه أطفالها الأربعة، وتصاحبهم تباعا في عام المخاض من بيتها إلى بستان الشاهد. ثم وهي تنزل إلى كفنه الرمزي وجثمان جنات ورفات الست كوثر تسألهم:

- أين تريدون أطفالي؟

وسوت لحودهم بينهم حتى اكتمل على رملها وجه جنات بدرا. التفتت لجدة محروس قائلة:

- طلع البدر علينا!

وفي كل مرة تبقى معها في القبر وهي تكلمها عن جنازة ينيرها البدر. كانت تتقدمها حاملة كفنا كُشف وجه عن رضيع بسام تومئ أصابعه إلى نعوش مخضرة، تنبت زُهيرات قرت بهن دموعها، وإنها لتسأل الرضيع عن الزُهيرات سألها:

- ألا تعرفينني؟

أجابته ويدها على قلبها:

- أنت هو!

فيقول لها:

- ألا أشبه الموت؟

فترسل غنتها:

- أنت هو؟

وتصرف عينيها عنه إلى الزُهيرات النابتة على نعوشها؛ فيؤبن معها:

- أنت هو، أنت هو..

يسألها الرضيع:

- هل رأيت البدر؟

فتولى وجهها شطر البدر، وفى ضياء معراجه السماوى تبصر الرضيع ينضُ عن جثمانه الكفن؛ ويلقيه فينشر كسحابة تُسدل كاسية حجرة اليمام.

ونهلة في شهرها الثامن وضعت أم وجيدة يدها على بطنها، وقالت لها:

– متى ستلدينني؟!

ولم تطل عليها الحيرة، وعادت تقول:

– رأيتنى في رحمك توأما لابنك!

هتفت نهلة بالشاهد:

– متى تعود يا جداه؟

وسألتها:

– أهو ولد يا أمها؟

قالت مغرورقة:

– بل، بدر يا بنية!

وفى نهار "الطلق" صعدت بهية الداية إلى الدور المتوسط بيت "الشاهد" حيث تزوجت نهلة بعد زواج مفازة بعامين في الدور الأول، وقد تأخر حبلها لاعتلال صحتها مثل أختها وأمه؛ كأنما صلابة الهجرة قد استترفت سلالة الشاهد، وأبقت لأم وجيدة ما تنتبذ به الحياة.

دخلت الداية على أم وجيدة؛ فأخلت لها فراش نهلة، وأوت إلى الكنبة تتوسد مسندها برأسها، بينما زوم نهلة يئن ويتجسد كجدار ارتج منقضا، وإذا بها داخل رحمها تلاطم ماءه ولا تصل إلى الجنين أبدا وهو تؤمها، وفاجأها صداع النبأة بما في ضمير الطلق. رفعت رأسها عن المسند وأنين الزوم دمع باك في وجه بهية الداية. ألقت نظرة عمياء على نهلة، وغادرت الحجرة وصداع الطلق يضرب أذنيها وقلبها وقرة عينها.

صعدت بها جدة محروس إلى حجرة اليمام. تعلق بصرها بسجادة الست كوثر. أتتها تشم ريحها، ولم تجلس حتى ساءلت صاحبتها:

- أمازال البدر في السماء؟

فيخطر لها بدر جنات على رمل اللحدين: لحد مفازة، ولحد جنينها. أجابتها:

- البدر بدر الله، تفاءلي بنوره خيرا.

- مالى وبلاء الخير؟ ذلك معراج الأنبياء!

ويضرب الصداع قلبها بيد أنها تشتكى انتفاخ بطنها، كأنه الوحم العجيب يميع نفسها "وحم الاعتصام بالأرواح". تأتيها بطعامها الأثير. عود النعناع من مصفاة بشباك المرتفعات؛ فتعافه قائلة:

- اليمام اضطرب أمس فوق محمل الشاهد، وتصاعد آخذا بصري حتى رأيت أمي ترضع جنين نهلة. سألتها:

- من أنت؟

قالت:

- أنا هو!

اكتمل بدر نهلة..

وفى ضيه السماوي مشت أم وجيدة حاملة كفن توأمها الذي لم تدركه أبداً في ماء الرحم. كان بينها ونعش نهلة المُخضر ما كان بينها ومخاض مفازة:

"حينا من طلق المنية، أو ندحة من ماء الحياة؛ أحدث دفقتها سقوطها كحجر صلد يغرق، بحيث لا يرى أبدا ما تتابع من ندحة السقوط!."

ويتمايل بها الحنان وغنته مُسائلة أمها وهي ترضع رضيع المنية:

"من رمانا في الخاتمة يا أماه؟ بعيدة قرارة الماء، وقريبة جدا سكينة

التتابع!".

وتنسم عيناها نعش نهلة وستاره الأخضر، ثم نسمت سماء البدر تناجيه:

"لو تسبقها بالذكرى إني كشفت لك الحجاب؟".

وتمر الجنازة على قبر "دوسة" صديقتها المشاكسة التي رملها زوجها؛ فامتهنت عنه بيع الأفيون. وهى امرأة لبقة مطبوعة على الفكاهة، وتؤثرها على كآبة الموت ولاسيما داخل سرادقاته، ومتى حضرت أم وجيدة في سرادق فهى حاضرة تؤنسها، وتشاكسها، وتضحكها كما تضحك الأهل المكلومين.. سمعت أم وجيدة معزية تسألها:

- ماذا ستفعلين يوم القيامة يا دوسة؟

فقالت لامحة أم وجيدة:

- يوم القيامة زحمة ولا أحد سيعرف أحدا!

وترشد المتحرجات بالضحك:

- ولو عرفني ملاك من الملائكة سأوكل "منيرة" في الدفاع عني!

ومنيرة محامية، "المؤبد على يدها براءة".

ثم داعبت "دوسة" أم وجيدة:

- لوالدينا تملى لى كما أملت لك في البقاء يا أم وجيدة!

فنظرت إليها مليا، ثم تبسمت قائلة:

- بل الدنيا يا دوسة، أخذت عمري ونحلتني عمر أطفالي!

التفتت منادية على "دوسة" من مقدمة الجنازة:

- يا دوسة، بما أضحكت الموت برجائك في قيامه، أم بأملك في رقدة الحياة؟

وقد سوت لحد دوسة قبل أيام من ولادة "مفازة"، وبينما هي في

السرادق شاهدة في يقظة الذكرى ونواحها يمامة تقلب بمنقارها ثلاث بيضات تكتنف قرص البدر، وما إن ضمت البيض إلى جناحيها حتى أحالها ضياء البدر بومة بيضاء، تنظر في هالة كالمرآة فبوغت بوجهها، ووثبت متصاعدة تضارب بجناحيها هواءً ثقيلا أنهكها، وتكسر في ثقله الجناحان، فانقلبت برأسها ككفن موكأ بعقاله يهوى، فيما تفتحت البيضات الثلاث عن زهيرات تتكاثر متساقطة في ظلال الضياء السماوي، ثم تتراشق سويقتها في طمي يحف بأم وجيدة. ويسمعها النسوة تسأل عن البدر؟ فيجبنها:

- ها أنت لا تصرفين عينك عنه!

تناجيه:

- يا ليتك بدري!

ثم تنهض مغادرة السرادق مذهولة عن السؤال المتردد:

- إلى أين يا أم وجيدة؟

وتعاتبها ابنة دوسة محاكية غنة نواحها:

- تاركة أمي إلى أين يا أم وجيدة؟

فتبادلها غنة بغنة:

"إلى ذكراها الباقة يا بنيتي!"

نزلت بجنين المنية وهو مكشوف الوجه، حيث سبقته نهلة ووجهها مكشوف عنه حجاب الموت. سوت لحدهما بيدها، وإذا بها ترى برمله جنات تُوضئ الشاهد وهما جالسان على رمال زاهية موصولة الأفق. كانت جنات ترفع يديها تتلقى قطرات البدر، ثم تريقها للشاهد، وما لبث هو أن أراق القطرات لها، ومسح وجهها ومرفقيها وشعرها. قالت له:

- هل سقيتني يا أبتاه؟

فرفع كفيه مبتهلا، ولكن القطرات انفلتت إلى الرمال، وانداحت[1] بها كرحم يسبح في مائه رضيع تبسم لها مُسائلا:

- ألا تعرفينني؟

أمسكت جنات قلبها قائلة:

- أنت هو!

فأومأ بإصبعه إلى البدر!

قال معلم الكتاب:

"الموت لا يفاجأ أم وجيدة بمصيبته؛ فهي كاتمة أسراره، ولا تعرفه كخادم كما نعرف نحن الملوك والطغاة.. كل ما يعرفه الموت تعرفه أم وجيدة. لقد كانت وفاة نهلة ومفازة وطفليهما هتكاً[2] لحجاب الموت!"

وأطال النظر من دكة المطالعات إلى حجرة اليمام، ثم قال:

"هو عمر الحمامة الذي ذكرته، والذي هُتك به حجاب الموت، وهل للموت حجاب إلا فظاظة القلب؟ إنها نفس طيبة ملموسة بالأحزان. أوجدها الموت حتى صفَ وجدها له، وكأن الموت متيم في محرابها! تقول: ما للموت وخراب الجسد؟ الموت يحفظ الجسد لمن حفظ الوفاء؟".

وسمع غنتها وهي تسوى لحد جنين مفازة؛ فقال:

"دنياها رحم للموت، أو طلق للحياة ولكن بغير مخاض!"

ويقول عم نحمده، واصفا نزول هية الداية إلى الحوش من حجرة مفازة:

---

[1] انداحت: اتسعت دوائر ماءها.

[2] هتك: أي فضح السر.

"كصفيحة فارغة تقرقع وتعوى وتتقلب على دَرَك الموت، نزلت علينا الداية ورفعت ذيل ثوبها وبه بقع من دماء مفازة، ثم ولولت:

- التريف أخذ ضنى أم وجيدة!

و تلطم خديها نائحة:

- يا ضنى دنيا خرجوا من الدنيا!

وتنادى على الغائبة:

- تعالى يا أم وجيدة من القرافة لنرجع معا إلى القرافة!

غادرت حوش الشاهد قاصدا بستان الشاهد. فلم يكن من عادتى الصبر على الولولة، وأحسبها مقلقة لراحة الأموات، ومفسدة لأحزان الأحياء، بل إننى قد كربت بالموت، كأننى لم أُوقف نفسى عليه، وكأنه لم يجتبيني. أنا الذى لبست ثوبه وطرزت أثوابه للأحياء.

فهذا ثوب طفل الموت في وجهه يلهو ولا يكاد يستغرقه اللهو حتى تلمحه وسنان في حلم للحياة!

وهذا ثوب شيخ الموت في وجهه نهر يفتت غضون الحياة!

وهذا ثوب فتى الموت في وجهه مُستريح إلى الموت! وأما ثوب مفازة وجنينها فهو "قطرة الرحم" التى ندحت رمال الشاهد في نبأة أم وجيدة؛ فتركت مفازة في مخاض المنية مع زوجها وأسرته. قالت لى وحيلة يوصلها بالكاره إلى بستان القرافة:

- إن جئتني أخبرني أن مفازة سوف توضئني كما وضأت جنات الشاهد!

وكحارس للموت جئتها؛ فطالعتنى غِيَر الفناء في وجهها، فسقط من يدى سهم النبأة، الذى صنعته هي لنفسها منذ ندحت قطرها صحراء الشاهد، وأوسعت حلقات مقامها. أغمضت عينيها عن وجه، وأرسلت غنتها لزهور البستان فأوبن معها، ثم كاشفتنى بأن شابا من مدافن الشوام يطلب يد ساجدة!".

صعق تيار الكهرباء الأرمد الأول؛ فأصَمهُ[1] في صمت كـصمت الضوء وسرعته!

وقد كان حادثا غير مسبوق أن تُشاهد أم وجيدة ذاهبة إلى حمام "بشتك" بدون الأرمد؛ وهو الذى أضحكها بنوادره كما تبكيها الحروب بمبرراتها؟

ومن نوادره معها أن فتيان الميدان انتهزوا غفق حيلة فوق الكارو، فحرر بعضهم الأرمد من العريش، والبعض أجلوا له المرأة الحارسة من دهليز الحمام، فما توانى أن خرج الأرمد من تهاويل[2] البخار وعبيره الناضح بزعفران الأجسام فيما دغدغ رمز الطبيعة المنكمش أعصاب النسوة العاريات؛ فأخذن من غفلة متحللة من عقابيل الحياء، وتخطفن الأغطية، وتعالى صراخ جمهرة منهن يتساءلن:

– أين ذهبت الوليه المفضوحة؟

ولحظة فلحظة تلاشى الصراخ والوعيد واللوم، ثم غفلت كل ذات غطاء عن غطائها، وانزاح ستار الغواية المباغت عن الأرمد وهو حيال أم وجيدة مطأطأ[3] الرأس في حياء فطري؛ مما أغرى أحداهن أن تستفسر قاصدة إضحاك أم وجيدة. قالت لها مُبرقعة بكفها:

– هو الحمار يفهم ما نفهمه الآن يا أم وجيدة؟

فتهانفن[4] كلهن بالضحك كأنما يهزأن بالأرمد، وردت عليها أخرى متقصعة في مجلسها:

---

[1] أصمه: أصابه وقتله.

[2] التهاويل: خيالات الدخان وأوهامه.

[3] مطأطأ: منكسر الرأس.

[4] تهانفن: الإهناف ضحك المستهزئ.

- مالك وما يفهمه الحمار يا قارحة؟

فقالت ثالثة:

- سواء فهم أو لم يفهم، ليس على الحمار حرج!

علت صيحة مغتصبة:

- أخرجن هذا الحمار من هنا!

قالت الثالثة تسمع الصائحة:

- ولم لا تخرج هي؟

فتوعدتها:

- لن يُخرجه أحد إلا أنت.

فداورتها باسمة:

- ولماذا لا يخرج هو من نفسه؟

وسرسع صوت مهددا:

- لا أحد يحشر نفسه في رغبة الحمار.

قالت الأولى:

- دعوا ياسمين تسأله عن رغبته المطاعة.

قامت ياسمين متناولة ملاءة حبكتها على جسدها، وتثنت في دلال ملحوظ حتى مالت عليه توشوشه وتطوقه وتناغيه، ثم قالت مُتشكية:

- إنه "مكسوف" من أم وجيدة.

فلغطت التعليقات، وتفاحشت عابثة بحياء الطبيعة ورمزها، ثم ارتاب العبث في فحولة الحمار، وكدن له بيد ياسمين؛ فحبكت الملاءة عليه غير مظهرة سرا منه ولا حياء، ثم تضاحكت عاقصة رأسه بشالها البمبى وقالت:

- هل يشك حيلة في أنه أنا؟

أجابتها من صرخت بإخراج الأرمد:

- قولى إن عينك من حيلة!

فأظهرت ياسمين مفاتنها لأم وجيدة باستدارة كاملة وهى تقول:

- حسبى من حيلة حياؤه!

فقالت شابة تجلس لصق أم وجيدة:

- ألا تتركن الحمار وحياءه يا ذوات الوجوه المكشوفة!

التفتت إليها ياسمين التفاتة حاسمة واندفعت صوبها مقسمة:

- والله، لن يرفع برقع حيائه إلا أنت يا ذات الأربع!

واستفز هجومها أخريات فتفرقن يحاصرن الشابة ويلاحقنها حيثما فرت وتحامت واستنجدت، وسرعان ما دغدغ صخب الضحك وصراعه أعصابهن ولهثن منقسمات في الدفاع عنها أو تسليمها الأرمد..

ولم ينتصف النهار إلا وعم نحمده يجالس أم وجيدة على الحجر الصوان، ويسترجعان معا ظهيرة الأمس القريب؛ حين أضجر ذباب الشمس الأرمد؛ فسرح إلى تجمع من الإوز توافد لتوه من إحدى الحارات..

بصرت أم وجيدة تمدده للإوز لكى ينظفه ويلتقط الذباب من قوائمه وبطنه وأذنه، وأصغت لخرخرة حيلة المستلقي بباب الحوش لشمس الشتاء، حتى لمع شعاعها بنظرتها المُمعنة فيه، والتفتت تخاطبه بوسواس النبأة:

- أيام ويكتمل وفاؤك يا حيلة!

فقال عم نحمده يهون عليها وعلى نفسه روع النبأة:

- أو يكتمل حيلة حمارا!

ولكن الروع لازمه حتى شاهد الناس يؤازرون حيلة في إدراج الأرمد فوق الكارو، ثم آزره وهو يجر العريش إلى حيث يواريه ببرج الظفر، وقد تقدم الكارو حاملا الكلوب ابن نحمده الذي تبناه منذ عشر

عليه حيله ببرج الظفر، وسماه بنات جنات "واجـــدا" وسمتـــه زوجـــه "الطاهر".

سألها عم نحمده وهو يغادر الحجر الصوان مسطبة بيتها:

– ما بال نسوة الحمام؟

سرى رواق التبسم في وجهها وقالت:

– يظهر إن الأرمد لا يدارى عنك شيئاً يا نحمده؟

فقال:

– ما هو الذى بعثنى بهذا السؤال!

تضاحكت واستراحت هنيهة، ثم قالت:

– النسوة روحن عنى وأضجرن الأرمد، كن كنحلات ينغمسن في شهد الغواية الذى أخرجنه من بطوهن!

بدا لأم وجيدة طيفا مصلوبا لا يكاد يرى على مصلبه؛ فلبثت تعد أيام روحه الأربعين حتى قدم إليها من منفذ الباطنية والظهيرة يعكرهـا ريح مكفر بالصقيع..

كان بيده لوحتين: لوحة رمز فيها للأرمد الأول بعـريش طمـره وسط أناس من عصور مختلفة، والثانية لوحة ليمامة تعبر سـورا بُليـت أبراجه، وقد أخلفت وراءها قرونا تنتظر شروق الشمس من مغربهـا، بينما الشمس في كبد الغروب ترسل شعاعها الغارب إلى نظرة اليمامـة العازمة على تبليغ رسالة تنوء بحملها، ولكن عنفوان جناحيها يعجل بها إلى أوان مقدور؟

كانت جالسة على الحجر الصوان معصوبة الرأس بطرحـة تعقـل طرحتها السوداء، وبفوديها[1] فصي ليمونة يحويان قرصـي أسـبرين. طالعته ونظرتها مثقلة يتجهم فيها الوجد ويرق كاللوعة مغرورقة. حياها فردت التحية بصوت بحه الصيام عن الكلام والطعام، و أغمضت عينيها له كما تغمضهما لحيلة؛ فجلس إلى جوارها يقول:

- لعل الأم بخير؟

- الدنيا يصلح حالها بالشر والخير!

- أجل، ولكن رجاء الخير أروح!

فرددت:

- بلاء الشر أروح يا بني بلاؤه أروح!

- أرى الأم بعافية؟

والغنة تتمايل بها:

- شكوى العافية فَطرُ للشفاء والأوْب؟

---

[1] فوديها: جانبي الرأس.

تقصد أن من شكا المرض قانطا قطع وصل الشافى والرجوع إليه..

وهى القائلة:

"أيوب مسه الشيطان بوساوس الشكوى وليس وهن المرض؛ فقد وجده ربه صابرا أوابا.. "

وتقول للمريض:

"لن تطيق إلا مرضك"

وتترنم بالغنة:

"الإطاقة[1] هي الشفاء وليس الصحة والسقم"

ربما قصدت بشفاء الإطاقة صفاء الروح بعد كل جهد نبذله في الصحة والمرض؟ دعا لها الفنان:

- وقيت وشفيت بأمر القيوم

وهامتها الصاعدة تومئ:

- طبيبه على البابين؟

سرح في معنى البابين ولكنه تذكر الإطاقة والأوْب.

قالت تسمعه كلام السيد المسيح:

- "اقرعوا يفتح لكم.. أيها المداوي داو نفسك!".

ثم وهي تبسم:

- عافيتى لن تسعفنى لتسوية القهوة لك!

وتبسمت تبسما جديدا وقالت:

- أحسبك لن تطيق عُطاس النشوق!

تشير إلى وهن بدنه وانضوائه، وربما إطاقته؟

سره روح التبسم السارية في عافيتها متأملا في وجهها الصبوح

---

[1] الإطاقة: جعل بذل الجهد غاية في ذاته.

خيوط فلق منير، وفى صمتها غير موصولة بصروف الدهر وتقلباته.

التحد بنفسه:

"قدر عليك أن تأنس روحك بروحها وباللمحة نظرهّا الحذرة الراضية ولكن هل الوجه سعيد أم إنه وجه يمامة يجعلنا نحلم بالسعادة؟ لمحة في وجد عينيها تريك الماضي فلقا منيرا والمستقبل فجرا حالكا!"

ثم وهو يلمح صيام نظرها:

"القطار يسير بسرعة الغروب فهل تسمع لقضبانه جلبة؟ قدر عليك أن تصور مصلبك شجرة أغصانها مآذن ومنارات أجراس".

رفع لها اللوحة فبصرت عين اليمامة وشعاعها الغارب نبأة تطوي كبد الشمس. بسمت قائلة:

- يمامة "حنفي" لم تتهيب طوفان الأمواج، ويمامتك مرسلة بنبأة كالطوفان!

وأسمعته كلام السيد المسيح:

- "كما في أيام نوح كذلك في أيام ابن الإنسان".

رفع لها اللوحة الأخرى فأبصرت الكارو وسط أناس ملابسهم من عصور شتى، وبظهره حيلة يرقد على جنبه ورأسه الضخم بين ذراعيه المنثنيتين والضاغطين على أذنيه، كأنه يأبى سماع من حوله، أو يعزل نفسه في سمر الغفق ونومه الخفيف المنطلق بلسانه في سمر الدنيا وسمر الأحلام.

سألها الفنان:

- ونوم حيلة وسط أمواج البشر؟

طاوعها ضحك قلبها وقالت:

- حيلة سوف يكتمل وفائه بالذكرى؛ أما أنت فحيث يكون الوفاء لذكراك تكون رأفة القلوب!

فساجلها حبوراً بكلام المسيح المستشهدة به والمتصرفة فيه كأنها أحد تلاميذه وحواريه:

- "حيث يكون الكتر يكون القلب" وأنت قلب الذكرى الخالدة خلود الوفاء!

ثم أستأذنها منطلقا إلى دكان عم نحمده.. وقد فتش حيلة اللوحة وهو جالس بباب الدكان ولم يعثر للأرمد على أثر فتتعتع بما فهمه:

- لِمَ أخفيت وجه النائم على الكارو؟

تضاحك عم نحمده وراء المكتب ومن أمامه أجابه الفنان:

- أخفيت الوجه لكي يتساءل الناس دائما عن النائم؟

فتبين تعتعته:

- قل لهم أنت إنه حيلة!

وكان عم نحمده أول من اطلع عليها واستوقفته غزارة شعر النائم وجسمه الناتئ ككومة لحم، وقدماه الحافيتان الغليظتان؛ فأذهل الفنان بقوله:

- العريش معلق ومنغرس بين الناس كأنهم يجرون الكارو!

قال حفيا بالملاحظة:

- لما وصوص لي العريش في ظلمة الإلهام؛ راقني ألا أظهره في اللوحة، ولكن الإلهام لا يعبأ بما يروقنا فغرسته بين الناس وأنا لا أدرى لِمَ غرسته؟

برطم حيلة بما معناه: سأعلقها في إسطبل الشاهد.

قال عم نحمده يُحفزه على القيام:

- أم "الطاهر" تعد لنا غداء أحضره راهب البوابة بمناسبة حبك لأسماك الماء والسماء!

يشير إلى تساقط الأسماك مع مطر السماء على حيلة وهو جالس في

نومه الخفيف بالقرافة..

والتفت إلى الفنان المتبسم وقال:

- لقد سألتني البدوية الجدع ده متى ينام!؟ وسرحت فيك جنينا، ثم قالت: أحسبه أتعب أمه فأخرجته من بطنها وهو ابن خمسة أشهر ونصف!

تناهض حيلة باللوحة وكلمة "نصف" تثقله بعبال من القهقهة فوق عبال جسده، ولما تحرك قدم عليه الأرمد من الناحية المقابلة، ثم شيعهما الفنان ملتحدا بنفسه:

"نظرة حيلة المتغاضية نظرة يقظة الفطرة، وكل ثمرة على شجرة الفطرة سواء. المئذنة كالمنارة والإنسان كالأرمد معنى من فيض سعيد من يلمحه لمح المثال..".

سمع عم نحمده يقول:

- حيلة والأرمد مبالاة تشبه اللا مبالاة، وحلم يشبه الصرعة! ينهق هذا، ويضحك هذا فلا تشك أن الضحك والنهيق راسخان في الطبيعة رسوخ الجبال!

قام يقول وفى يده فنجان القهوة اليومي:

- الظلمة توَصْوَص لى يا عم نحمده!

- لعله نصيب الأرمد من الإلهام!

- ربما!

- لا تنس إخفاء وجهه!

قال متضاحكا:

- هو ذاك وسوف أغرسه وسط من يحكمون العالم في ملابس من شتى العصور!

- حسبك هذا القرن وأهواله.

سأله باللهجة الإلهام:

- اختر لى لونا أبدأ بظله يا عم نحمده!

بنفس اللهجة سأله:

- ما لون السياسة؟

فقال منطلقا إلى نافذة بوابة المتولي:

- لونها ولون الماء سواء!

أفهم حيلة أم وجيدة أين سيعلق اللوحة. وودت لو سألته لماذا إسطبل الشاهد؟ أبقاها على الحجر الصوان، وزاف إلى بيت البدوية بيت البدوية وحده دون الأرمد، ثم رجع حاملا صينية الغداء، ولم يفوته أن يترلها من رأسه إلى أنف الصائمة صيام الأرواح المودعة؛ ريثما تاستمرئ رائحة السمك الهنيئة بمشاركة قطط البيوت والحارات، ولكنها استحت متبسمة..

أعاد الصينية إلى مكانها من رأسه لامحا الأرمد الممدد للشمس بجوار الحجر الصوان. تركه، ومشى متثاقلاً يتكودن[1] بالفرحة وبالعُجب كأنه مدفع إفطار آدمي جرح صيام أم وجيدة النباتي. كان مائدة آدمية متحركة واكبها في مراحل الطريق زفات من المواء والتَمُوغ، وأخرى من المِزاح والمشاكسات لم تدعه في حاله حتى ولج الدكان، ودار حول نفسه كأنه فوجئ بعدم وجود الرجلين!

ارتد إلى الباب يتلفت بالصينية، فقدم إليه من ناحية البوابة صبي "بيدق" بائع الثلج، وخاطبه مستنكرا وقوفه:

- أنت هنا والرسام مات!

قعَ حيلة في مكانه مغمضا بصره على حلم حلمه والبدوية تقلى السمك. فقد رأى أم وجيدة تعتمد ركبتيها بحوش الشاهد بينما الفنان يناولها الخرشوف؛ فتقطف أوراقه راسمة به مصلبا على التراب..أكملته وقالت له:

- الشاهد ينتظرك!

فتبسم لها واستلقى فوق المصلب مُلتحدا بنفسه، ومُسمعا حيلة في غفق النوم حيث يسند ظهره باب الحوش:

---

[1] يتكودن: يتثاقل بلحمه متمايلا.

"أنت قدرها".

تناهض حيلة بالصينية ومشى قاصدا مرسم النافذة بخطى وئيدة كأنه يتقهقر إلى أم وجيدة، وقد انقسم باله. قسم فيه وابل السماء يرمه بالأسماك إذ يرقد في بستان القرافة، وقسم فيه الأرمد الأول والسيد المسيح يُحيه من صاعق الكهرباء..

صعد سلم النافذة والتفت إلى الجثمان المنضوي كطيف لا يراه، وسمع نداء عشم النجار يأتيه من خارج البوابة:

يا حيلة، راهب البوابة لن يحمله نعش. هو مصلب الخرشوف الذي رسمت خضرته أم وجيدة. ضع مائدة سمك السماء لعابري السبيل، واحضر مصلب الخرشوف على ظهر الأرمد، ولا تحضره على ظهر الكارو؛ ولكن احذر باطن الأرض يا حيلة!

وجاءه من صحن جامع المؤيد ترتيل صديقه "نبوي" مقرئ القبور: "وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً".

كان "نخلة" الصائغ يقول لنحمده:

- إن شئت أخذناه إلى دكاني حتى نعرف أهله؟

فقال:

- الدكان غير مناسب!

وتجنب النظر لعين حيلة وهو يقول له:

- ضع هذه الصينية جانبا واحمل المرحوم إلى مسجد طلائع.

ثم مشى وراء حيلة ومعه الألوان و اللوحة التي سأله من ساعة ظل إلهامها. فكانت ظلالا لسراب يعتم وصيد البوابة كرتاجين يوشكان أن يلتقيا، ولا يُدرى أهما يُغلقان أم يُصرعان؟ ويلوح في منفذ السراب حافرا حمار تتوسطهما خوذة جندي قائم بها أزميل يُصور ذلك النعش الذي رآه في بيت عم نحمده.

لم يصدق حيلة أنه يحمل شيئا. سجاه خلف أعمدة البائكة وغنة أم وجيدة يتجاوب بها صحن المسجد المكشوف:

"الرسام طيف إذا صُلب لا يكاد يرى!"

وفعل ما تفعله مع الأحبة كارها أن يُغطى وجهه بملاءة أرسلوها إليه، أو يعتقل طيفه في عُقال الكفن. واضطرب بكيانه نواح غنتها:

"اكشف عن وجه حجاب المنية ألا تحب أن يرى قلبك يا حيلة؟!"

ثنى حيلة الملاءة ووسدها رأسه مُصدقا أنه نائم. كشف هواء الصحن قميصه الأبيض عن صدر ضيق تبرز ضلوعه كأن قلبه يُرى من خلالها؛ فأحنى أذنه علي القلب الحي ونبضاته المتتابعة تغفو به في سمر يصدر من ممر البوابة. عبره؛ فألفى أباه آدم يُظهر لناظريه لوحة ويسأله:

- هل تعرف من هذه يا حيلة؟

قال:

- هي ساجدة.

فقال أبوه آدم:

- إني مزوجك إياها!

تيقظت نظرة حيلة وعقد لسانه.

قال أبوه:

- ألا تصدق؟

- أم وجيدة لن تصدق.

- إني أرسلت إليها المحمل.

- ومتى ستحضر؟

- متى أحضرت أنت شاهديك!

فقال حيلة:

- نحمده يُصلى المغرب وراهب البوابة نائم في مسجد الملك!

وتزعجه جلبة هتف به.. يسأله أبوه:

- مالك يا حيلة؟

- ألا تسمع يا أبي؟

- الناس فرحون بعرسك.

- بل، هم يهتفون بأنني سأمسخ حمارا إن شهد نحمده على زواجي!

يطمئنه:

- إنهم يحبونك.

- بل، يحبون الأرمد أكثر!

- وأنت ألا تحبه؟

- أحبه وأحب ساجدة أكثر!

- وساجدة ألا تحب الأرمد؟

- لقد أطعمته غزل البنات في القرافة، ولكن الناس لا يصدقون!

- إنهم فرحون يا حيلة!

- أنا أخشى هُتافهم!

- أنت تخشى الفرحة!

- وإن مُسخت حمارا؟

- أنت حيلة ولست الحمار.

ثم يواته مواء القطط من الساحة والبيوت ونافذة المرسم، ويستجوبه خلف المخبر:

- أين ذهب أبوك آدم؟

فيجيبه:

- إلى مسجد الملك.

يفتح عينيه على خلف يقول لنحمده:

– نحن نتحرى عن أهله، وربما نقلناه إلى كنيسة حارة الروم.

وأربك حيلة قائلا:

– أنت شاهد على وفاته. جهز نفسك للذهاب إلى القسم!

فاسترجع وجه أبيه آدم وقال له:

– أنا الشاهد وليس راهب البوابة!

أخذ عم نحمده بذراع خلف ليغادرا المسجد. فيما سمع حيلة هتاف "عشم" النجار:

"احذر باطن الأرض يا حيلة!"

وتراء له بظهر الأرمد مصلب الخرشوف ترويه السماء بشُؤبوب المطر، ثم برقت الأرض بالكهرباء من أسفل حوافر الأرمد؛ فأصمه صعق برقها في صمت كصمت الضوء وسرعته؛ حتى إن الأرمد جاذبه إلجام فخلاه حيلة وسبقه خطوة وهو يظن أن الأرمد يشم ماء أتان، و لم يلتفت إليه وهو مُصعوق جاث على ركبتيه!

كان "الطاهر" كالمقيم في حجرة اليمام..

يصعد إليها من السطح الملاصق، ولا يغادرها إلا والبدوية تنادى عليه من السطح ضجرة من انتباذه[1] الحجرة الناشزة نشوز أم وجيدة.

وقد ترسل له خادمتها "عطيات" الزق التى تنشر ريحها وسقط لسانها غير قاصدة الوشاية بها؛ وإن قصدت إضحاك أم وجيدة والتسرية عنها لذلك لم تجد هذه حرجا في السماع منها وسألها:

- بما ذكرتنا اليوم البدوية؟

فتقول كالمعتذرة:

- إنها تحبك يا سيتي ولكنها تغار منك!

يتورد محياها قائلة:

- البدوية لا تريد أن تنسى ما أشيع من خطبة نحمده لى.

فتُماكِرُها:

- ولا سيدي يريد أن ينسى!

قالت متأسية:

- المنية من أبواب الرحمة ترق بها قلوب تقسو حتى تتواسى وتتعزى وتصبر وترابط. ونحمده من رسل المنية المرابطين!

فلا تتخاذل عن مكرها قائلة:

- لقد غضب لك وقال ينهر سيتي: أم وجيدة ألهاها الموت عن التكاثر وهى الزائرة للدنيا والمقيمة بالمقابر. كل الأحبة المفارقون نخلوها أعمارهم وأخذوا عمرها، أعفى الله لسانك فلا تتعرضى لها بذلك!

تغاضت عن المزيد المعلوم، ولكن "الطاهر" لم يتغاض، وقال لعطيات:

---

[1] الانتباذ: أي أتخذ المكان معزلا.

- جئت لترجعي بي فلم ترجعي باللغو والتأثيم؟

وليس غريبا أن البدوية وهى "العقيم" تلهجُ في كلامهـــا وســقط لسانها بصفح أم وجيدة عن الزواج، وعتق قلبها منه ومن الذرية. فكأنما البدوية تُآخذ نفسها طوال الوقت:

"لَمَ لَمْ تعتقي قلبك مثلها فيكون الأمر بيدك؟".

ثم إن الطاهر نافلة أم وجيدة التي وهبتها البدوية..

فحين عاد حيلة من القرافة بالنسوة وأطفالهن؛ قد أذهلـــه انحـــصار البول عن الأرمد، والكارو، واهتلك[1] بلحمه المتخبخب[2] صوب برج الظفر؛ فهو لا يبول في القرافة. والأرض كلها عراء للأموات إلا حصون الحروب وأبراج العتاة، كما أفهمه عم نحمده وهو يُهدئ من ســـورته حين جاش مغاضبا أرباب السطل؛ إذ يمنعونه من دفن الأرمـــد بـــرج الظفر. أرمد والده "دئدش" الذي ترعرع معه في إسطبل الشاهد..

لحق الأولاد بحيلة واتبعوه حيثما تحرج مُسدلا جلبابه، وحاصرا نفط بوله، ومتنقلا في حجرات البرج، وسراديبه، ثم أخذ بتلابيبه صبي قائلا:

- هناك رضيع.. رضيع يرضع يا عم حيلة!

وأوصله عنده، فحمله وحمل الصبي "الرضعة "، بينما سبقه ســـائر الصبية يزفون الخبر لأمهاتهم، ولكنهم لم يجدوا حيلة أمامهم ولا خلفهم، وسمعوا بخروجه من البرج تاركاً الأرمد وحده يُكمل ما بقى من هنـــة الطريق، ويستمع لتعليقات النسوة وهن مأخوذات بانـــدفاع حيلـــة، وتخبخب لحمه ورخاوته المُضطرة بجوانب جسده الهائل:

- أرنا وجهه يا حيلة!

---

(١) اهتلك: يجد في سعيه.

(٢) المتخبخب: المترهل الرخو.

- يا حيلة تمهل!
- حيلة ركبه عفريت!
- عفريت حيلة لا يبول إلا ونحن معه!
- العيال أحرجوا عفريته فخرج علينا ببوله.
- أهو دخل ليبول؟
- وبما تشعرين أنت؟
- أنا مالي. ده مجرد سؤال.
- سؤال للعفريت في البرج!
- وقد خرج بجوابه حيلة!
- الطفل رضيع يا كبد أمه!
- وأين كبدها؟ دى مره فاجرة!
- الفجور ألوان كالزينة في وجهنا!

قال الصبي الممسك بالرضعة:

- "الرضعة" بها ماء.
- لعله ينسون؟
- لا، ماء بس.
- أين ذهب به حيلة؟
- حيث يشاء علام الغيوب.
- أو حيث تشاء نواح أم وجيدة!

لم تحمل أم وجيدة الرضيع ولو مرة واحدة. حتى وحيلة يُقلقلُ قلبها باسطاً لها يديه بلفافة مهده، فأخجلته بنظرة لم يــر مثــيلا لــضعفها وارتياعها، وأغمضت عينيها تخيره بين إبقاء الرضيع على الحجر الصوان ريثما يفك حَصره، أو الذهاب به إلى لحمده..

وكانت ساجدة تحضره من بيت البدوية ولا تزال تعاتب أمها فيــه وتقربه منها وهي تفرق منه، ثم نادت ابنتها:

"يا ساجدة، أنا لا أخشى حمل طفلي وأخشى فراقه!". وقد لازمته ساجدة في كلا البيتين والسطحين؛ كأنما تكفر عن ذنب أمه بــوأده في البرج حيا ومسيس افتقاره إليها "شعرة" من وتين الروح، هيهــات أن يقطعها رجس الذنوب، أو لبن عطيات الذي لا يــسيغه الرضــيع إلا و"رضعة" أمه في صدرها.

وهكذا احتضن "الطاهر" البيت الذي يُعد مثابة للأموات، وتتصدر دهليزه خشبة "الغسل" أو صندوق دنياه، وزائروها الراقــدون دومــا، والصامتون دوما، وسلامهم فراق دائم.

لم يترك الطاهر راقداً منهم إلا وفتح جفنيه على الموت وهو يغــل الحياة، كأنه أنشوطة حلقومها وهي في صراع أخير ولكنه دائم.

الحياة بكل جبروتها وماضيها وحريتها في قبضة الموت. قد تبــدو مُعدمة هامدة، ولكنها في نضال!

دَرجَ على أن يتخذ مكانه فوق خشبة "الغُسل" ويرقد للموت دون أن يغمض جفنيه، وإن أغمضهما؛ يغمضهما على امرأة ترقد بإحــدى غرفة البرج. فيلحظها قمراء[1] عارية كسحابه بياضها ضــوء يخطــف قلبه؛ وبوحى من قلبها تلتفت إلى رضيع أقمر عاري لا يواريه مهــد،

---

[1] القمراء: شديدة البياض والوضاءة.

ومن مزغل رمي السهام بينهما يزمزم الرعد ضاربا؛ فينشهبُ من مستطيله وهج ارتد من قلبها إلى صرة الرضيع، وما لبث أن انحصر عن عقرب يقوس ذيله ويروغ بين صرتها وباب الرحم، ولكن الرضيع نهض لعقرب يشق غباراً للخطيئة يريد أن يكتمل عفافاً، ولما خرج من هباء ترابه المُنبث نتفا متفحمة؛ وجد أم وجيدة جالسة تصغي للراديو يبث خبرا عن انتحار هتلر..

أمسك الرضيع بذيل العقرب، وسارع يغطه في زيت برطمان قائم فوق الراديو، والتفت يبسم لأم وجيدة؛ فزمزم قلبها مرددا:

"المرأة أمك، المرأة أمك..".

إنه يُصدق قلبها كما صدق زملاءه في الكتاب والحارة والمدرسة.. كان الصدق يُشبه ماضي ذاكرته وماضي البرج. بأحجار مزاغله أثر يقين غبر، وأثر ارتياب آت؟

لقد ارتاب في أمومة "نوسة" بائعة الخوص والورد أسفل كوبري المجاورين؛ فحديثها إلى نحمده همساً يُشغله ويُكربه، ولكن كرب ارتيابه تبدد حين رجع هو وحيلة إليها والكارو مُحملا بالأكفان وبالنعش الجديد. استلمتهما وهي تدعو لنحمده بمكرمة المثوى جزاء إكرامه مثوى الأموات. بسط الطاهر ذراعه بثمن وردة، فتبسمت وأبقته لحظة؛ لتريق ماء القلة في صدرها المكتنز ببياض ليس كالسحابة الساطعة القمراء.

رغب عنه، وعن كل جسد غير أقمر تعهده ببصره في حمام "بشتك"، وفي بيت البدوية، والحارة، ومرابض الموات وسرادقاته، إلا ما قمر من جسم ساجدة، وكلما دلكه بزيت الورود؛ زمزمت نظرة أمها بالرعد الصادق. سألها:

- هل قصصت حلم المرأة على نحمده وحيلة؟

قالت باسمة:

- إن شئت قصصته عليهما؟

قال يبثها ارتيابه في تبسمها:

- كلما مرت الكارو بالبرج نظر حيلة إلى نحمده كما تنظرين أنت إليَّ!

فغضت نظرها عنه وقالت:

- وأنت هل قصصته على البدوية؟

- لا، لم أقصه عليها، وإنما أيقظتني البارحة، ثم وبختني قائلة:

- أليس في أحلامك إلا العقارب وأم وجيدة؟

قالت وتبسمها يستملح لهج البدوية بذكرها:

- وماذا قلت لها؟

- لم أقل لها شيئا، هي التي فسرت الأحلام بما تذكرته من حادث الجرو "جاك" ابن الكلبة" كاميليا "؟

يقصد حين نادت البدوية على أم وجيدة من السطح؛ فأطل"جاك" من شباك حجرة اليمام، ووقوق[1] للطاهر كأنما يخاف فراقه إذ يرتد مُخليا مكانه للمرأة. تبادلتا التهنئة والدعوات واستأذنتها البدوية في إرسال البنات ليعاونها في نقش كعك العيد، ثم أخذ بمسامعهم عواء ممتوت[2] تنفطر صرخاته، وتزهق في عجالة مريرة كأنما الصرخات صرخة تصيخ بشتى الألم!

فانتفض عود أم وجيدة المديد من الكنبة، وانتهت إلى "جاك" أسفل السرير النحاسي. حملته وفاءت إليهما تقول:

---

[1] الوقوقة: نباح من خوف.

[2] ممتوت: ممتدا بغواية.

– إنه العقرب قاتل القنفذ!

طار الطاهر من السطحين، وفرغ من سلم الحجرة الخشبى ليجدها تقلب جاك على السرير وقد أعملت المقص باحثة في شعره عن أثر اللدغة، وبدون وعى تركته يرزح في العواء الممتوت الثقيل طالبة المصباح، فاحضره الطاهر من تجويف الحائط، واندرج معا تحت السرير. هي بالمقص تريد العقرب حيا، وهو ينقل لها ضوء المصباح إلى حيث تزيح برطمانات السمن والزيتون واللفت والحبوب ومشنة الخبز، ثم تبعها بالضوء إلى أسفل الكنبة ومنها إلى صفيحة الزير والنيش والدولاب، ثم الطرقة المكشوفة ولكنها ارتدت قاصدة أسفل السرير وهو في أثرها، وما هي إلا حركة خاطفة سرت بينهما حتى ناداها:

– يا أم وجيدة، لا تتحركي!

ووضع المصباح على العقرب وهو بطيات ذيل جلبابها البيتى المشجر الفضفاض. أبدلت يدها بيده على المصباح، وطلبت منه أن يُحضر برطمان العقارب من فوق الراديو القائم على رفه المثبت أعلى الجدار، وكما كان يفعل لكى يدير لها الراديو على الأخبار اعتلى الكنبة ممسكا ببرطمان العقارب، ثم فتحه لتغمس في زيته العقرب..

وكم من هزيع؟ هزته البدوية توقظه وتمسح وجهه بالماء مرددة:

– ده كابوس..ده كابوس. العقارب محبوسة بالبرطمان!

يسألها:

– ماذا قلت؟

فتجيبه بما نطق به ولا يذكره، ومؤداه:

– أنت تقول: إن أم وجيدة أكلت العقرب والجرو يترع بالبكاء كواحد نائم يتوجع!

فيقول مُستنكرا:

– أأنا قلت ذلك؟!

فتصور له نبراتها ملابسات الكابوس كاملة بما فيها نزاعات "جاك" التي أرجفت بها مخالبه صميم الاحتضار، ثم قالت متطايرة "بــوحم" أم وجيدة ونبأة غنته:

– إنها لا تتوحم على زواحف القبور إلا وغراب البين يصرخ فوق رؤوسنا!

وتتساءل مُرتجفة:

– ما هذا يا ربي! أنت تصرخ في امرأة عارية، وهي تــتكلم عــن امرأة تخرج من البرج حاملة غربالا به رضيع، ثم تستقبل بالغربال تــل تراب الأموات، وها أنا أحلم "بالميسي" محرر الشكاوى يتوعدك بقلمه وأنت داخل قبو كامل، وأره يترع عنك أوراق الشكاوى التي تسترك، ثم ساومك: أما أن يترع ورقة عورتك الأخيرة، أو تخلع له صــندلك؛ فأسلمته الصندل، و خرجت من القبو مُستقبلا تل تــراب الامــوات حافياً. ما هذا يا ربي؟!

فيقول الطاهر:

– أم وجيدة لا تأكل اللحوم، فكيف تشتهي زواحف القبور؟!

دخل عم نحمده الحجرة وهو يقول:

– أحيانا أصدق أنها آخر روح ستترع في البرية!

أجابه الطاهر:

– ثلاثة أيام وألوان الذبول تراوح وجهها ولا تريد إغلاق الراديو؛ حتى سمعت خبر تأميم القناة!

قالت البدوية:

– أحد يذهب بها إلى "جمال" يمكن في تأميم القناة مصيبة ستقع!

ضحك عم نحمده مداريا انزعاجه، وتأهبت البدوية لمغادرة الحجرة

وهى تقول:

- حيلة جلس أسفل شرفة الشيخ "مشحوت"، وسمع منه أذان الفجر، ثم برطم له بخروج أم وجيدة إلى بستان الشاهد، فهتف الشيخ الكفيف في ظلام الفجر:

- مدد يا شاهد!

قال لحمده:

- المشايخ كلهم أحبها إلا واحدا؟

تريثت البدوية على الباب كأنما تسأله، من هو؟ فتضاحك و لم يجبها!

وضحك الطاهر، ثم سأله عن أم وجيدة:

- هل كلمتك عن الغلمان؟

- أية غلمان؟

- الذين ينتظرون بدر المسحراتي!

- وأين ينتظرونه؟

فقال:

- عند تل تراب الأموات؟

إنه تل من تراب القبور..

جُمع منها، وتركوه متراكما فيما يلي جناح المرتفعات من ناحية قلعة الجبل. تراب صفصاف أملس لا تشوبه شائبة كأنما دود الأجسام لم يبقي منها باقية. لا رميم، ولا عظام، ولا رفات. تراب أملس هو خلاصة أموات هم وفَخَار خلقهم سواء.

كأهم طير الخليل قد صروا إلى التل؛ لحين سماع المنادي إذ الأيام لا تدول بالأحياء والأموات.

ويلي أسفل التل مشجر من الزيتون تتقاطع جذوع أشجاره في ممرات كالمتاهة، وتفصله عن جناح المرتفعات ربوة يتناثر بها أشجار التين الشوكي..

ويقال إن تراب التل لم تواري القبور أصحابه، وإنما حصدهم وباء وهم نابذون أنفسهم بعراء المقطم خشية عدوة أهليهم.

وذكر "الشاهد" أنه صعيد أهل المشيئة، وكل من وعى الإشارة وذهب إلى شجرة اليقطين..

ويقال إنه تراب ذوى المتربة الذين أجلوا من قبورهم لتشييد القصور على زفافهم!؟

وبدر المسحراتي يقول:

"إنه تراب المماليك، جمع من مدافنهم الغربية؟ ".

ولا يزال الطاهر وأصحابه يحومون حوله ويهيلون تراب حضيضه فلا يعثرون على ما نخر من العظام والجماجم، كما عثروا عليها فيما اكتنف مسجد "الغريب" من رفات وعظام وجماجم.

ويخوضون فيه بقدامهم إلى الأفخاذ وهو ينشق كالهباء، ولم يتهيبوا خطر الانقلاب في جوفه حين نووا التزحلق على ملسائه ذات الهوى الرخوة. وتخيروا مواضع يابسة بقمته، وجعلوها منصات للتزحلق

والسباق، وقد جلبوا أكياس مشمع افترشوها قابضين طرفيها بأجنابهم ومسددين سيقانهم على خط مستقيم، وهم على أهبة التزحلق، أو أهبة صفقة البدء من الطاهر مراقب السباق من مدخل مشجر أشجار الزيتون، وما هو إلا صدى الصفقة حتى يكون قد انتهوا من السباق، ولا ينتهون من الشجار على أيهم الفائز، وقد يملون ملاحة الفوز والخيبة؛ فيستظلون بتقاطعات مشجر الزيتون أو ينظمون الألعاب داخله أو يطاردون الثعالب في شعب المرتفعات وحتى زرايب الخنازير ومغارات المقطم..

وهنالك يهيم الطاهر مقتفيا أثر شجرة اليقطين ومسجد ابن الفارض وقرني الغزالة المعلقتين ببابه، والتي ترجم لها أشواقه كما يقول الشيخ حنفى لأم وجيدة، وقد يتأهبون على منصات التزحلق وينسيهم شأو السباق أرواح الموتى وأصداء جماجمهم وكأن الريح تنخور فيها وتطلعهم على حقيقة التراب. لمن هو؟ فيجزم لهم جازم بأنه تراب أهل المشيئة،

وينادون على الطاهر الذى مل انتظارهم، واستلقى على عصف الأوراق بمدخل المشجر:

- يا طاهر، أهل المشيئة يريدونك.
- ألم تخلع نعليك بتلهم!
- ماذا قالت لك جماجم أموات مسجد الغريب؟
- كاد أن يكمل هيكلا منها!
- ألم تصره إليك؟
- بل صره إلى أم وجيدة فأسمعته غنة الخاتمة!
- لِمَ تشل الجماجم قلوبنا؟
- ولِمَ ناستمرئ الطعام وعفاء التراب بأيدينا؟!

اعتدل الطاهر من استلقائه وخاطبهم:

- في تراب الراحلين حنين لسيرتنا الأولى!

- والجماجم المنخورة ماذا قال لك ريحها؟

طرح ظهره لغفق النوم كأنه يستحضر روح أم وجيدة وغفق النبأة يُسمعها حديث الأرواح..

- في الجماجم عماء هو المصير.

- ما الذي يوحدها؟

- انطماس الإنسان هو ما يوحدها!

- حيث يكون الانطماس يكون الرياء!

- الجماجم لا تعرف الرياء!

- ولا تعرف الصدق أيضا!

- هي بشاعة العماء!

- ولماذا لا يكون الموت هو ما يوحدها؟

- لا، الجماجم لا تشبه الموت في شيء!

- صدقت، فهل تذكرون "عيدا" اللبان؟ كنت بدكانه حين سقط،، وقد رأيتُ الموت في وجهه كطائر أبي فصادة. ملول هزاز على أهبة الوثوب، وحين تأخر دفن "عيد" وتركوه في دكانه زهاء ساعتين؛ جئته و رفعت عن وجهه الغطاء فلم أجد الطائر ولا عيدا، وإنما وجدت حياة خانقة للشعور والبصر!

- الموت في الحلم كالصلاة في الحياة، صراطان لدار الحيوان. هكذا ينشدنا بدر المسحراتي!

- كفانا إزعاجا لطير الخليل!

- لا سباق اليوم ولا مُلاحة، ما رأيكم لو تزحلقنا جميعا وأيدينا معقودة بالعروة الوثقى!

- هذه "لو" سيدنا عزرائيل!
- من يحب أن يراه يُوثق يده بيدي!
- كلنا نحب الحق.
- وهل الحق يحبنا؟
- هذه "هل" الشيطان.
- يا طاهر! اخلع نعليك.
- هلم يا طاهر، أهل المشيئة في انتظارك!
- لو تصفق لنا صفقة العروة الوثقة؟

ريح منخور[1] بأصداء الصحاب جلب عصف[2] المشجر من تقاطعات جذوعه ومتاهتها المنحدرة إلى شواهد قبور باب الوزير..

أنجلب العصف مطوقا غفق الطاهر، وتوالى قراع بدر المسحراتي شاملاً المرتفعات؛ حتى حبا على أربع بذروقما رضيع أحلامه متوخيا بعينيه مرقد المرأة القمراء العارية بحضيض التل، ولكن وهج قلبها انقطع عن صرته؛ ففزعت ناهضة تشق غبار الخطيئة..

ترقب خروجها من هبائه؛ وإذا بالعبث ينهكها فيما تهيل من تراب الحضيض بغربال، وبوحي من قلبها التفتت إلى مرقده وعصف مشجر الزيتون ينجلب فوقه ويطمره..

فتح الطاهر عينيه على أسفل التل؛ فلم يجدها. التفت إلى قمته فلم يجد الصحاب!

أقام ظهره، وتلفت يتفقدهم في سقيفة الأشجار وتقاطعات جذوعها. نهض والعصف ينثر منه. تنحى عن ربقة المشجر، ودار يستفيض بعينيه المكان. خلاء قرافة الوزير، وجناح المرتفعات، وأبراج السور، والمز غل المتهدم وفجوته التي يستقبلون منها التل مباشرة، بعد فراغهم من ممر الأبراج المتصل بقبو عم كامل بائع الشاي.

بدا لناظريه استدارة برجه متاخمة لأقصى منحدر المرتفعات. ظنهم يسبحون بترعة المجاورين "سراب العطشان" صعد كومة أشجار التين الشوكي، ثم جناح المرتفعات، ومنه أشرف على الترعة الخاوية. ظنهم ببستان الشاهد يأكلون ثماره، فكتنف حافة الترعة هابطا منحدرها، ثم دخل البستان. كان حيلة يُخرخر في تعريشة الفل، بينما غنة أم وجيدة

---

[1] منخور: العظام النخرة التي يخرج منها الريح.

[2] العصف: ما تيبس من أورق الشجر.

ترسل[1] منادية:

- يا بدر، دق قراعك!

كانت جالسة إلى شجرة الكافور طالعها من جانب التعريشة فأغمضت عينيها. سألها:

- هل أتاك الصحاب؟

قالت:

- بدر المسحراتي ينتظرهم!

- أين؟

- بتراب أهل المشيئة!

بعناد من يستشعر نبأة الفزع:

- أنا قادم الساعة من هناك!

بنبرات ترسله إليهم:

- بدر ينتظرهم!

بيأس كالرجاء:

- ألا ينتظرني؟

- المرأة هي التي تنتظرك بالغربال!

قال موليها ظهره:

- لا الصحاب بقمة التل، ولا المرأة بحضيضه!

لاحظت عصف الزيتون عالقا بظهره وشعره الأصفر؛ فشاطرته خواطره قائلة:

- ستجد بدرا عند التل!

استدار يسألها:

---

[1] تترسل: تحسن نغمة النواح دون عجالة.

- وحفيديه؟

تهدجت:

- ينتظران بدر هناك؟

استيقظ حيلة وبدا واعياً لكلامهما، وإن أثقله النعاس. استدار إليه الطاهر فتتعتع كلامه في حلقه يعرض عليه ركوب الأرمد؛ فأوفض الطاهر في سيره قائلا:

- سوف أسلك شِعب الجبل.

تتعتع حيلة ينصحه بالذهاب إلى قبو كامل؛ فقالت أم وجيدة تذكره بحديثها عن كامل:

- كامل لا يرى، ولا يتحدث إلا عن الراحلين!

أخلف حيلة وراءه يتعتع بما يشاء، وسارع إلى شِعب الجبل ومنه اختصر الطريق منحدرا إلى القبو، دخله على وفز يعجل بعم كامل. قال له من مكانه بالنصبة:

- حفيدا بدر خرجا من تراب المماليك وينتظراك بتلهم!

سأله عالق البصر كأنما ينشبه في تراب التل المنخور:

- هل أنقلب الصحاب في جوف التل؟

قال وجانب طرفه يتروي ناحية شِعب الجبل المفضي إلى القرافة ومن ثم إلى خلاء المقطم:

- "الشاهد" جاء بدر في المنام، وأبكاه وهو يأخذ منه حفيديه، ثم سره أن يراهما يذكران الله بحلقة أهل المشية. أم وجيدة قالت لبدر: إن الرؤية حق؟ وأوصته بدق قراعه على أبواب خمسة من بيوت الشارع!

خطر للطاهر منامه الذي نخر الريح فيه أصداء الصحاب كأنها أصداء أهل التراب الشاهق تلهم الشاهق تلهم كنصب تذكاري لا يغلق جوفه مادام في الأرض أصحاب يعتلون قمته. وخطر له تطاير عصف

أشجار الزيتون منقشعا عن الرضيع؛ فحبا على أربع رافعا رأسه لسحابة العصف، إذ تُولي شطرها خلاء أهل المشية. أتبع السحابة حتى نهضت به غنة أم وجيدة:

"يا بدر دق قراعك"

التفت إلى المرأة العارية بالحضيض والعبث يُنهكها فيما تُهيل هباء التراب بغرباها!

هتف الطاهر بعم كامل:

- أم وجيدة أوصت بدرا بدق قراعه على خمسة أبواب، والصحاب كانوا سبعة بحفيديه!

كان "الميسى" محرر الشكاوى يجلس بإحدى مصطبتي القبو المتقابلتين فقال:

- أم وجيدة تسمع قراع الموت كما تسمع القطط ضربات الزلازل!

قال عم كامل وجانب طرفه يتروي إلى الناحية الأخرى حيث تلوح حجرة اليمام:

- أم وجيدة هي يمامة الموت التي تغزل فيها حنفي، وسماها في شعره بيمامة الذكرى، ويمامة النجاة، ويمامة جبل الجودي!

أعاد الطاهر سؤله:

- أنقلب الصحاب يا عم كامل بجوف التل؟

أجابه:

- "الشاهد" قال لي إنهم خرجوا جميعا من تراب المماليك!

قال الميسي يُشهر بالطاهر:

- حفيد بدر ردد اسمك، واسم أخيه وهو يسلم السر الإلهي!

وضحك متهانفا يسخر بكامل:

- المماليك كلهم خرجوا من الترب وينتظرونك هناك!

أطرق الطاهر إلى صندله وتبسم متذكرا حلم البدوية الذي استصرخت فيه ربها. شال برأسه وناده:

- يا ميسي أفندي، اكتب هذه الأسماء.

وأمله أسماء الصحاب جميعا بما فيها أسمه الذي اختارته بنات جنات "واجدا" وأثبته عم نحمده في شهادة الميلاد ضاربا عُرض الصحراء باسم البدوية "الطاهر".

مسخ التضاحك وجه الميسى، ثم قال:

- أنا قلت لنحمده اسم أمك الحقيقي!

تبسم الطاهر تبسما يملى له وقال:

- ألا أخبرك باسم أبي الحقيقي؟

مسخه التضاحك فأرا يقرض عصو[1] العصافير الأحياء. قال الميسي مشيرا بذراعه ناحية برج المراقبة:

- ستجد أسم أمك في سجلات ثكنة الانجليز العسكرية!

تمثل الطاهر عورته في حلم البدوية.. قال للميسي مقرا بعريه كرضيع حجرة مزغل رمي السهام:

- أنا كنت أزحف لجنود الثكنة من تحت أسلاكها الشائكة!

وبسم لعم كامل يقول:

- سوف أذهب لرؤية الصحاب ثم أزحف ليراني الجنود!

فلم يرحمه الميسي قائلا:

- الله يرحم أمك ألف رحمة، فقد كان بياضها مُشرب بحمرة الانجليز!

---

[1] العصو: صغار العصافير.

ناداه عم كامل ثلاثا بلهجة من يقسم يمينا:

- يا ميسى،... والله ما قلمك بأكذب من لسانك، وما لسانك بأعف من قلمك!

كان بالقبو بائكتان متقابلتان إحداهما استخدمها عم كامل نصبه، والأخرى هي التي انعطف إليها الطاهر متخطيا منفذ الممر المتصل بالأبراج، ومسلك الصحاب إلى حيث يستقبلون قمة التل الذي نجوا من جوفه فرادى وابتلعهم جماعة!

أرجف الناس باسم الطاهر، فهو الشاهد وهم الغائبون. أما "عيسى" حفيد بدر المسحراتي فقد ردد اسم أخيه، واسم الطاهر، وفطس وهو يدلهم على المكان الذي فقد فيه أيدى أصحابه بجوف التل.

أخرجوا الصبية وأيديهم معقودة "عقدة الوثاق"، كما عُقدت نعوشهم "عقدة اللقاء" في جنازة احتشد خلقها من البوابة المحروقة وحتى باب الوزير.

برح عم نحمده تراب الأموات الذين استفحل ذكر موتهم وانطمست ذكرى حياتهم. فقد أكد له غفير مشجر الزيتون أن ابنه لم يكن يتزحلق مع أصحابه على التل، وإنما كان يستلقى على أوراق الأشجار، أو يسير وحده ناحية الزرايب والقطار المقلوب ومغارات المقطم.. ثم أنه قد هتف به هاتف لما دب صمتهم المفاجأ في روعه؛ فخرج إليهم مهرولا من المشجر ليجد عيسى ينكفئ وينهض في غمار التراب، فكان أول وأخر من تحدث إليه وهو يخرجه من جانب التل.

حين سأل عم نحمده أم جيدة:

- هل حضر "واجد" إليك يومها؟

أكدت حضوره هو والشاهد وأهل المشيئة، وقد حف الكل بشجرة اليقطين وترجموا للغزالة أشواقهم، ثم تمايلت بها الغنة مبصرة عصف أشجار الزيتون المتطاير من الطاهر إلى مزاغل الأبراج ومظلات القبور.

وكان حيلة يجيش بغنتها فينتفض من غفق النوم الموصول بأرواح الأحبة، ويهجر وراءه الأرمد، ونحمده، وأم وجيدة، وساجدة، ويهيم في أبراج السور، وأحراش القرافة. وفي مرة رجع بصندل الطاهر؛ فكان رجوعه به كما قال عم نحمده:

"كحشرجة الوفاة أملها أطول ما في الحياة!".

وقد فهم منه أنه عثر على الصندل بحجرة المزغل المواجه للتل، وما

يفتأ يجيش به الإخلاص، ويهاجر إلى الطاهر، ويعجزه السؤال فيحضر إلى نحمده الترابية، والمقرئين، وساكني الأحراش، وأراد أن يجازيه على سعيه المُشكور ويكفه عنه؛ فمسح ما تدرع من عرق وجهه وقال له:

- الطاهر آثر البقاء مع أهل المشيئة يا حيلة!

فنكس رأسه الضخم وأفهمه أن الطاهر لا يدوس بصندله على تراهم!

- ألم يخلع الصندل يا حيلة؟!

فأفهمه غير متمهل أن "عويس" العرة سرق الصندل، والطاهر نائم في قرافة الوزير، ثم أخفاه بحجرة المزغل مبيته القديم، وكان يحدو حيلة الأمل أن يرسم له الفنان راهب البوابة وجه الطاهر، وهو بين الرابعة والخامسة عشرة من إطار صورة. نسخة منها مُثبتة في حجرة اليمام، والأخرى على مكتب الدكان؛ فأخذها من المكتب، وتكودن مُثقلا بعبال الأمل وعبال لحمه المتكدس، ثم وقف أسفل نافذة البوابة الشاسعة ورفع الصورة للفنان دون أن ينبث؛ فلم يحفل به حتى استدار مع النافذة، وصعد سلمها، ثم جلس إلى جواره يتعتع بما كانا يتندران به هو ونحمده من وصوصة الإلهام في ظلمة الإلهام!

توسم الفنان نظرة الطاهر العالقة في غير مأرب. نظرة عازمة على الاستغناء المُطبق بفمه وتململ وجهه، بينما نظرة عم نحمده دامعة ضحوكة ودمعها وضحكها صفو من دهاء الحياة، أو كما قال الفنان:

"في نظرة عم نحمده معين من دموع تخفيها لوعة الطرب. والله أعلم باللوعة الطرب!".

هلال مقلوب يشع ألوان طيف محتقنة. هكذا عرف الشمس وهى ترمس[1] سرها وراء المرتفعات.

ولكى يتصور مصيرها؛ وضع على حافة الطبلية بلية كبيرة تشبه الشمس في ألوانها، ثم بدا له أن يجعل من الطبلية نفسها شمسا لسماء السطح؛ فلزق على حوافها شراشيبا كألوان الطيف قصها من جلاد الكراسات، وأطفأ مصباح الكهرباء بعدما وضع في كبدها سراج جدته السهارى، ثم توارى في ظلال الغسق ريثما يُلاحظ رد فعل معلمه، فلم يخيب رجاءه وغشي السطح يُسمعه سؤله كأن لا أحد هناك:

- من هذا الذي صنع هذه الشمس؟

ظهر له محروس وهو في خجلة التواضع، فعاد يقول:

- شمس رائعة ولكن لا تجعل عينك تعوق خيالك!

واستقبله عند الطبلية وقال:

- إذا كانت المشاهدة هي غاية النظر فقد أضفت عينا إلى عينك! الشمس لا تغيب ولا تشرق؛ وما تفتأ العين تسألها أين ستغربين؟ وتسألها أين ستشرقين؟ وقد نسأل النجم متى انفجرت؟ أما الخيال فيلتمس ضوءه وهو على يقين بأبدية الضوء. الخيال هو عاطفة الكون. صدق أن القمر صخور، ولكن لا تصدق أنها صخور بغير شعور.

ثم أطفأ السراج السهارى ونظر إلى الشمس المحتقنة بسرها قائلا:

- إذا غربت الشمس فإلى أى الشجرتين تجلس الوارفة أم الجرداء؟

- الوارفة.

- لِمَ وأنت لا تحتاج إلى ظلها؟

- لأنها الأجمل.

---

[1] ترمس: تدفن سرها.

– وما الجمال فيها؟

– الخضرة.

– ولماذا الخضرة جميلة؟

– لأنها تعبر عن الحياة.

– برافو! فهذا هو الخيال أن تمل وعيك بشعور الحياة وأبديتها مهما اختلفت صورها وأشكالها؟ وحينئذ لا تثريب عليك إن أغمضت عينك للخيال، فلا أحسبك تضل الطريق إلى الشجرة الوارفة.

أدهشه قائلا:

– وإن لم تشاهد عيناي أيا من الشجرتين فإلى أين يذهب بي الخيال؟

– الخيال هو الذي يخلق إرادة النظر؛ أي يخلق العين!

ذهب محروس يُضيء المصباح الكهربائي، ورجع يتناول كراسة "الشذور" من الطبلية وقال:

– لقد فرغت من سؤال الأمس؟

– أو كتبت مشهد موضوع الطيران؟!

فتح الكراسة على مشهد:

"الأرض ليست تحتنا".

قرأه معه مناقشا، ومعالجا لعبارته كما يفعل في سائر المشاهد. كانت السماء في المشهد مطارا لإيكاروس وابن فرناس، و لم يذكرا الأرض إلا في لحظة السقوط!

ابن فرناس:

– مالنا نهبط بقوة أكبر من قوة الصعود؟

إكاروس:

– كيف؟ ونحن مازلنا نستعرض السماء طيرا!

ابن فرناس محذرا:

- انتبه؟

- إلامَ؟

- الجناحين؟

- أى جناحين؟

- جناحا الهروب من الملك.

- ليس للهروب أجنحة.

- أقصد جناحى الطيران.

- نحن لا نطير بقوة الأجنحة!

- انتبه، الجناحان يتباعدان عنك!

- أى جناحين؟

- أنت تسقط مثلي!

- بل أنا صاعد إلى لؤلؤ الشمس!

- الجناحين؟

يلتفت إكاروس إلى جناحيه المثبتين بإحكام، ولكنه يشعر بقوة السقوط! فيهتف برفيقه:

- احذر..احذر الصخرة تحتنا!

فيطمئنه ابن فرناس:

- بل هي الأرض!

كانت نظرة معلمه كنبأة أم وجيدة؟ بارك رأسه بمسحه وقال:

- أجل أيها الطائر، نحن لا نطير بقوة الأجنحة كما إننا لا نسقط بدونها!

ابن فرناس سقط بمجرد أن أحس بفقد جناحيه، وإيكاروس سقط بمجرد أن أحس بوجود ذانك الجناحين! واستعرض شراشيب الألوان

بحواف الطبلية أو الشمس التى صنعتها عينه وقال:

– لقد عرفت الجناحين بخيالك، وعرفت الشمس بعينك. ألست معى أن شعورك بالجناحين أكبر من شعورك بالشمس؟

وبنفس النظرة استفز خياله قائلا:

– وماذا عن "الصخرة" التي هوى عليها الاثنان، وبكى عندها بنات الماء؟

قال شاردا:

– لا أعرف.

سأله:

– ما رأيك لو أبقيت الصخرة في مكانها؟

– أبقها لنفسى مادام البنات بالماء!

قال باسما:

– ولمن أراد الصعود معك؟

ثم رفع لناظريه كتاب: "ساعات بين الكتب" للأستاذ العقاد، وقال:

– حين يسكت التاريخ يتكلم العقاد. يصفونه بعملاق الفكر والحق أنه "مارد الخيال" الذي خرج من القمقم الشرقي لكي يأتي بالتاريخ مكبلا أمام الحقيقة!

وتل شعره:

هو الحق ما دام قلبي معي

ومادام في اليد هذا القلم

ثم جلس على دكة المطالعات، وجلس هو إلى الطبلية يطيل النظر في صفحة بيضاء من كراسة الشذور؛ حتى تخدد ساعده في سبات عميق كأنما يستبطن الخيال في الحلم، كما استبطنه في الواقع، وجاءه خيال

الحلم ببنات الماء وهن يحولن الصخرة موجة طافية تغمر إكاروس وابن فرناس، وقد تجمع ريش الأجنحة كمظلة جابت السطح والمرتفعات، ولما أظلت بناية المدرسة؛ تخلخل الريش، ووصوص منه لؤلؤ الشمس..

شعر بأنه يسقط إلى باب المدرسة الموصد، وسمع من ينهره:

- ألم تعاقب على التأخر؟

- لذلك؛ فأنا أتأخر!

- لهذه الوقاحة رائحة تشمها المدرسة!

- دع وقاحتي، وأشهد بأن باب المدرسة مغلق!

يمتعض من قدميه الحافيتين قائلا:

- أين الحذاء يا عبد الواحد؟

فيؤرجح ذراعه بالحقيبة وهو يقول:

- الحذاء هنا!

- هنا! وماذا يصنع في حقيبة المدرسة؟

- يرقد على البيض!

وهو يتقزز متضاحكا:

- بيض رأسك الفاسد؟

يقذف بالحقيبة إلى قوة الخيال؛ فإذا بها طائر أسود يصعد إلى لؤلؤ الشمس الموصوص من خلال مظلة الريش..

كان معلمه لا يمل النظر إليه ويشفق من أعراض خياله كإغفائه المفاجئ، وصحوه المفاجئ، ومضغ ياقة ملابسه، و القلم الرصاص، وتواصل شروده، وطفرات تساؤلاته، وأوابده الفنية التي يقرظها بقوله:

"إن اكتملت عزيمتها ستكون جزءاً من عزيمة الفن في المستقبل القريب ".

نفس الحلم، قطعت خياله أمه وهي توقظه للمدرسة. نفض

اللحاف عنه واتجه مباشرة إلى حجرة جدته حيث وشـــيش "البـــابور" معزل الشتاء، وجدار الإلهام. تمدد كالمعتاد متوسدا فخذها. قالت ماسة رأسه:

- إلى متى تحلم بالطيور؟

- حتى أحلم حلمها!

- من قال لك ذلك؟

شرد لحظة وقال:

- بنات الماء!

قالت باسمة:

- وماذا قلن لك أيضا؟

- إذا حلمت حلم الطيور سوف تطير مثلها!

قطع استنكار أمه يقظة الخيال:

- أنت هنا! ولست في الحمام؟

و تعجلته مضجرة:

- لست صغيرا على ذلك!

اعتدل جالسا يخاطب جدته:

- اشهدي، بأنني سأجد باب المدرسة مغلقا!

فصاحت أمه:

- ومتى إن شاء الله سيفتح هذا الباب؟

ومحركة ذراعها إلى الوراء:

- ألم تقل هذا أمس وأول أمس!؟

قام يقول:

- بلى قلته، وفى كل مرة أقفز من السور.

- سور الكذب!

مخاطبا جدته:

- قولى لها تصدقني.

غادرت الحجرة قائلة لهما:

- كفاك تصديقها، وفرحتها بأضغاث أحلامك!

رد باب الشقة خلفه ولا يزال وشيش "البابور" يعزله في نعاسه الشاتي. تسمر إزاء الدرابزين وحلم الطيور يصعد به إلى السطح. ركبه مترلقا إلى منتصفه. أمال رأسه فامتد حلق البيت إلى السحاب، وتلاحقت زمر الحمام كأنها الهواجس تضغط على رقبته؛ فأطاع الحلم وتسلل صاعدا إلى السطح. توسطه مُسقطاً الحقيبة من يده، ورفع رأسه ليدور مع انسيابية الأجنحة الطموحة المُشوقة للطيران في ذاته كأنه غاية السماء..

طلاقة هي انبساط الضوء الآبد في الفضاء المنظور.

من قال له:

"إننا ننام لنحلم والطيور تطير لكى تحلم؟ ".

ربما بنات الماء.

أين سرب الحِدَأُ؟

غير اتجاهه حيث أوجها الساطع بين الرقائق السابحات. مهما علت فهى تعرفه، وتميز نداءه، نداء يوم الجمعة والإجازات:

"يا حدأة يا أم ملاءة خذي كتكوتك..".

كان يكرره كأنما يتناهى إليها في أوجها؛ فترصد الجثمان المقذوف، وتدوم في شبه دوائر، ثم تتراخى هابطة متجمهرة أدنى السطح في مرصد عاينته، وتعلقُ نفسها صافة أجنحتها المُحدبة مُنحنية الرؤوس.

تأهبا معا على ميقات. هو يقذف بالجثمان وهي تستهدفه في سباق ضار كأنها شهب بنية حمراء مشقوقة الذيول، وقد تدركه لحظة انهدامه بأرض السطح فلا تكترث إلا بصراع مخالبها، وفى خطفة انتهاب تنتهبه واحدة، وتتمكن منه جامحة في صعودها، وفي ميلها صوب المرتفعات؛ فيشيعه بنظرة تتعقب المخالب الظافرة إلى أن تهبط في أشجار الكافور..

لم يجسر على ندائها وشقة جارته "الملاحة" أسفله، وبدا له تحفيز

جموعها وإثارتها؛ فعقد المنديل على ثمرة الـــدوم، وقذفـــه كجثمـــان كتكوت، وأعاد الكرة حتى هبطت مدومة في دوائر فسيحة ثم تلاقـــت جميعها على أرجاء مرصدها القديم أدنى السطح.

قذف المنديل فانحنت رؤوسها مُتأهبة وحدة بصرها تحجم بها حـــتى انحط المنديل بكتكوته المزيف. لهث وراءه، ورجع إلى حيث يقذفه، ولم يهبط ذراعه إلا واحدة تنفلت من الجموع القلقة المتجمهـــرة وهـــوت تستهدفه غير واعية بمناورته، فقد كان يقذف المنديل إلى نفسه ولـــيس لها، وإن كادت المخالب أن تلتقطه من قبل وجهه؛ فـــأذواه مُرتاعـــاً، وأحجمت هي جامحة إلى الجموع، ولما عاد للمناورة عـــادت، وكـــان الاثنان أكثر جسارة؛ فلم يذوي وجهه، بل رفعه للمخالب المعقوفـــة، ووفز يجاذبها المنديل، وفي الكرة الأخيرة تكاشفا، وتبـــادلا الجـــسارة، ودهاء المناورة، ولم يكن به حاجة أن يسأل سائر الحِدَأُ المستطلعة:

ما بالك لا تشتبكين في صراع النهب؟ أأدركت طائلـــه مـــن البداية؟ أم اصطفيت واحدة تنوب عنك وتلهو بالجسارة؟

مادامت الحِدَأُ على حردها[1] مُـــستطلعة، ومعلقـــة نفـــسها في مرصدها القديم، فهو على حرده حتى يمكر بها المكر الجميل، أو يُكافئها بجثمان كتكوت قد يصادفه داخل عشة من عِشاش الـــسطح المتحلقـــة سوره إلا قليلا.

أتى العشش يزيح عن أبوابها المسامير الملتوية، ثم انتهى سعيه نهايته الأسيفة. احتل ظهره باب العشة الأخيرة، ومَدَّ ساقيه تماما ليعزله وشيش "البابور" في نعاسه الشاتي؛ فرأى مظلة الريش تظلـــل بـــاب المدرســـة الموصد بينما هو يسند ظهره إليه، ويفتح عينيه على صوت يزجره:

---

(١) حردها: عزمها.

- أين الحذاء يا عبد الواحد؟

فيشير إلى الحقيبة ليخرج منها طائران يهاجمان الصوت، ثم يحطان على قدميه الحافيتين، ويسمع البومة البيضاء تقول للطائر الأسود:

- أنا قربان الليل في عيني سكينة القنص!

أجابها الطائر الأسود:

- وأنا طائر الحضارة في عيني عزم الهجرة!

أرجفت قدميه ثرثرة حميمة من فلول الكتاكيت الزاحفة من العشش صوبه، وتكالبت عليه ترتقى كل مرقى منه. ساقيه المفرودتين، وبطنه، وصدره، وكتفيه، ولم يبق من كسوف الحلم إلا وشيش "البابور" ونعاسه الذى حوله إلى جثمان من الشمع، يبسط راحته لمن شاء أن يرتقيها. توسط راحته كتكوت نقار، وكالمخالب فَرَّج مابين أصابعه وقبضها عليه؛ فحرر نفسه مُسرعا إلى باطن معصمه. استدار فضم أصابعه له كقمة يعتليها واحدا فردا يصوصو بالفرحة، وهاشا بمنقاره إلى فمه. توالت نقراته المصوصة؛ فتذكر ما بقى من سمسم أم وجيدة. جرف جيب قميصه بيده الأخرى، وبسطها فصوصو كتكوت القمة، وانقلبت ثرثرة الكتاكيت ثورة جياع بيضاء..

تكالبوا على مراقى جسمه، وزحفوا إلى ذراعه المرفوع حيث قمة ثورة الجوع، ولكن السطح صعق، وانطبقت أجواء ضحاه على دفيف أشباح تقصفه الأجنة البنية في عنفوان متأبد؛ انثنى متحاميا بأرض السطح غير مُفرط في حبوب السمسم، بينما دُكت القمة على فردها النقار، وشزرَ في كل ناحية من كان يسعى إليها من الكتاكيت..

لم يفته خالجة من دهشة الخطر، بل لم تذهله دهشة الأنتِهاب المُهلكة عن تلك الصخرة "حقيبة المدرسة" و بنات الماء لديها يرددن:

"لولا لحظة السقوط ما حولن الصخرة موجة طافية. من لم يخلد

لحظة الخطر مات بموتها!".

كأنما تحامى بأرض السطح تهيأ للخطر، أو تخلصا من فُجاء ارتياعه. لقد ملأ وعيه بالمخالب المعقوفة وهى تنتهب الكتاكيت المُهرعة المُستغيثة، وتجمح بها حيث مهاب الأنِتهاب، ثم غربت بهدير الاستغاثة إلى أشجار الكافور..

لقد قهرت الحِدَأُ خياله، وانتزعت الصخرة قلبه.

بعثت حركة نهوضه ثرثرة الكتاكيت من أجداث الفزع، ومع وهلة[1] نهوضه التالية إلى الحقيبة؛ تكالبت صوبه في ثورة نجاة، ومن طلب النجاة حر.

حمل الحقيبة يأسا من إيواء الكتاكيت في العشش، أو إخماد ثورتها، ثم يأس من خشية انتهابها كرة أخرى، أما تميزها لأصحابها فمحال، ولكنه خط إلى أوسع عشه جاذبا خلفه الفلول الهادرة بثرثرة النجاة، وبين الخطوة والخطوة لم يغفل باله عن "زعيق" سهير الملاحة في حلق البيت، وهو الزعق المقترن بدبيب السقف عليها، أو بسرقة الكتاكيت، كما كان يظن أصحابها، أما هو فقد عرف السر من مخالب الحِدَأُ! وكذلك وقع ما تحسبه ودوى الصراخ الزاعق في حلق البيت متوعدا:

– يا لصوص يا أولاد الزواني، لن يقطع دابركم من السطح غيري!

---

[1] الوهلة: الفزعة، ووهل إلى الشيء ذهب وهمه إليه.

وكانت النجاة سهلة أو خطرا مبالغا فيه!

فاهو طوقها "دكة المطالعات" كان معلمه يقول في الندوة:

الأخطار المبالغ فيها زوبعة في فنجان أم وجيدة.. الخطر الحقيقي هو ما يمثلنا بلا تهوين أو تهويل. الخطر الحقيقي حصن لمن أراد الدربة.

لازمته الفلول الهادرة حتى تخلص من السور المشترك مع سطح "ضياء" رفيقه في قيادة الطائرات الورقية من السطحين، وهو الذى وحده بأرجوحة المولد.؟ أسدل جسمه على الجدار وانحط ساحبا من عرضه الحقيبة.

هي أذن عَزْمَة للتحصن بالخطر.

تخلص من أدوار البيت الثلاث، ولم يبق إلا وهلة الخروج، فقد تصطاده عين من شباك، أو ناصية، وقد يباغته عابر؟ أما جارته "الملاحة" فلا يحسبها مُطلة من السطح ولا هي بالناجية من تيه الفلول، ولا بالمميزة بنان كتاكيتها ولو بعد حين؟

أنت في نهر الحارة وعقبة الخروج وراءك، وها هو "حُنجُل" كلب أم وجيدة يتلوذ[1] بالفرحة ويلهث إلى رائحتك وقدميك حيثما خطرت..

أين مرامي الخطر؟

حماسة وليدة تستقل بإرادتها وعازمة على امتحان قدرتها في شواهد الواقع ومساربه، بل وفى إثارة دخان كثيف من الأكاذيب يقول معلمه:

"أكاذيب الخيال وأكاذيب الحروب أصدق ما نعيشه في أيام السلم!".

لا رجعة إلى البيت والتعلل بباب المدرسة الموصد، فهذا أول يوم للخطر:

---

[1] يتلوذ: يدور بالفرحة ويطوف بها.

"بقدر شرف أخطارك تكون حريتك"

قال له:

"حين أمسك بالطباشير البنفسجي سوف أوحد التاريخين على السبورة؛ وأؤرخهما بيوم الخطر!".

التلفت مريب. امض إلى حيث عزمتُ، وانعطف إلى طريق المرتفعات فثمة وهلات للخطر كاللؤلؤ الشمس، وإن سقطت من خلال مظلة الريش؛ فثم بنات للماء، ألا تسمع استغاثة الكتاكيت؟

بم صوصو لك مرتقى القمة؟ وفيم انتهبته المخالب المعقوفة؟! أبراج السور متصلة حتى قرافة الوزير.

هزه صوت أمه:

"قفزت من سور الكذب ".

لم يعد للأكاذيب أسوار ولا المدارس سوف تبلى كسور القاهرة إلا ما رحم الخيال وعطف.

ارتقى المنحدر الأول، فالثاني ثم كانت الِذروة المُبتغاة. استدار مُستجمعا قواه ووعيه وخياله، فإذا القاهرة في وهدها قريرة قرارة الحكمة وتنتهي بانتهاء القبة الزرقاء.

وجاءته الرياح بجعجعة عراك السطح، فرصد أصحاب الكتاكيت والظنون بإثمها وفطنتها تتفشى بينهم كذرائع الشرور!

راقب العركة قليلا، ثم نبهه "شر البلية" إلى ما انتهبَ من الكتاكيت؛ فتحول إلى أشجار الكافور الفواحة العملاقة. توارى خلفها متنقلا من جذع إلى جذع، وقد أحدثت حركته الطارئة اضطرابا في الأغصان، وهب ما هب من الطيور وتجاسر ما تجاسر..

هجس بأذنيه وصوصوة تنتهي. طرح الحقيبة واستعرض أوكار الحِدَأُ المتأهبة. أعجزته الجذوع الشاهقة ولحاها الملساء كأنما أراد أن يتسلقها.

بحث عن الأحجار في تلاع[1] العصف والريش، ثم دار رأسه يرصد مظان الأوكار، بينما لؤلؤ الشمس الناضح من خلال الأوراق ومشتبك الفروع؛ يجفلُ عينيه ويعبب دمعه، غير أنه تمادى في النظر إليه حتى ارتطم بجذع، فقعد إليه يفرك عينيه ويعتصرهما، وإن أرهف سمعه لجمهرة الأصوات واستخابها وطغيان بعضها على بعض..

أحس هبت الطيور ففتح عينيه عليها وهي تتناطر مُحدثة اضطرابا شاملا، فيما كان ريح عارم يفوخ صوتها ويجرفُ صعيد الخلاء، ثم قصف عمق الأشجار قاشعا ما أرتفع من تلاع الريش والعصف، ويذروها في دوامة تميد مع منخفضات المرتفعات حتى اجتاحت السور ومن ورائه الوهدة الرحيبة..

تحامى بالجذوع مندفعا إلى دغل من نبات البوص يفصل قطاعا من الأشجار وينخفض إلى الشِعب المختصر لطريق القرافة. كن بمكمن يتخلل البوص وزمجرة الهوجة الهبوب تُزهق بقوة انبعاثها..

استرعى انتباهه حاجز من الأسلاك الشائكة بطرف المكمن. نصبت وراءه خيام ومعدات ثكنة عسكرية؛ فساورته حقيبة المدرسة وتأهب للخروج والتجمهر يعود إلى الأشجار، وسرعان ما شمل استخاب الطير الأعالي؛ فأحسه عجيجا للمرواح، أو فرحة نجاته الرهينة ببزوغ ضحى المدرسة القديم.

خرج من المكمن، وإنه ليخطو بين الجذوع؛ هاله ما كانت تخبئه تلاع الريش والعصف التى قشعتها الريح عن طيور مُمزقة كل ممزق. أجنحة، ورؤوس، وعظام، وهشيم بيض، وآخر مشطور، ومخاض مدمى، وآخر رخو.

---

[1] تلاع الريش: مارتفع منه.

عرف أجنحة كتاكيت السطح، ورؤوسها، ودماءها. جس دفئها إنها هي ناقرة صدره، ووجهه، وهي من هيبت وهلة نجاته كأنها وهلة نجاتها!

فيم أزاح المسامير عن أبواب العشش؟

وفيم كان يقذف بجثامين الكتاكيت حيث مهاب الأنتِهاب؟!

دونك أشلاء جثمان!

إن أحسست دفئها تذكر أن الحِدأُ انِتهبت حياته وأنت انتهبت موته!

الموت يصان كما تصان الحياة.

قالها من دكة المطالعات؛ إذ تعيد الكرة بالجثمان إلى المهاب، ولما انتهبته المخالب قال معاتبا:

- لو أن لك خيالا مثل خيال غراب "قابيل" ما أسلمته لتلك المخالب!

- وما خيال "قابيل"؟

- إنه خيال بحث في الأرض عن حياة توأم الموت. وذلك ما تحسر عليه "قابيل" بعد إهداره لحياة أخيه! الموت لا يبيح الانِتهاب!

لمح صخرة المدرسة والغراب ينعبُ فوقها:

ابحث في الأرض؟

وكلما بحث ووارى الأجنحة المنتوفة والرؤوس الدافئة؛ صادفه ما احتضر من الحضارة. قطع الفسيفساء والزهريات والقماقم والتمائم وفخار الأفران، ثم ضاقت به مواضع قدميه بين الأشلاء، وارتجف متوحدا "بسعيد" المجنون وهو يتخطى الناس متلفتا مذعورا من مس أجسامهم، أو جدران البيوت. كان يمس كل ما يواجهه ليترعُ ذراعه منه كأنما ينتزع رصاصة من جسد حي، ويتنكبه الهول والصياح

دون توقف:

"الدرب الأحمر كله مجانين وحراميه!"

أو وهو يدور دوره كاملة مع الهواء:

"الأرض كلها مجانين وحرامية".

أو يصيح وهو في مغطس حمام الدرب الأحمر:

"الحرب لا تنصر ضعيفا ولا قويا هو المجنون يا مجانين يا حراميه!".

وقد عرف من الحارة أن سعيداً أسر في حرب يسمونها النكسة؟

صخرة المدرسة هناك ينسلُ من باطنها غربان وطيور.

تجمهر، واستيخاب، وعجيج مروح، ووشيش "بابور"، وصياح سعيد، وصوصوة تزهق، وهتاف من دكة المطالعات:

"ظلم الحمامة كظلم الصقر والباز!".

هاهو الصقر يُصرصرُ.

رمقه والبصر في البصر؛ فكان مريعا كالظلم.

انكفاء على الأحجار؛ فوثب الصقرُ مخترقا قمته وسرى في عمق الأشجار رعب اضطربت له أعالي الأغصان وأسافلها، وتواثبت الطيور تباعا إلى الفضاء..

ركض إلى الحافة ودار رأسه مع الأجنحة الطموحة المُشوقة لشأو الطيران حيث تخفق في قبس الزرقة.

هنالك خيالك.

لا قوة ولا ضعف، وإنما حيوية خلاقة، وفكرة كفكرة النور والسحاب. مادمت صافات في قبس الزرقة؛ لن تموتى في صراع، أو غفلة وادعة.

صخرة المدرسة هناك كالذنب!

أثقلَ الرأس الطواف. أرخاه ومضى إليها حملها، ثم خرج من مُعترك

الأشجار وأكفان عصفها إلى حافة المرتفعات. استطلع السطح الخاوي على عششه وسارية علم المدرسة، وقعد قرابة ساعة يملأ وعيه بالمآذن والمنارات وببيوت الوهدة الموصولة بالقبة الزرقاء..

ثم نهض إلى برج المراقبة "قمقم الخيال" قطع الخلاء الذي قطعته هوجة الريح، ثم دار حول جدران البرج الغائرة إلا من جدار يكشفه المنحدر. طرح الحقيبة على زاويته واعتلاها محاذرا عمقه الذى وصف معلمه ما به من منافذ للرصد، ومدخل ذى درجات، والمسارج التى أشعل جذوتها على منافذه، وما أتمه من قطع اللوحات والزهريات وبلاطات الخزف..، وبكل ما امتلأت به نفس الفنان الذى صنع ترف الحضارة ملء نفسه، واستفزه خيال جعل من الحياة قوة أصيلة مبدعة ومن الحضارة نهراً؛ إذا نظرت في صفحته لم تكد تميز بينك وبين الطائر والناى واليراع، وإذا ما أُسقط فيه خنجر "هولاكو" أو خنجر "بيجن" فسرعان ما تتلاشى الدماء، ولا يبقى إلا نقوش المقبض الدالة على الفنان الذى أبدعها..

"سترى من سفح الذِروة الموت والحياة معا في جسد واحد بل روح واحدة هي القاهرة. وربما تضاءلت تلك الممالك والشواهد والآثار، أو هانت على كل قوة طرأت عليها، إلا أنها ستبقى دوما وجهة للحياة المثلى ومنهل خيال..

أيها الطائر! ليس للتاريخ قمم ولا أغوار، وإنما هم شهود عيان ذوو بصائر أو نفوس فاجرة، وبينهما تبقى الحقيقة لمن عشقها كما تبقى النقوش والخنجر في قاع النهر..".

لم يكن لحوض البرج عمق، وإنما ردم يعلو الدرجات والمدخل ومنافذ الرصد! وكما يقفز من درجتى سلم؛ قفز في محيطه المربع، واستعرض من وراء حائطه العريض أبراج السور وحتى جلمود الصخور

الحاملة للمئذنة الهيفاء الرشيقة. أطال النظر إلى بيت "سعيد" المُطل على برج عم كامل، وتذكر مشهداً كتبه في كراسة الشذور وقد استوحاه من سؤال سأله لمعلمه:

- لمن هذه الجنازة؟

- للشهيد عبد المنعم رياض.

- أو قامت الحرب؟

- إنها حرب الاستنزاف.

- ومن هو الشهيد عبد المنعم رياض؟

- إنه بطل مثال للتواضع والعلم، وهو قدر الشهادة ومثالها الذى احتاجت إلى استشهاده كما يحتاج الأبطال إلى الشهادة!

قال شاردا في "قمقم الخيال ":

- أنا سأكتب مشهدا بين القاتل والشهيد.

فقال يباريه ويحمسه:

- ومشهدي سيكون بين الشهيد وروحه قبل وبعد الشهادة.

أخذ الحقيبة من الركن وجلس مسندا ظهره إليه، ثم أخرج كراسة الشذور وقلب الصفحات على عنوان المشهد:

"صلاة الشهيد"

افتتحه وقارب يجرى في القناة بالشهيد والقاتل.

القاتل مرتاعا يتلفت:

- من جاء بى إلى هنا؟

الشهيد:

- أنا!

القاتل:

- وما هذا القارب؟

الشهيد:

- ذا قارب الشهادة.

القاتل والارتياع يهرصه:

- ولكننى لن أموت ها هنا!

الشهيد:

- قضى الأمر وجرى القارب!

القاتل صائحا:

- من يوقف هذا القارب؟

الشهيد:

- اهدأ فسوف يسير بنا في سلام.

القاتل:

- نيتى تحدثنى بأن لا سلام في هذا القارب.

الشهيد:

- لا تدع نيتك تعجل بك وانتظر!

القاتل متلفتا بجنون إلى حصون بارليف:

- لا، لن أنتظر..انتظر أنت!

الشهيد يصمت.

القاتل ينادى الحصون:

- أيتها الحصون، أنا ابن الشمال!

الشهيد صامت.

القاتل يستصرخ الحصون:

- أيتها الحصون، أنا ابن الجنوب!

الشهيد صامت.

القاتل كاليائس:

- أيتها الحصون، أنا ابن الرب!

الشهيد صامت.

القاتل بهدوء مُفاجئ:

- لا أحد غيرك يمكنه إيقاف هذا القارب.

الشهيد:

- من نوى الصلاة لا يعرض عن وجه ربه!

القاتل بانهيار مفاجئ:

- أنا لم أنو شيئا!

الشهيد:

- ألم تنو قتلى؟!

القاتل كالمتبرئ:

- هم الذين نووا!

الشهيد مرددا:

- الصلاة..الصلاة!

القاتل مداهنا:

- إليك كل ما أملك: مالي، ذهبي، قلنسوتي..

الشهيد يكبر...

القاتل باستهتار مفاجئ:

- صل أنت وربك إني ها هنا قافز!

ويلقى بنفسه في المجرى. يسبح قليلا ولكن لجة التيار تحصره في دوامتها. يصيح في الحصون:

"أيتها الحصون، أنا ابن الشمال، لا أنا ابن الجنوب، بل أنا ابن بارليف. أيتها الحصون، أنا ابن من؟"

وتشرق به اللجة، فيلتفت للقارب مناديا:

"أيها الشهيد.. قاربك.. السلام.. أنا أنوى!؟".

كان مستلقيا يتخدد الحقيبة، وطارحا ذراعين خاملتين كشراع سكن ريحه، وقد طوي كراسة الشذور على صدره وحلم الصخرة الجاثمة على الصدر الموحد الطهور يُخامره في وهاق[١] النعاس، ورفع أذان الظهر من مآذن شتى، ودق جرس المرواح مُطلقا زملائه خارج المدرسة، واستبق الجميع إلى أرجوحة المولد بساحة أصلم. تحاجزوا عند الأحصنة الخشبية، ثم امتطاها من غلب، فيما اندرج الآخرون في سائر العربات..

ودارت الساقية على قراع الطبول ومطاولات التنابذ.

الكل طائر إلى الكل، وما الغمرة والتراشق وطموح الغلبة وجعجعة المُحاجَزَة ورُغائها[٢]؛ إلا أجنحة توحد خيالها المبتهج بنسمات المرواح وبتلك الوقفة؟ "وقفة الخطر" التى طالما هب لها هو وضياء؛ ليتناوبا أظهر الأحصنة مُتجاسرين على دوار الساقية وتحذيرات "شعلة" مراقب الأرجوحة، وكما يُسلمان طائرتيهما لقوة الهواء؛ أسلما نفسيهما لقوة الخطر حتى انزلقت قدم ضياء فكانت "وقفت الذكرى الباقية" التي خلدتها أم وجيدة بنواحها إذ تواسي عم كامل ونبوية ابنته. ناداه:

– ضياء تشبث بحبل الطائرة!

فلفه على معصمه وعبرت به الطائرة أشجار المرتفعات.

وفوق شواهد القبور تراءى لهما الحبل مربوطا في مخلب الغراب! ناداه:

– ضياء، احذر خفقة الجناحين!

شعر بشدة خفقهما، ولكن ريشهما انبث فبدا من شدة سواده

---

[١] الوهاق: حبل تأخذ به رقاب البعير.

[٢] الرغاء: جعجعة الفحل.

كخفافيش تصعد إلى وميض اللؤلؤ، وتخنقه مطبقة على وصوصة ضوئه المنفلت. ناد ضياء؛ فأجابته بنات الماء من أدنى صخرة المدرسة:

- من لم يخلد لحظة الخطر خب نوره بخبوها!
- طيور المرتفعات فظيعة!
- دونكه مرتفعات العلم.
- إكاروس لم يصعد إلى مصيره إلا بالمعرفة!
- ولكنه صعد إلى حيث نهاه أبوه!
- فيم جعله الملك "مينوس" هدفا للموت بين الماء والسماء؟
- للقوة مرتفعات جائرة!
- وللضعف أيضا قوته الجائرة، الكتكوت قتل دودة السطح والحدأة قتلته!
- انظر إلى وميض اللؤلؤ.
- ضياء في ربقة السقوط!
- انظر إلى اللؤلؤ.
- الريش أسود كالخفافيش!
- من لم يخلد معها خب ضوءه!

يوم تلو اليوم، أضحى للخطر خيال، وللشجاعة قمة.

أما الحرية فكان لها إثما كإثم الهروب من المدرسة.

كان إثم الحرية يحوز روعه وهو بحافة المرتفعات يتناهى إليه أذان الظهر من مآذنه الشتى؛ فيحسه نذيرا بالمرواح ويتهيب ضحى الهروب الجديد، ولكن سحر ما احتضر من الحضارة كانت حوزته أكبر من حوزة الإثم وحوزة الحرية؛ لذلك كرس الهجرة الأولى للهروب في التنقيب عن قطع الزهريات ولوحات الجص وبقايا الفخار والمسارج والفسيفساء، وتمائم التعاويذ، وقمائم العطور.؟

كانت لذة العثور عليها هي بعينها لذة بنائها.

نشوة سارية في أعصاب الخيال، تفاجئه خلالها الحضارة ماثلة مزهوة في دورة من الحنين إلى سكرة المجد التي ارتشف الخيال فحوى خلودها.

سمع من يقول في ندوة السطح:

– الله كلمة الحضارة تجلت على رمال قاحلة حول الغار؛ فانبجس الماء الطهور. كن قطرة ماء للوضوء وانظر إلى زهرة الجبل مُصغيا لنورها وهو يسبح بالجمال، فحيث يكون نور الجمال تكون كلمة الحضارة ومنابتها.

رفع ذراعه وراء الطبلية بقطعة فسيفساء يتساءل:

– أليس هذه كزهرة الجبل؟

استقطبهم التشبيه ممن يصفونه:

بمعرفة "كانط القبلية" تساؤلاتها براهين، وتعليلاتها مطلقة؛ فالسؤال عن الله إثبات لوجوده، وهى مطلقة لأن فكرة السؤال أكمل من فكرة الإجابة.. تبسم معلمه قائلا:

– هي كزهرة الجبل.

قال محروس مستعرضا المرتفعات بقطعة الفسيفساء:

- فيم دفنت فوق؟!

حدبته نظرة أحدهم وقال:

- لم تجد خيالا يعطف عليها!

- أو خيالا يسبح بجمالها!

- بواعث الجمال مصدر كل قوة في الحياة.

- وبواعث العطف مصدر كل جمال.

- نعم، قطرة الوضوء جميلة وأجمل منها قوتها المفجرة للصخور!

- باني الحضارة ليس كمن يسبح بجمالها لذلك سبق التسبيح البناء!

سألهم:

- فيم احتضرت تلك الحضارة؟

استعرض أحدهم المرتفعات بذراعه مثله وقال:

- هذه آكام وراءها ما وراءها؟ وليس في باطنها إلا سياسة "حريم القصور" أما باطن واقعنا فليس إلا سياسة "شيوخ الخيام"!.

ثم انهارت على ألسنتهم دول، وعروش، واغتيل من شئت، ومن لم تشأ من الخلفاء والوزراء والقواد، وضربوا مثلا بالوزير ابن العلقمى السنى الذى استباح ابن المستعصم الشيعى كل ما يُصان من الحرمات: عرضه ونسله وشيعته ومقدساته!

- لا تصدقوا أن خيانة ابن العلقمى هي التى فتحت أبواب بغداد لهولاكو؛ وإنما تلك الأبواب فتحت مذ انفرط عقد القطرة الطهور على أسنة الترف المهدر لقوى الحياة الدافعة، والمهلك لقوى الحضارة القائمة!

ونظر آخر للمعلم كأنما يردد عبارته:

- كل الذين قالوا ابن العلقمى فعل هم الفاعلون. الخنجر والنقوش بقاع النهر لمن أراد الغوص؟

ولما ضربوا مثلا بسياسة "حريم القصور"؛ أرخ محروس يوما جديدا للهروب، وصعد المرتفعات غامدا بعروة سرواله خنجرا خشبيا نقش فراغاته عشم النجار صانع النعوش لعم نحمده، ثم تشمر لقماقم العطور ونقب عنها في مخلفات الأفران وبقايا القصور، واستخرجها أنصافا وأرباعا وجذذا، ولما كان الخيال كاللعب لذة مستغرقة في التعب؛ هبط إلى محيط البرج وهو يستجمع صور مشهد، قد توارد معظمها في مخيلته أثناء التنقيب.

أخرج من الحقيبة كراسة الشذور والقلم، واتخذ من مسطح الجدار المقوض منضدة.

استهل المشهد وخليفة من الخلفاء منضويا[1] إلى عامود من أعمدة قصره، وكان شغله الشاغل أن يستأثر بتركيب عطر يدق شذاه، ولا يالتبس بعطور من يطمعون في الخلافة، ويجعل الخليفة ييأس، ويرتاب، ويسئ الظن، ويتوجس من ظلال الأعمدة حوله ومن وقع أقدامه كأنه يجهل أن له أقدام تمشي.

ثم يُخرج له من بهو الحريم نعامة مُعلق برقبتها قمقم عطر الخلافة، ويجعله يصدق أن النعامة مبعوثة الغيب ولكن الغيب أيضا يريبه؛ فيستطلعه متواريا خلف الأعمدة وكلما أراغت[2] النعامة ظله وهو يذهب هنا، وهنا؛ تنام تصديقه بأنه الخليفة المختار وليس أحدا سوه.

ويُختم المشهد والخليفة ناسيا للغيب شغوفا بالنعامة، وكما أراغت النعامة خطاه وظله وذهابه يمنة وشمالا، أراغ هو خطاها وظلها من عامود إلى عامود؛ حتى اندس ورآها في بهو الحريم.

---

[1] منضويا: ملتجأ.

[2] أراغت: تتبعته.

ويُستهل المشهد الثاني وجارية من مجلس الحريم تقتعد ظهر خصي بنافورة البهو، وتغطسه طالبة منه أن يكتم أنفاسه في الماء من أجلها؛ زمنا أطول مما كتمه للجواري السابقات، ثم يدخل الخليفة ويتصدر البهو ووجهه متغضن بأمارات الهم. يهيئن المجلس للتسرية عنه؛ فيبثهن همه قائلا:

- لم تقل لى واحدة منكن كيف ندرب أنوف الرعية على عطري الذي كشفه الغيب؟

قالت حاملة الدف:

- ما الرعية إلا نحن يا مولاي!

ونهضت آخرى تقبل نحوه وتقول:

- وليكن أنفى أول أنف يُدرب على عطر مولاي.

تقطع حاملة الدف عليها السبيل قائلة:

- بل دعى مولاك يطوف على رعاياه بعطره.

وعلا صوت رزين قالت صاحبته:

- الرأي يا مولاي أن تخرج إلى رعاياك الحقيقيين؟

فأسكتتها الناهضة:

- و لم لا تأتى الرعية إلى مولاها؟

فتضرب الدف حاملته قائلة:

- هاهم يامولاى إلى الدف والناي!

قالتها والخصى يشق ماء النافورة قالبا الجارية، و يخرج من الحوض وهو يكاد يزهق؛ فيهتف بهن الخليفة:

- أنتن هالكات هذا؟!

وترعت واحدة بخفة صوب الخصى، واستنهضته قائلة:

- إليك مبعوث الرعية يامولاي!

فتفحصه الخليفة كما يتفحص هواتف الغيب، وأومأ لهن بإفاقته، ثم كمش إزاره إليه وسأله:

- كيف ندرب أنوف الرعية على عطري؟

قال الخصى:

- وليكن عطر صاحب العزة هو عطر رعاياه!

استملح الخليفة رأيه وتفكر فيه، ولكن وجهه تغضن بالريبة والتوجس!

سأله مستنكرا اقتراحه:

- ألا تعلم أن النعامة جاءتني بعطر العناية الإلهية؟!

لمح الخصى قدم الخليفة وقال:

- عناية الرعية من العناية الإلهية.

قال الخليفة بلهجة حاسمة:

- ماذا تقول في عطر النعامة؟!

يستفزه صمته فيزجره:

- عطر النعامة أم عطر الرعية؟!

يضيق ذرعا بصمته فيتوعده:

- صوتك أو عنقك!

فقال الخصى مُستجيراً بوفاء الأمانة:

- قمقم النعامة فارغ يا صاحب العزة!

فيقبض الخليفة على القمقم المعلق برقبته ويصيح به:

- إنه الظن أكذب الحديث!

يقول ورأسه يهمُ إلى رقبة الخليفة:

- القمقم بيد صاحب العزة إن وجدت فيه عطرا؛ فرقبتي فداك.

فيصيح به:

- أنت عدو الغيب!
- ولكنني صديق صاحب العزة.
- وجهك سوف يطاردني ما بقيت حيا!
- إنني رهن مشيئة صاحب العزة.
- أنت عدو الحقيقة!

ويُختم المشهد والخصى حبيس قمقم يُماثل قمقم النعامة، وقد أحاط به مجلس الحريم متمايلات ضاربات الدفوف مرسلات نغمات الناي! بينما الخليفة تسنم ظهر النعامة، وراح يطوف من وراء حلقة الحريم حريصا على ألا يتراء هو والخصى بتاتا، ويخطر له وفائه؛ فيهتف به:

- أنت عدو الحقيقة، أنت عدو للغيب!

ويفتتح المشهد الأخير وزمر الطيور تترادف في الأشعة الخابية يقودها طائر الحضارة وفي عينيه عزم الهجرة ويَصْدَحُ لسانه:

"والخيال كالوعى حين يزهد في الحقيقة يتوحد بها!"

فتجنحُ زمر الطيور إلى طنين من دفوف الدراويش، وكرقعة من أسواط الجلادين، وعطور بعدد الحريم والقصور. جميعها تتصوب ببرج بابل المعلق، وقد أطلق الوزير من شرفته البومة البيضاء؛ فمرقت ناعقة ببشائر كغوارب من قطع الليل؟ ثم نطف ثغرها القطرة الطهور على أرض غير الأرض، وببقعتها توحد الخيالُ بعبرة كالعماء تشبه الحقيقة؛ فمثُل محروس أمام هولاكو كأنه المستعصم في ذلة الخشوع، ويستثنى من خشوعه عينه المنكسرة على إزاره المزين بقماقم العطور!

جاءه صوت هولاكو:

- بم هزمت أيها الخليفة؟
- إنه الكسل يامولاي!

والزهو يزهو فى صوته:

– وبم انتصرت أنا؟

– إنه طموح المغامرة يامولاي.

ولهجته متصاعدة تلمزه:

– من الذى أخفى سبائك الذهب الأحمر؟

وعثرة المباغتة توقعه فى عثرة الكذب:

– إنه الغلام " بُهْصُوصُ[1]" يامولاي!؟

ولهجته تتوعد الكذب:

– ومن هذا "البُهْصُوصُ" أيها الخليفة؟

يتجأجأ مُتهتها:

– إنه اسم "الدلع" لى يامولاي.

ينادى هولاكو على الوزير.. يدخل وبشماله البومة البيضاء. يسأله هولاكو:

– ما أمثل عقاب يستحقه الغلام "البُهْصُوصُ" أيها الوزير؟

ينحرف طرف الوزير إلى قماقم العطور قائلا:

– جرده من الإزار يا صاحب المنعة!

يشيل المستعصم برأسه من ذلة الخشوع متوسلا:

– إلا قماقم الحريم يا مولاي، فما اطلعت عليهن شمس ولا قمر!

---

[1] البهصوص: هو ألاشيء.

تتباعد أيام الهروب من المدرسة، وليس في دنيا المرتفعات، أو دنياه في المرتفعات، إلا مسارب العطور، ودفوفها، وأسـواطها، وغبارهـا، وغوارها.

ويهبط من ذِروتها؛ ليداوم على تدليك جسدى المـرأتين بزيـت الكافور، أما جسم جدته فمتهدل خمول تفتر فيه الحياة كأنه يشيح عنها بأهدابه المتكسرة في تغضن عابث.

وما أدراك ما الآخر؟ جسد لدن أمرد لم ينقص و لم يزد مذ استوى على نضارته. هو وروح صاحبته سواء. الغـير لا تعتريـه ولا دبيـب السام[1] إلا أنَّ يكون الموت ذكرى تدب دبيبها الأَبيد في أوصـال أم وجيدة، هي نفسها تقول:

"الموت أبد الحياة وباب رحمتها! يظل القلب على غرارته حتى تأتيه غُرَةُ المنية!"،

وطالما سمع غنتها:

"يغيض[2] الماء والسام لا يغيض؟!"

جسم نعومته براقة لا تغمض عنها العين. تمطره الأحزان؛ فتتركـه صلدا بلا تغضن. يرفع أصابعه المنضغطة في ليونته؛ فيتـورد في ميـساء خلد، بينما جسد جدته يشحب ويتكرمش!

هذه يُجبر أوصالها التدليك، وتلك يسرى التـدليك في أعـضائها سريان الموجة في البحر، والتيار في المصباح.

جدته تخمل ويجذبها النوم إلى تفتر الرقاد، وهى هجود[3] تجـذب

---

(1) السام: الموت.

(2) يغيض: يذهب في الأرض.

(3) هجود: أي ساهرة بالنوم.

النوم إلى صحو النبآت!

ولم تكن مقارناته هذه إلا استلهاماً لأنوثة سوسن الرافلة في ثوب الطفولة. في عينيها حور جدته، وفي وجهها ديمومة النضارة في أم وجيدة، إلا أن تعاتبه فهى فراسة أمه:

– فيم يأخذك الهروب؟

– وأين الأغصان؟

زميلة الفصل المتندر بتجمده على قمة الواحد. صورها الخيال أمدا طويلا "قمقما للقلب"، تذيع نشرة الطابور كل صباح، وتتلو مأثوراته من الحكمة والشعر. وجه متورد هو الزهور تتنسمُ أريج النور.

يَبدرُ ثغرها بفضول برئ كأنه صبو الأنوثة اليانعة. سبحِها بين الآلات في حجرة الموسيقى، ولا سيما استواؤها على البيانو؛ جعله يُصدق كل ما سمعه عن بنات الماء، وعدها واحدة من هن تحوم بصخرة المدرسة بين أشجار الكافور، أو سابحة بين أوتار البيانو كنغمة من نغمات عزفها السهل الرشيق، وفى المرسم كان لهما مساجلات ومغازلات رمزية..

رسم اسم الإشارة "هذه" وقد جوف حرف الهاء وأوسعه لمكان بيانو ومقعد غابت عنه صاحبته، فتبسمت متناولة كراسة الرسم، ورسمت اسم الإشارة "هذا" وقد أظلمت حرف الهاء إلا من نقطة بيضاء تطوق رقبة طائر لا يقوى على الهروب!

كان ينثر لها أوراق الكافور في العصاري والمساء، بكل موضع تكلما عنده داخل المدرسة، حتى صباح يوم الهروب قد تجدها على البيانو، أو بدرجها، أو في مقبض الميكروفون، أو حجرة داده "نعيمة"، ولا تدري متى؟ نثرها وكيف؟ وظنته يستعين بزميلهما "أكرم"، ولم يخطر ببالها إنه يستعين بعم بيومي حارس باب المدرسة. بلديات جدته

ومخبرها الخاص، يُعلمها هو أو زوجه بأخبار البلد والمدرسة وتحابيه الجدة، وتعده وأولاده من أهل بيتها، ولا تسهو عنه في موسم أو مولد أو صدقة أو نذر، وكلما سنحت سانحة من النذور فكر محروس في مُفاجئة سوسن بأوراق الكافور حيث يضعها في مواطن الذكرى داخل المدرسة. كأن يقول لجدته غير منتظر قدوم امرأة عم بيومي إلى البيت:

– دعيني أُدخل الفرحة في قلب عم بيومي!

فترسله بلفافة اللحمة سارحة في شطحات خياله، وقد كانت فرحة الرجل بالنذور، والهدايا، وبكل ما يوصله محروس لديه؛ عونا للطائر والزهرة أن يتواصلا على جناح الهروب، وبينما كانت امرأته تدعو للكريم ابن الكرماء، كان زوجها يلاحقه بصوته:

– إلى أين تذهب؟ الباب من هنا! هل أوحشتك الفصول الفارغة؟ ليس هناك إلا رهبة الظلام!

وما رهبة الظلام من رهبة الجنان؟ ترياق الجسارة، و ثم مواطن روحها سوف يزورها و ينثر بها أوراق الكافور، ولن يرهبه الظلام أن يجلس على البيانو أو في حجرة المرسم، وتتباعد أيام الهروب ويحتدم بالصبو شوقه؛ فيترل من المرتفعات مُختصرا الطريق إلى بيتها من درب الصياغ، ويجلس على إحدى مصطبتي مسجد الماردانى، و قبيل المرواح يدخل البيت ويضع بنافذة سلمه ورقة كافور هي ميلاد يوم جديد من أيام الهروب. فيوافيها عطرها قبل أن تتفقدها بعينيها، وتأخذها منطلقة إلى حيث ترصده من خلف شيش الشرفة، وعلى حين غِرة تظهر له و نظرها كهديل حمامة، وقد يشير ذراعها إلى مدخل البيت؛ فيمتثل كتمثال خجول إلى أن تترل مُشهرة ورقة الكافور، وتسأله:

– ألهذه الوريقة تهرب؟!

فيقول:

- إن صعدت إلى شرفة المئذنة سوف تدلك على أشجار الكافور، كما استدل بالمئذنة على شرفتك وأنا بين أشجار الكافور!

قالت وعينها على هديلها:

- لا تذهب حتى أراك ثانية من الشرفة!

وبين أيام الهروب يدق جرس "الفسحة" فيختلس معها وقفة عابرة.. يُسلمها هدية عيد ميلادها ويتركها كأنها لم تكن معه ولم يكن معها، ثم يتسلق سلم السطح الحديدي والمثبت بجدار حجرة تلي المرسم، ووسط السطح يدور مع طلاق الأجنحة الطموحة والمُشوقة إلى قبس الزرقة، وقبس الجنان.. نادى الحِدَأُ:

"ها أنا ذا كتكوتك "،

وتزعزع قلبه ومخالب صوتها تشكره و تقول:

- إن غيبك الهروب فهديتك معى في الفصل!

استدار وقلبه يهوى في سُقاطة البوابة المحروقة، وكما حولته تمثالا على حين غرة؛ فعلى حين غرة لثمت خده مُخلية له سطح المدرسة. استقبل أفق المرتفعات كطائر برى يصدح لبنات الماء كأنما يستدعيهن من أشجار الكافور إلى سطح المدرسة:

هي نبض الخطر، وقمقم القلب، ووهلة دقاته. تدق للبشر والنذير، والسكون والمطار، وتحفظ للطائر البرى دقات العودة ولكن إلى غير غصن!

- فيم يأخذك الهروب؟

- وأين هي الأغصان؟

انقطع الماء زُهاءُ عصر؛ فبرح عم نحمده حوش البيت "بـــالجركن" عسى أن يجد ماء في حنفية ساحة الباطنية، وقد أبقى حيلة وحده مـــع صديقه المتوفى المُعدم. "نبوي" مقرئ القبور والموالد من ساعة، والمدرج آنفا على خشبة الغسل! أبقاه مغموما يتكمه[١] ويتعمه ولا يقر له قرار من الخشبة إلى الدهليز إلى الحارة في حركة دوارة، أو يفعل ما تفعله أم وجيدة ويرفع البطانية عن وجه نبوي ذاك الشبيه بقرين القبور من طول مكوثه بين الشواهد مرتلا ومنشدا ومبتهلا ونائما، وإنه ليداوم النظر في خشوع ملامحه عكمه[٢] النوم؛ فأناخ له باركا حيال خشبة الغـــسل، و بلوعة الفراق زحزح عبال جسده مُتمددا أسفلها، وما لبـــث أن سمـــع نبوي يرتل:

"ففتحنا أبواب السماء بماء منهمرٍ"؛ ففتح عينيه علـــى "جـــردل" الغسل وتزحزح مرة أخرى من أسفل الخشبة، ثم تناول الجردل قاصـــدا ثلاجة "مينا" البقال، فيما يلي الحارة. حاز الجرد ل على فم الـــسدادة، ونزعها، ولكى يشعر مينا وامرأته بوجوده برطم بغير شـــيء، فقالـــت المرأة:

- ماذا أخذنا من لسانك يا حيلة؟ أرنا وجهك!

تحرك بمقدار خطوتين تفصلان الدكان عن الثلاجة، وكان الاثنـــان يفهمان رغباته من عينيه وليس من لسانه. فنظـــرة الـــسجائر غائمـــة، والجبن والحلاوة خمصى، والشاى والسكر مُلهوجة، والعسل الأســـود منشكعة بالابتهاج، ونظرة الخبر السار كنظرة الموت قلقة خجلى، ومن ثم قالت له المرأة:

---

(١) يتكمه ويتعمه: لا يدري أين يتجه.

(٢) عكمه: لجمه والعِكام الحبل الذي يشد به البعير.

- ما جرى لك يا حيلة؟!

وكمن ينفض السهو عن امرأته أشاح مينا بذراعه قائلا:

- حيلة يخبرنا بموت نبوي!

تغاضت نظرة حيلة عنه إلى الثلاجة؛ فضربت مفيدة كفها في الهواء متذكرة ولعه بالمثلجات قائلة:

- يخيبك يا حيلة! أليست الثلاجة قدامك؟ والله ما يد بأطول من يدك على قواريرها!

وتهكمت مخاطبة زوجها:

- فض له المغاليق عن الثلاجة المفتوحة؟

ولكن تدقيق مينا في عيني حيلة أخرجه إلى الثلاجة وشاهد الماء ينسكب في الجردل، ويطف برقائق الثلج؛ فحسبه سيسقى الأرمد من ماء الثلاجة.

قال يحذره:

- ألا يكفى رصاص البرد؟ حتى تبلى الأرمد برصاص الثلج!

برطم حيلة فأسكته مينا ضاربا الهواء في وجهه قائلا:

- لا ذنب له يا حيلة!

واستعطفته مفيدة:

- الماء عندنا فوق يا حيلة، ارحمه!

صمَ فم الثلاجة بالصمام، وسحب الجردل واعتدل مخاطبا كليهما بعبارة كلجن العجين في جرة؛ إن قيست بالعبارة السابقة، ومعناها:

"أن نبوى دله على الماء!".

حمل الجردل، وجاش مثقلا بعبال الهم، وعبال لحمه إلى حيث يُكرم قعيده في العزوبية، والعفاف، والمدافن، والموالد، و العقائق، والحضرات، وحيثما تلا نبوي القرآن. عطَّر الماء وحركه في الجردل حتى

ماعت[1] رقائق الثلج، وتعطر الحوش، ولما شرع في الغُسل والتقى مـــاء الثلج بالجسد الواهي المنحول؛ تصاعد بخار توهم حيلة أنه بخار المغطس في حمام الدرب الأحمر، فانتحب ووارى السوءة التي لم تُهتك حيـــث تعرى حيلة والرجال على مسافر الحمام.

وهل هتكت في فراش امرأة؟ وابتهل له الخشوع في ملامح نبـــوي حتى راعته صأصأة[2] عينيه المغمضتين، وأرتعاشهما؛ فجذب البطانيـــة طامراً وجهه غير صامد لغفق الانتحاب. أناخ مزحزحا عبالـــه وتمـــدد أسفل خشبة الغسل، وكأنما نام حيلة في أسافل مجهولة لمن كان نومـــه كنوم حماره؛ حتى أنه قد ضُرب على أذنيه ولم يسمع نداء البدوية الحاد الملوم وهو يتوالى من الشباك مدويا في الحارة:

"يا حيلة يا وخمة الدنيا! قم يا موخوم. أنت في الوخمة ونحمـــده في الوحلة!"

تقصد وحلة حنفية المياه بساحة بهادر.

كان منظر زوجها اللاهث المجهود وهو بطُرة[3] الحارة، يـــستريح إزاء "جركن" الماء قد حاد بسجيتها الودودة مع حيلة. تحامل عم نحمده واستأنف السير بالجركن، ومتصديا لنداءات زوجه، إما بإشـــارة، أو كلمة، أو إشاحة، ثم تدلى إلى الحوش ليجد حيلة أسفل الخشبة يـــرتعش مناديا من الحلم بفصاحة نادرة:

- يا نبوي، اقرأ السبع المثاني؟

هالته الشبهات. الماء المتقاطر من خشبة الغسل، والمـــاء الملتـــوت

---

[1] ماعت: ذابت.

[2] صأصأ: حرك عينية مغمضتين.

[3] طرة الحارة: ناصيتها.

بتراب الحوش، والجو المعطر، وحيلة نفسه الغارق في البلل، ونداء نومه الخفيف الذي استحال إلى نوم أهل الكهف:

"يا نبوى! اقرأ السبع المثاني".

هاهو الجردل فارغ. إذن الماء ماء الثلاجة كما أخبره مينا، وتعجله في إدراك الأرمد وليس نبوي. تمنى لو يُذمـذمُ الـضحك في صـدره كالرعد. هو الذى يدخرُ الضحك لغيره من الناس ويصدق أمثال الناس:

"من ضحك ونفسه يُظن بعقله الظنون!".

ويقول لهم:

- من يُضحكنا كمن يُبكينا مخلوق "رباني" أما الـذى يـضحك وحده فهو كالذى يموت وحده. أثرة أنانية من أثرة!

ولكنه القائل:

"في الدنيا ضحك كثير كالدواء، لا يتعاطاه إلا مـريض، وعنـد الإسراف العطب!"

شبهات معروشة بيد هذا الذى اختار لغفق نومه مكانا يُـضحك ويبكى أزواج سفينة نوح المتسألة في شعر حنفـي عـن "حبيـب" أم وجيدة؟

وما هذه النسائل المتبخرة والمحيطة بخشبة الغسل؟ وأخـرى دقـت كأنها ضلالات البصر تعرج فُرادى من نـسيج البطانيـة وحواشـيها. ضلالات كشعيرات اشتعل شيبها. استعرض وجـه حيلـة وجـسده المبلول، وحسب أن النسائل المُتبخرة المتجمعة حول خـشبة الغـسل مصدرها منخريه وحنكه المفغور، بل وجسده حارق الغرائز بوازع من الغرائز؛ فغض الطرف عن جسد عارم بالأنوثة واجب أبوي، فهو كأبيه آدم أب لجميع النساء، ويسترجع له نبوى آيات خلـق آدم فيـستعبر ويقول:

"لو كنت مع أبي لأكلت من الشجرة! "

ناداه عم نحمده؛ وإذا بحيلة مُغرورق الجحوظ، يتغاضى عن سقف خشبة الغسل المتقاطر بعطور الجسد المتبتل الخجول. تزحزح عن سقف الخشبة بأثقال الغم والعبال، وتناهض هموداً كفيل يُضعضعُ أركانه الخمول.

شخص لحجاب الموت بوجه نبوي وشرع في هتكه ورفع البطانية عنه، ولكنه فزع وخُطفَ قلبه من صدره والبطانية يهتز باطنها، ويصدر عنها غُنات[1] تلاوة خافتة كنغشات[2] الموات، أو العودة من غشيته. تناهت إلى عم نحمده؛ فقدم إلى الخشبة، وببلاهة حمارين كما قال:

"استوعبت أنا وحيلة أن نبوى حي! "

وقال:

"تغاضى حيلة عما شاهد وسمع واستجار من خبل النوم بثوبائه، وتواصل خوار التثاؤب حتى مضمضه[3] النوم واقفا، ولكنني طرقت ظهره طرقة الحديد الساخن قائلا:

"نبوى حى يا حيلة!"

تماوجت البطانية من أقصاها إلى أقصاها، وتصاعدت غُنات التلاوة متعاقبات متحشرجات، وكمصارع أرواح نزع حيلة البطانية، وإذا بنبوي زائغ البصر يرتل:

"لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ".

حسبها حيلة حشرجة الحلقوم؛ فالتزم أذنه يمليه الشهادة.. سأله نبوي:

---

[1] الغنة: ترخيم الصوت وخروجه من الأنف.

[2] ونغش: تحرك بعد أن غشي عليه.

[3] مضمضه: دب النوم في عينيه.

- أين أنا يا حيلة؟

وتكزز متقبضا مرتعداً يبتهل:

- يا ملائكة الرحمن! نحمده نقض غسلى بالثلج!

طوقه حيلة مقيما نصفه، وأحكم البطانية عليه، وبنظرة طويلة مستطيرة، استنجد عم نحمده، فثبت هذا لرجعة الموت أيما ثبات، وما ارتاب في أن خشبة الغسل من الساعة، وحتى وفاة نحمده، ستكون مسرحا للضحك. قال مستدرجا نبوي إلى مساجلة مرسلة:

- دفنتك عسيرة، عسيرة يا نبوي!

سأله وهو يكز بين أصلاب حيلة ويشطر بصره بينهما:

- أين أنا يا نحمده؟

- لقد أخطأنا قبرك!

- أنزلتنى قبر من؟

- قبر الخديوي!

فيبتهل:

- يا ملائكة الرحمن!

فيعيده إلى الآخرة:

- ما أعسر دفنتك!

يعاتبه وصوته منسحب في الحلقوم:

- بل ما أعسر خطأك يا نحمده!

فيحرض نفسه اللوامة عليه:

- بل ما خدمت القرآن حق خدمته يا نبوي!

كالمبتهل:

- أخرجني من تراب الملوك يا نحمده!

ثم كز[1] كزا مميتا يتقبض بروحه، فجاش حيلة وقصفت حنجرته عبارة معناها:

"الروح تنـــزع من عظام نبوي!".

فأشفق عم نحمده قائلا:

- لفه بالبطانية واصعد به إلى حجرة الطاهر حتى أرجع بالـــدكتور دسوقي.

---

(1) كز: رعد وتقبض وتيبس من شدة البرد.

بريح أعتى من أكاذيب أبريل تطاير النبأ "برجعة" نبوى كما تتطاير حبوب اللقاح، ومن ثم أخصبت أخيلة وشُحذت ألسن؛ مُمحضة أسطورة وعى منها الناس حنينهم إلى ذكرى سحيقة كأنهم ذاقوا ثمرة الموت وهي هنالك على شجرة الخلد!

الكل يغره ذلك الحنين وتلك الثمرة، ولكن هل عبئوا بما يكون بعد "الرجعة"؟ أهى حياة موصولة بأصلابهم؟ أم موت بعده بعد؟

كالأحياء بدا نبوى على فراش الرجعة!

وكنكتة قائمة بذاتها، أى مستقلة عن نكتة إحيائه بالثلج، بدا في كسوة نحمده المتضمنة طاقيته البيتية الشهيرة والكوفية، وذلك ما عمل له عم نحمده مذ ثبت على خشبة الغسل وحتى برز إلى جواره على فراش الطاهر بنفس الطاقية والكوفية والجلباب؛ فألهم كبار الحضور وصغارهم فنون التنكيت.. تهدى إليهما "جميل" طفل مينا وبسط كفه بينهما يسألهما:

- من منكما عفريت نبوى؟

فقال نحمده:

- لا أحد يعرف غير نبوي!

لوح الطفل لهما مسائلا:

- ومن منكما نبوى؟

فراوغه:

- لا أحد يعرف غير عفريت نبوي!

فزجره بإصبع السبابة قائلا:

- أنت من؟

فقال:

- تعال بكره وحدك وأنا أقول لك!

فتحول إلى نبوى وزجره بنفس الإصبع قائلا:

- أنا الملاك، واني أسألك من أنت؟

كز تقبض الضحك نبوي وهو مزمل بغطاءين؛ فيما قام مينا إلى طفله ورجع به إلى حيث يجلس، كأنما يستنقذه من ضجة التضاحك، أو لعله يعفى نبوى من جهد الإجابة، ولكن نبوى قال لمينا، وقد نظر إليه مليا:

- كنت تسألني في القبر مرارا عن دين الزيتون والجبن!

فقال مينا ماسحا ابنه:

- خذوا أموالكم من بفأل عيالكم!

وتضاحك وقال:

- إن سألك ملاك الحساب عن اسمك؛ فقل له أنا نحمده وليس عفريت نبوي!

قال زميل مقرئ كفيف:

- وإن أرتاب الملاك فيه؟

قال مينا:

- يسوقه إلى فأنا أولى باللحم ثوري!

قال تمرجى الدكتور دسوقي:

- يسوقه إليك أم إلى الثلاجة؟

فأجاب عنه عشم النجار:

- بل يسوقه إلى ابنه الأريب!

قال التمرجي:

- ابن مينا مشغول بالعفاريت والملائكة، وليس البشر!

قال المقرئ الكفيف:

- إذن، سيبقى الارتياب قائما كما أراد مينا!

قال مينا:

- مينا لم يرد سوى أن يدفع نحمده ثمن الجبن والزيتون على يد ملاك.

كان لضحك الرجعة وتوابعه مذاق الحنين إلى استدامة الحياة؛ فاسترسلوا في حاضرها.. وسأل المقرئ نحمده مشيرا إلى نبوي:

- بالله عليك ألا يُشبهك؟

فنسوا جميعا أن المقرئ السائل كفيف، إلا إنهم ضجوا بالضحك وعم نحمده يسأله:

- وأنت شايف إيه؟

فقال يقرظ نحمده تقريظ العميان:

- هو أنا أشوف أفضل منك يا نحمده!

ضحك نحمده من قلبه، وأراحه قليلا ثم قال:

- ما أشبه نبوي بنصفي الشمال!

فسأله مينا:

- وإن خلع الطاقية؟

فقال على الفور:

- سأكون أنا نصفه الأيمن!

وكان حيلة قد ذهب لإحضار هلاهيل نبوي من حوش قرافة أقام فيه زمنا بجوار مدفن الأسرة المالكة، ولما رجع بالكارو وقف على الثلاجة، وأخرج منها زجاجة مثلجة فلم تمهله "مفيدة" وخرجت من الدكان تقول له ومن خلفها بدا أكرم ومحروس:

- رجعة نبوي وقفة علينا بخسارة يا حيلة، أو كلما مررت بالثلاجة فتحتها يا حيلة؟!

وضربت الهواء بينهما بكفها قائلة:

- وإن شاء الله، متى تنسد حنفية الزجاجات التي فتحها علينا الموت الكاذب؟

فقه حيلة وهو يفتح الزجاجة بأسنانه، وشاركه الاثنان كتكتة[1] الضحك، ولنكه شخصا إلى هلاهيل نبوي، وبعبعت حنجرته مخاطبا أكرم ومحروسا بما معناه:

- أدخلا الكارو والأرمد إلى الحارة، واصعدا بحاجة نبوي إلى نبوي!

والتفت لمفيدة يبعبع لها، بأن تعلي الراديو لكي يسمع خطاب الرئيس السادات..

دخل الاثنان مجلس الرجعة بدون الهلاهيل التي أنزلاها على خشبة الغسل بناءً على أمر البدوية. ركز أكرم عينه في عين مينا، وقال:

- مفيدة تحاسب حيلة تحت على زجاجات الموت الكاذب!

فاهتاج المجلس بالضحك ومن خلال الهياج علا صوت المقرئ يقول:

- عائلة مينا نصبت لنا الميزان!

وسأل مينا ابنه بلهجة تشهد المجلس بمآثره:

- أو فتح حيلة زجاجة جديدة؟

فأجاب بلهجة تحسر السائل:

- ويشربها الآن على صحة خطاب الرئيس السادات!

تريث نحمده حتى يلتقط المجلس أنفاس الضحك، وقال:

- حيلة مغرم بصوت السادات، وقد أفهمني في سرية تامة طوال عام الضباب الفائت أن السادات مثل بدر المسحراتي؛ إن مات؟ مات

---

[1] الكتكتة: دون القهقهة.

والقراع والطبلة في يده!

صمت المجلس واجما، وكأن قراع المسحراتي تدق بقلوبهم، فيما نظر عم نحمده لمحروس وقال باسماً:

- أم وجيدة سألت محروسا وهو يجاورنا بالحجر الصوان: ما الذي أدهشك في رجعة نبوي؟ فردد لها عبارة نبوي العالقة بدولاب الزمن، وبخيال طائر السور الأسود:

"أخرجني من تراب الأموات يا نحمده!"

ثم أخرج من حقيبة المدرسة كراسة، وقرأ لنا فصلا مسرحيا مدد فيه الملك فاروق على خشبة قمار وليس خشبة غسل، ولم يُحيه بماء الثلج، وإنما أحبيه "برمية زهر".

سألته أم وجيدة: هذه خشبة الملوك. فماذا عن خشبة نحمده؟ فردد لنا عبارة أستاذ الندوة قائلا: أم وجيدة ونحمده جنديان في ساحة الموت لن تمسهما الماء، وسوف يتيممان صعيدا طيباً! فتوجته أنا وهي بصولجان الإعجاب، وقلت له: هذه من عجائب المُلك يا بنى، أن يُؤتى مثل هذا الملك من الحظ ما لم يُؤت ملك قبله، وهو الذى أنفق حياته على موائد القمار خاسرا، ثم يحيه خيالك على خشبة القمار برمية حظ!؟ ولكننى أسألك: لِمَ أحييته؟ فقال: لكى أساله إن كان يريد أن يدفن في تراب الملوك، أم في تراب تل الطاهر وأصحابه؟ قلت متغاضيا عن لوعة الطاهر: حيلة يُميت السادات ميتة بدر المسحراتي، وابننا يحيى الملك ليسأله عن موته، وأم وجيدة تحيى بالموت، ونحمده يتيمم بترابه، والشيخ حنفى يزهد فيه، وأستاذ السطح يتفرج علينا!

وفاجأهم زغرودة تجلجل في الصالة، وترحيب من البدوية بصحبة نسوة تتقدمهن "شوق" تاجرة مخدرات معروفة. كانت تتحصن من السجن وهجمات المباحث بتراتيل نبوي، وتقتفى أثره في المدفن، وظعن

الموالد، ومظان لا يعلمها إلا حيلة؟ وكان نبوى يذكي فيها أنها من أصحاب المُلمات؛ لذلك لم يُجافيها في ملمة أومصاب أو حضرة أو عقيقة أو استغاثة. وقفت شوق على باب حجرة الطاهر وهى تقول:

- لا مؤاخذة يا أسيادنا!

ولم تصمد "للنكتة" وهي تواجه فراش الرجعة، وأغرقتهم جميعا في موجة من التضاحك وهي تنظر لنحمده، وتقول لنبوي:

- أنا كنت فاكره انك رجعت وحدك!

فهتف بها المقرئ:

- أنا من لحظة كنت أحاسب قرينه!

قال عشم النجار:

- ومينا أخذ من ذلك القرين ثمن الجبن والزيتون!

تبسمت "شوق" لعم نحمده وقالت لنبوي:

- سواء رجعت من نفسك أو أرجعك نحمده إلينا؛ فزيارة المريض واجبة.

ثم خاطبت الحضور:

- بيني وبينكم أنا قلت لنفسي: الحقي نبوي، وأتبرك برجعته قبل ما يشاور عقله، ويرجع للموت تاركا الدنيا لنحمده!

فهتف زميله المقرئ:

- حتى لو شاور عقله الثلج موجود!

تبسمت شوق لنحمده قائلة:

- ثمن الثلج عليك أم على المتوفي؟

فقال:

- من الآن وحتى حساب القبر ثمنه على مينا!

وأزعجها التمرجى بقوله:

- يقولون إن نحمده سيحول الثلج إلى بدرة!

أنقذه مينا قائلا:

- يقصد بدرة تحنيط!

وجاء العون من نحمده فقال:

- ولو سألنا ابنك سيقول بدرة عفاريت؟

هيأت شوق نفسها للانصراف وقالت:

- أنا جئت بزغرودة وسوف أذهب بزغرودة.

فجلجلت صاحبة الزغرودة الأولى بواحدة حال طول رنينها؛ دون أن يشكر نبوى "شوق". كان يعض الضحك بنواجذه متقبضا تحت الغطاء المضاعف، ومن مفارقات "الرجعة" أن الدكتور دسوقى كان يخشى على قلبه ومخه بعد ذهاب أثر الماء الثلج، وقد حذر عم نحمده من مغبة بقائه وحده حتى تستقر حالته، وكاد يوصيه بجدية الأطباء بالماء المثلج في تغسيل من عليه الدور! وذكره ببكاء الطفلة "هاجر" في القبر، واستنقاذ كلب أم وجيدة لها في اللحظة الأخيرة!

كما ذكره بأنين واستغاثة "البطاطى" شريك شعلة في أرجوحة المولد وهو ينظر إلى التراب المهيل على منافذ القبر، ولم ينقذه إلا بكاء حفيده واستصراخ أمه بأن جده يتوجع حيث أنزلوه..؛ فأوصاه عم نحمده جادا:

- لو تلزم الحكومة طبيب الصحة بالثلج قبل التصريح بالدفن؟

وقد أعفت "حُسن" الجميع حتى حيلة من ملازمة نبوى في أيام مرضه المعدودات. و"حُسن" أرملة شابة طوافة تظهر في الموالد..عشقت ما في صوت نبوى من تبتل وعشق هو ما في جملها من زهد: "حسنها زاهد في الحسن. حُسنها فريد ليس الأجمل ولكن لا قبح به". ويقول لها في غير مواربة: "في حسنك عيوب الزهد تعافيه القلوب وهى واجدة حزينة!"

وكان عم نحمده يُصوغ له زواجها قائلا:

- حُسن، عنب مجزوز إن أهمل عطن، وإن حفظ كانت مُدام تبتلك!

فيجيبه مرتلا: "ربى إنى لِماَ أنزلت إلى من خير فقير".

قال لها وهى تزيد الحطب في موقد التدفئة:

- هل تزوجيني نفسك بالقرآن يا حُسنُ؟

أجابته:

- أنا عشقتك بالقرآن. أما زواجى منك فمهره العهد؟

فأذعن قائلا:

- وأنا عاهدتك.

وصف عم نحمده زواجيهما لأم وجيدة قائلا:

- كان عُرسا مُطيباً بماء الغسل!

ولم يدرج نبوي كرة أخرى فوق خشبة الغسل.

وإنما أفضى إلى" حُسن" بما أفضى؟ ثم تعطر ووارى سوءته وقال لها:

- عاهديني يا حُسنُ!

فقالت:

- عاهدتك يا نبوي؟

ما كان لرجعة نبوى أن تفقد الموت يقينه لولا خطأ طبيب الصحة..

ويقول عم نحمده:

"الناس يتلقونني متندرين يوصونني بوصية الدكتور دسوقي! الثلج..الثلج يا نحمده! أصبحت مُصردا[1] يشتدُ بي صقيع من برد القبور كأني برد خائف، أو خوف بارد. من يطلع على أحوال حيلة يعرف دائي؟

كنا قد تبضعنا وعدنا فوق الكارو من طريق الجبل، وكعادته استأذنني حيلة كي يبول في برج الظفر، ثم ظهر حاملا مُدمنا لا شك في وفاته؛ ومع ذلك فكرت في الثلج، وفكر حيلة في ثلاجة مينا!

صرنا والشاب خلفنا صريع الكارو سافر وجه الموت، أي شاهد مشهود لمن شاء أن يتعرفه؟

ألمت بوجه الوجوه؛ فجزعت كأنما تلمُّ بوجه أدمن التقية وليس أقراص الإدمان، وجه هو البرهان المنتظر الناس حيث يتقون لقاء أنفسهم، أو يتقون أثرة الزوال..

اجتزنا به بوابة الفتوح والمتولي وكل من اتقاه تساءل:

- ابن من هو؟

استكشفوا موته ونبضه وقلبه وأنفاسه، ثم تندروا:

- أو ينفع الثلج هذه المرة يا نحمده؟

هو الموت في وجه الرجل ففيم فقد الموت يقينه؟

أبقيته على خشبة المحنة لا يتقيه أحد إلا حيلة؛ فغفقه النوم جالسا بجوار جردل الغسل، ولما رجعت باللوح الثلج فهمت منه إن وجه مينا

---

[1] مصرداً: جذوع من البرد.

شق سقف الحوش وناداه قائلا:

- يا حيلة، قم وغسل ابن الإنسان!

فيفصح له:

- الدكتور دسوقى سيرسل نحمده بالثلج!

فيعجل به:

- الملاكان ينتظرانه يا حيلة!

سأله:

- هل عرفت أباه يا مينا!؟

- قلت لك إنه ابن الإنسان!

فقه حيلة وعابثه:

- وحيلة ابن آدم!

ثم غيب وجه مينا طَلٌّ دائم من ثلوج انهمر من سقف الخشبة، ولما طمر حيلة تماما؛ سمع ترتيل نبوى من فوق خشبة الغسل:

"إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العـــالمين ذرية بعضها من بعض..".

كل أيام الهروب قد أرخها عم بيومي حارس باب المدرسة على نبوته، ولم يكن يتوان به المساء حتى يخبر جدته بضحى الهروب الجديد.

وكلما نظر محروس إلى شمس المرتفعات تخيل نبوته حجرا أسود من أحجار الطير الأبابيل يسقط من قبس الزرقة على رأسه. ولكن حارس المدرسة تكتم الخبر عن أمه بتوصية من الجدة، ولكي تسيطر هي على انفعالات مدرس الحساب وبخارها الهائم المتصاعد؛ ورطته في التدليس على أمه، فأعطاه درجات لا يستحق منها سوى قمة الدرجة الواحدة سواء في كراسة المدرسة، أو في كراسة الدرس..

قالت له الجدة وهي تذهب به إلى المدرسة:

- إجازة نصف العام قادمة إليك؛ فجرب أن تلعب فيها دون شعور بالهروب!

وضحكت قائلة:

- أسأل بنات الماء عن لذة العب حين يأتي العب في وقته ومناسباته؟ ألم يُفهمك أستاذ الندوة أن لحظة الخطر مهمة؛ إذا ما كان الخطر يمثل شجاعتنا وضميرنا؟ جرب أن تعيش لحظة الخطر في وقتها، وإن لم تفعل ضاعت العبرة من مشقتها، وأغرقتنا سماء الخطر ولو كان الخطر ندى يتقاطر!

ومر الأثنان على الحجر الصوان الخالي على ذكراه، أو ذكرى جلسات أم وجيدة الصيفية بعد صلاة الفجر، فقالت الجدة باسمة:

- أم وجيدة سألت الشيخ حنفي: أنت مع هروب محروس أم ضده؟ فقال: أنا ضد سياسة التعليم التي تجعل من التعليم وظيفة حكومية وليس وظيفة عقلية، ومن المُتعلم موظف حكومي وليس مِسبار معملي. أغاية العلم أن نكون موظفين ينامون على مكاتب الحكومة؟! فأيدته، وأيدتك قائلة: ما الحال إن جعلت الوزارة للهروب يوما من كل

أسبوع، أو شهر، أو سنة أيبقى في الفصول تلاميذ في ذاك اليوم المستحيل؟ فقهقه الشيخ حنفي وقال: قولي أو يبقى في المدارس مدرس؟

ضمته جدته إلى طابور المدرسة، ثم انصرفت. استرع وقوفه في الطابور اهتمام الصفوف؛ فحيته بتحية السبورة رافعة مسلات أصبع السبابة، كأنما تدعوه إلى قمتها، أو قمة الهروب المتفرد عليها. وأزاحوا ستارها على لمزة هنا ولمزة هناك:

- وقوفك هنا خطأ لا يغتفر!

- أو مغفرة لا خطأ فيها!

وأحدهم يشير إلى أكرم الواقف أمامه:

- أسألوا قرين الهارب إن كنتم لا تعلمون!

نال أخر من أكرم:

- السؤال لا يجوز إلا على القلب الشجاع!

أسكتهم أكرم ضاربا الهواء في وجوههم بكفيه وهو يقول:

- الشجاع منكم ينبث، أو يُظهر نفسه للخزرانة القادمة؟

وضبطت الخزرانة الصفوف حتى رددت تحية المنادي:

"تحيا جمهورية مصر العربية.... ".

ثم ترقرق صوت سوسن في الميكروفون كفراشة ألوانها البديعة وطيرانها الحالم المرتجل نغمات من نبراتها. رقرقة هي عبق الكافور، وندى وُريقاته، ومنها وريقات للصبو والهروب والخطر. عنَّ له الهروب قافزا من السور والطوابير تتلاحق زاحفة إلى الفصول، ولكنه اقشعر من رائحة هي بعينها رائحة الفصل، وسمع مدرس الحساب يقول من ميمنته:

- جدتك طلبت من الست الناظرة إعطاءك درسا!

التفت إليه فتركز شذى عطره وأفغمه في مقتل، كأن زنادا

انضغط،؛ فتدافعت مقذوفات السعال من صدره، والتوت به كل التواء مُبهرة شهقاته، ثم نشغت[1] به في كتمة زفير، أو غشية خطر أقعدته مُسلماً ظهره إلى رمال الفِناء، وبعبع قبس الزرقة دمع عينيه كأنها القطرة الطهور تجنحُ في صفائها زمر الطيور إلى طنين من دفوف الدراويش، وكرقعة من أسواط الجلادين، وعطور بعدد الحريم والقصور.. جميعها تتصوب باب المدرسة المعلق كبرج بابل!

إنها المصادفة المطردة، في غُصتها وشفائها وكشفها وخِفائها!

طالما تمنى أن يستلقي معلولا بالفناء، كما هو الآن!

يا لروعة المصادفة!

مرضه الحضاري أهاب بالصفوف، بل إنه أرجعها من الفصول، فكانت كمظلة الريش وفلول الكتاكيت، لم يفته لهفة من حدبها الحميم. حملوه كجثمان كتكوت.

أين الحِدَأَةُ؟ وأين لؤلؤ الشمس؟

غفيرة السحب ترزح على أنفاس الصباح.

هل يترقرق صوت سوسن بمأثورات مرضه؟ أليس لكلمة المرض نغمة كنغمة الصبو والأريج؟

مال رأسه إلى سارية العلم المثبتة بشرفة المذياع، وناداها من وهاق القمقم:

يا قمقم القلب وخطره ترقرقي!

يا أمشاج، الدقات دقي!

ويا ثغر الأريج، انقضى على هذا الجثمان في مصادفة كالمخالب المعقوفة.

---

[1] النغش: التشهيق الذي يبلغ الغشي والإغماء.

إلى أين يسيرون به؟ إلى المرسم، أم إلى حجرة الموسيقى، أم ذِروة القُبلة التي يتمت خده، وهوت بقلبه في سُقاطة البوابة المحروقة. بنات الماء بظهر المرتفعات يعصرن أوراق الكافور، وهنالك نقع مثار بحافتها آخذ أبصارهن فتساءلن:

– أهو نقع لمشرف على الحافة أم لهارب منها؟!

يا حدأة! جثمان كتكوتك في انتظار أن تصوني فناءه.

كان انقضاضها في حجرة التمريض بلا مخالب، بيد أنها وارته في حور عينيها حيث يصان الفناء، وحيث تظهر بنات الماء فوق الصخرة يهمسن بأسرار المصادفة:

"كل شيء سواء في البذرة ونياط القلب. قطرة الماء، وهباء الرغام. القصد هو الأصل والمصادفة هي الاستثناء من قال لنا: إن القصد سلامة الشجرة قال لنا أيضا: إن اعتلالها استثناء مقصود!

أيتها الحِدَأةُ، قولي:

يا مرضك! ولا تقولي: يا سلامتك فلولا مصادفة المخالب ما كان قصد الفناء المُصان!

كانت أمه تتطير من السعال أيما طيرة، فلا يزال يَصخُ[1] أذنيها وهى طفلة كصرار[2] وباء في صوته شؤم لا يخلو منه بيت في الحارة..

كانت البيوت في خيالها "حقل مريض" عاشت فيه من الشبيبة إلى المشيب، ومن البكارة إلى المسيب، إذ كان زواجها في نفس الحي خروج من حارة إلى حارة، أو خروج إلى حقل مريض تنضبط نوبات سعاله كأنها عسس الفجر!

سعال نزّاع لما في الصدور. شفاؤها منه كشفاء المتهوس من ضلالات السمع. وما تفتأ تطارد الأطباء حتى نبذوها من رحمة صبرهم، كما نبذها السعال من رحمة النوم. ومن نوادرها معهم، أن الدكتور دسوقي أُهيج صدره بإيحاء من وساوس زياراتها القهرية؛ فما أن رآها في العيادة جعل يسعل ويحرص على السعال كمن يستنجد بها، ولكنها لم تبال، فالأطباء لا يمرضون، أو أن سعالهم مثل العطس يوجب الحمد لا طيرة!

قال لها الدكتور دسوقى وهو يستجير بعتبة العيادة:

- يمكنك البقاء هنا حتى أرجع من عند الدكتور!

لا كلام الأطباء ولا الأشعة الخمس المصورة صرفوها عن طيرة السعال وهى تدور بابنها كل مدار آناء الليل والنهار. تضاحكت جدته وقالت لأم وجيدة مشيرة إلى ابنتها الراقدة المهدودة بعد زيارة إلى مستشفى أبي الريش:

- هذه بنت بطنك، السعال يوسوس لها وسواسه الخناس، كما يوسوس لك الموت وسواسه الكناس!

---

[1] يصخ: يضرب الأذن.

[2] صرار: الريح الشديد وشدة البرد.

وقد كان الموت حقا كناسا للأحياء، ذلك وأم وجيدة تستشعر نبأته في وسوسة الهواء، وبوادر النواح، بل كان الموت وباءً يمُج سعاله رميم صرعاه اليوافع، والكهول على حد سواء؛ فيُبصر يَخضور الصدور وما شاب منها بجوانب البيوت ونهر الحارات.. توسوس لها النبأة بحشرجات سُعال لا تتبين أصحابها؟ ويرنق[1] اليمام مرفرفا لناظريها، وإذا بيخضور الصدور عَفرٌ ينجلي على أرواح المرضى المتحشرج سعالهم، وتبدر غنتها بنبأة اليافع "زنه" ابن سعود، وهو من أصفيائها الظرفاء. كان جليسها على الحجر الصوان؛ فبدا لناظريها يُصفر بناي صفير الحنين إلى الذكرى مُحييا من أهله من صلمهم المرض، ولكن سعلة الوداع لفظت الناي من فمه وشبابه أخضر كاليَخضور[2]!

---

[1] يرنق: الطير يقف في الهواء صافا جناحيه.

[2] بخضور: الأخضر.

اكتنفت المرأتان فراش مرضه.

جدته تدلك صدره بزيت الكافور، وأم وجيدة تلقمه اللبان "الدكر" وتكلمه وهو يتحاشى صفاء الحزن الطهور بعينيها الخواص الضيقتين وألق إخلاصهما الثاقب لخوان العيون؛ فيحيله ندما كاسفا.

إنه ذلك الصفاء الذي يتحاشى جلال ذكراه المقترن بجلساتها الصيفية عقب صلاة الفجر. جلسات كمغارة مقدسة في الذاكرة، اكتمل نحتها منذ أعوام الكتاب.

كان يتملص من يد أخته مسرعا نحو الحجر الصوان أو ذراعيها المفرودتين. لم يكن بعدها شيئا، كانت منتهاه، وفى ذلك الحضن تنسم أريج الكافور كما تنسم أريج الزمن وقُتامه في أحجار السور، وقد تتعنف أخته في استخلاصه من حضنها؛ فتستمد العافية من وفائه وبكائه، ولا تتركه إلا في حجرة الدرس حيث ينعم الشيخ حنفى برائحة الكافور وبالزيارة المقتضبة الأثيرة.. وربما تشبث الصغير بالأرمد فترفعه إلى ظهره، وينطلق بهما حيلة، ثم يقف دون السلم ودرجاته المحصورة القائمة، والتي لم يصعدها إلا في نوادر تحكى كما تحكى نوادر كلامه الفصيح، ولكي يريح الشيخ حنفى من أمل الوصل ينادى عليه من أسفل عقدتي النافذة نداءه المُطلسم "نداء سقر" على وصف الشيخ؛ فيتنهنه عن أمله المقطوع إلى أمله الموصول، وينتظرها انتظاره ليمامة نوح وغزالة ابن الفارض.

مغارة مقدسة في الذاكرة كمغارة المسيح وأمه، تألفها فطرة الحواس وروع الخيال، ومن ظلالها توحده بغنة الأبد في السرادقات، و جلوسه بين المرأتين وهما مدثرتان باللفائف البيضاء في حمام "بشتك "، وفي الزيارات الطوافة على البيتين..

كانت تنثر الحَب لليمام حوله فيتحلقه، ويدانيه، ويتنافران ويتآلفان،

ثم أرسلته إليه واعيا الإشارة يحبو على أربع، ويلاحق ما أتلفه، والأصوات تلاك في فمه مُستثارة كأثر دغدغة، وقد تشاركه الجراء في الملاحقة وينغمر الجميع باللهو إلى طرقة السلم المكشوفة إلى أن يتواثب اليمام متفرقا على الحوائط،؛ فيجتاز سياج الطرقة الخشبي إلى حجرة الأرانب والماعز "لوكة".

وغالبا ما تنصرف جدته وحدها، وترجع به ساجدة وهى تحمله إما نائما، أو متشبثا بشيء: حمامة، يمامة، سلحفاء، جرو، ابن للماعز "لوكة "، ولكنه لم يرجع أبدا بالقنفذ.

أرغمته مختارا أن يواجه صفاء الحزن في غوره الضيق. حزن صراح كالحق، ضعفه أمل كنبأة الغيب، أو ضعف الإيمان الكامل برحمة الأبد.

ذكرته باسمة بما حدث في السطح بعدما أخلف وراءه العشش مصروعة الأبواب. قالت تصف ما شاهدته من حجرة اليمام وجدته تبسم لها:

"لقد اختلطت الكتاكيت على أصحابها اختلاط الماء بالماء! فكان السطح كتنور نوح عليه السلام، بيد أن الشِجار لا سفينة له، بل هي ورطة مضحكة كالمأساة!"

وأشرقت ضحكتها شروق عباد الشمس وقالت:

"أصحاب الكتاكيت طاردوها مطاردة الغرباء الساطين. سواء في كبد السطح أو في العشش. يدخلون هذه على أربع؛ فتثرثر الكتاكيت بالهروب وتهرب ملتقية بجموعها في كبد السطح وهى تثرثر بفرحة النجاة، ويعاود أصحابها المطاردة وهم على رقة بالغة في اختطافها وعنف حانق في تدافعهم. كانت رقة الصراع وعنفه يفسحان مسارب الهروب، ومسارب الاختلاط من بين الأيدي والأرجل وأسفل البطون، وكما بدأ السطو انتهى كأن سطوا لم يقم! فبينما كانت الكتاكيت

متآلفة داخل العشش كان أصحابها قعودا تبهر أنفاسهم في السطح وأيديهم خالية من وفاض السطو"

وتمايلت بها الغنة:

"من لي بمأساة صنعها القدر؟

المآسي على قدر أنفسنا والقدر لا يرمينا إلا بما في حقولنا. وما نسميه نبتا شيطانيا إنما هو نبت النفس يتلون بألوان مواردها. فأس المأساة لا يغادر الحقل ومواردها ضربات ثلاث: الهوى والغلو والغرور!"

تتحفظ في اقترابها، إلا مع المرض والوفاة، أو مع محروس. ألق عينيها ضعف رحيم يخيفه.

كان يَبدهه وهو ابن عامين، وربما أسكنته حجرها هويا من الليل، وما أن تسهو وتحدق بعينيه يجهش وجهه دامعا، وتغالط نفسها قائلة لجدته:

- أرأيت ابنى لا يطيق فراقي!

فتغيظها:

- وأين هو الفراق وابنك في حضنك؟

وتكيدها:

- إنه يبكى عليك وليس منك!

وتصارحها:

- كيف يطيق المهد عبرات اللحد في وجه لم يطمسه الدهر؟!

أجل، وأنى يُطيق؟

ألم يَبدَهْه ألق اللوعة الطهور وإن شاركت عروس فرحة زفافها أو خلصت وجدته في مناجاة عابثة وتغامز بريء؟ بل كانت اللوعة تدهشه وضحكتها تتفتح كعباد الشمس مما فعله حيلة حين أحيا نبوي بثلج مينا!

ولا ينسى دموعها العزيزة التي لم يراها قط تنحدر على خديها؛ إلا في مقام السيدة زينب وذلك حين كانت في زيارتها هي وجدته، وقد أوصل حيلة ثلاثتهم بالكارو، ولكنه تجنب الزيارة لعذر تفهمهُ المرأتان وغضب منه محروس؛ فيعود إلي الكارو وحيلة راقد عليه في حضرة الزيارة بروحه، ووعي المنام، وحديث قلبه ذي البيان.

لم يقطع عليه الحضرة، ورجع لكي يتوسد فخذ جدته، وتأخذه سُنة رأى في منامها رجلا أبرصا مِسلاخاً يحتال في انتزاع فرخ حمام أبيض مزهر من يد السيدة زينب؛ فأفلتت الطائر علا منقضا على هامة الرجل الشوهاء ناثرا كلمات أحرقته، ولم يخب وهج الإحراق إلا ومحروس يتفقد السيدة في عطر مشكاة. اجتزها ليجد نفسه جالسا إلى الطبلية وأذكار مولد "الحُسين" تترامى إلى السطح من خيامها المنصوبة في فجاج رقعة المقامات، والأضرحة، وروح الحضارة وركام الاحتضار!

كان أستاذ الندوة يناقش كتاب "عبقرية الحُسين" وقد استوقفته عبارة زين العابدين التى أجاب بها ابن زياد وهو يهدده بالقتل قائلا:

– أو لم يقتل الله عليا؟

فأجابه زين:

– قتله الناس!

فأعاد ابن زياد قوله:

– الله قتله

فقال علي:

– الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله..

أيقظته جدته، بينما سألته أم وجيدة:

- أكنت تحلم بمولاي زين العابدين؟

قال:

- وحلمتُ بقتلة علي!

فطفر دمع أم وجيدة، وقالت كأنما تعتذر لأهل البيت عن دموع الأحزان:

- هذه دموع الفرحة. فرحة لقاء أهل البيت بنبيهم!

ظلت المرأتان تكتنفان فراش مرضه؛ حتى دخلت أمه الحجرة تشتكيه لأم وجيدة، وتخبرها بما فعله أمس مُستهينا بسلامة النفس، ونعمة الصحة، وراحة الأحبة.

فعلى فراش المرض توحد بالمرض، وقص المنشفة الصفراء قطعا بمقدار ما كان يجلبه من بقايا قماقم العطور التي نقب عنها في مدافن القصور بالمرتفعات. عقد قطع المنشفة على جذذ القماقم جاعلا منها جثامين كتاكيت؛ ثم تسلل بها إلى السطح، وصادفه أبن الملاحة على باب شقتهم فأخذه معه، وأوقفه حيث يقف للحِدأ؛ ريثما يُشاهد بعينيه مالا تصدقه العيون، إذ الحِدأ ترصد محروسا من أوجها الساطع، ويتراخ هبوطها مُدومة في ترقب له ميقات معلوم، أو ميقات أفزع ابن الملاحة وهرب به من السطح تاركا محروسا يُخادع المخالب المعقوفة التي لم يعنيها شراسة الأنتهاب بمقدار ما عنها دُربة اللعب؛ فكانت تلتقطُ الجثامين المزيفة مُذبذبة صوتها بهذر الصراع، وتتمكن منها، وبنفس الجموح الذي تلتقط به جثامين الكتاكيت جمحت في صعودها من قبل السطح، وفي استقبالها لأشجار الكافور.

شخص ابن الملاحة أمامها يقول هلعاً:

- محروس مسته الحدأ بالسطح. هو الذي يقذف إليها بالكتاكيت أحياء!

فحدثت ابنها في نفسها:

- أي كتاكيت؟ فقد ذهب بها العراك!

ثم خلت بأمه، وكلمتها في مرضه، وفى خطورة تيار الهواء على صدره، وفى المنشفة الصفراء الممزقة، وفى خوفها عليه من خلوة الجبل ومن جنيات القصور اللاتي يعثر على قماقمهن، ثم سمعتها قائلة:

- أنا أخاف يا أختي على ابني من عدوى الهروب وخلوة الجبل!

وبمجرد أن صعدت شقتها؛ أحضرت أمه جدته إلى فراش مرضه، وبهدوء زائف قالت له:

- أمن أجل الحِدأُ تهلك نفسك؟

ونظرت لجدته كأنها "تيمات" ربة الأرض، أو ربة التمرد وقالت:

- وما هذه القماقم والكراكيب التي تهرب من أجلها ثم تهديها للحِدَأ؟

ثم وهى تنظر إليه نظرة "نمسس" ربة العقاب:

- وما هذا الذى قاله ابن الملاحة؟ جنيات وعطور وخلوات فوق الجبل!

وصرخت به:

- الملاحة خائفة على ابنها منك؟هل أصبحت مكروبا؟

وهنا نهرتها جدته، ولعنت الملاحة وابن الملاحة، وذكرتها بإشادة أبله زهرة وأسمعتها عبارتها، أو وصمة كماله:

"ليس في المدرسة تلميذا مثل حفيدك!".

فضحكت أمه وأسمعتها عبارة الست الناظرة، أو وصمة البلادة:

"ليس في المدرسة تلميذا مثل ابنك..".

ضحك عباد الشمس في وجه أم وجيدة، وقالت توفق بين الرأيين وغضب أمه:

- من الخير لمحروس أن يظل الناس مختلفين فيه مثل هذا الاختلاف!

وظهر ابن الملاحة باب الحجرة يقول:

- عم نحمده طالع هنا.

انصرفت أمه لاستقبال الضيف، ولكن علا صوهما مرحبا بضيف أخر أستاذ الندوة، أو تلميذ العقاد كما تحب أم وجيدة أن تصفه. دخل الضيفان الحجرة وعم نحمده يقول لمحروس الراقد بين شجرتين الكافور:

- الأرمد يعتذر لك عن عدم صعود حيلة لأنه يخاف المرض ولا يخاف الموت!

وقال ناظراً إلى أم وجيدة الباسمة من الاعتذار المؤول باللسان الأرمد:

- كلما سألت حيلة أين أم وجيدة؟ قال: في زيارة الموت. فأقول له بعناد الأرمد: تقصد في زيارة الأموات. فيقول لي بعناد الحكماء: الموت أبقى من الأموات! ولا يقف بنا كلا العنادين عند هذا الحد من الحكمة والحُمورية؛ فكلما سألته وأنا أعرف الجواب: أين أم وجيدة؟ قال: في زيارة المرض. فأقول له: تقصد زيارة المرضى؟ فيقول لي: المرض كلمة الله في المرضى!

ولا يجعل قلوب الضاحكين تستريح، ويسأل محروسً:

- لو سألنا الأرمد صباحا أين محروسا؟ فماذا يقول لنا؟

فيترك الجميع عم نحمده يُجيب بنفسه؛ فيقول:

- محروس في زيارة الهروب. وإن قلنا له: تقصد في زيارة المدرسة؟ قال لنا: باب الهروب كباب الشاهد مفتوح، وباب المدرسة كباب الحكومة مقفول!

وأخيراً جلس على الكنبة، وأجلس تلميذ العقاد إلى جواره وهو يقول لأم وجيدة:

- العقاد أجهز على خصومة السياسيين بالنكتة، وبالنكتة حافظ على روح الأمة حتى ثارت طالبة الموت الزؤام أو الاستقلال التام!

سألت أم وجيدة تلميذه:

- ندوة السطح يوم الجمعة إحياء لذكرى العقاد؟

فأومأ بالإيجاب، وسألها:

- ألم تلتقي به؟

أومأت بالنفي قائلة:

- الشيخ حنفي كان يحرص على رؤيته بمكتبة الأزهر.

قال كمن يبشرها:

- أو تعرفين إنه كشف بالشعر حجاب الموت؟

فاستشهدت على سؤاله مرددة مع العقاد:

إذا شيعوني يوم تقضى منيتي
وقالوا أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملوني صامتين إلى الثرى
فأني أخاف اللحد أن يَتهيبا
وغنوا فان الموت كاسٌ شهيةٌ
ومازال يحلو أن يُغنى ويُشربا
وما النعش إلا المهد مهد بني الردى
فلا تُحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكروني بالبكاء وإنما
أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

غُنة محزونة، أو قيثارة للموت وجمت بضحك القلوب وبسماها.

سألت التلميذ كما سألها:

- أو تعرف أن أم وجيدة وصفت شعر العقاد في حوش الشاهد

بأنه: "ديوان غربي بوحي شرقي"!

ثم أدهشته:

– الكمال عند عملاق الفكر: فكرة "فنية" وليس فكرة "عقليـــة"؛ فالكمال حاصل في الشعور بينما العقل مازال جنينا في سديم الكون!

وسألته باسمة:

– ما رأيك في أم وجيدة العقادية؟

قال بجدية الإعجاب:

– ليس غريبا أن يخرج هذا الرأي من حوش الشاهد وأقطابه رحاله يملُ العقل رحلتهم بينما القلوب يقظة لها؛ وصدقت حفيدة الـــشاهد، فالبطولة عند العقاد وهي أسمى وأدوم ما في الإنسان "كمال" حاصـــل بمجاذبة الشعور، وقد يعتري الكمال النقص في فكر العقل؛ لذلك حين كتب العقاد عن البطولة تفرد عمن سواه فيما صدقه بقلبه، فكان نبيـــا للبطولة وغيره كان يؤرخ لها بما صدقه بعقله، أي يقـــول مـــا يقولـــه التاريخ، والعقاد يقول ما تقوله رسالة البطولة!

تسأل محروس:

– ومن هو البطل؟

قال معلمه:

– إذا سألنا عم نحمده؟ سيقول لنا: البطل كالحياة يحمـــل نعـــش الموت بتجرد، وإذا سألنا الأرمد؟ قال لنا: البطل هو حيلة حين يجاورني أمام الكارو، وهو يحلم بوصولنا جميعا إلى بر السلامة!

ولحظه معلمه بنظرة كإرادة الخطر ناهضة وافزة باسمة، وقال:

– ماذا قال الطبيب؟

فقالت أمه من باب الحجرة:

– الطبيب نصحه بتجنب صهد "البابور" وحرارته قبل نزولـــه إلى المدرسة.

النظرة الناهضة المستثيرة غاب عنها أن المريض والنوم يستغرقه يبول لاإراديا، وإذا ما أستغرق خياله اليقظة سال نُخام أنفه.. قال عم نحمده:

- الدكتور دسوقى طمأنني ؛ بأنه التهاب خفيف بالشعب الهوائية شفاؤه مضمونا بالراحة وسكينة النفس!

تساءل محروس:

- هل يعرف الطبيب سكينة الخيال؟

فقال عم نحمده:

- الخيال ده؛ مثل نبأة أم وجيدة نهايته وطلوع الروح!

لم يقو المريض على مشاركتهم الضحك وإنما حاوله؛ فتلجلج في صدره سُعيلات غير مكتملة، أشفقوا لها وودوا لو تكتمل.. قال عم نحمده بجديته الخادعة:

- السعال ده، مثل ضيف ثقيل تجاوز حده الشرعي، ابتلاء لسجية الكرم.

وحدبته نظرته، وأوصاه:

- كن كريما معه يا بني ككرم أم وجيدة مع المرض!

ونهض يستأذن مجلس المرض أخذا معه الأستاذ؛ ففاجأ محروس المرأتين ونهض من بينهما إلى معلمه، وفي البسطة سأله:

- أو أهديت قماقم العطور للحِدَأُ؟

فأومأ محروس بالإيجاب.

سأله ونظرة الخطر وإرادته تستنهضه:

- وتمائم الشهداء؟

فقال:

- إنها تحوز الخيال!

بانتهاء أيام أجازة نصف العام تجددت أيام الهروب. كانت الوهدة الرحيبة في عمقها الموصول بالقبة الزرقاء غائبة في رماد شاتٍ، أو رماد كظلال حلم تكوثرت[١] في سمائه الطيور..

فيما حطت الحِدأُ على المئذنة الفريدة وحلقِها المفتوح. تعلوه شرفة وحيدة بغير سياج هي وكر الحِدأ الذي صعده هو وأكرم في مجازفة انتصر فيها الخطر، وتمكنا من الاستيلاء على حِدأة وأفراخها، ولكن الحِدأة الأم خدعت الصائدين مفتعلة الموت في قفص أسريها؛ فكانت نجاتها بأمر أم وجيدة انتصاراً للموت قد شاهدت الاحتفال به وهما يطلقان الحِدأة من حجرة اليمام، بعدما أرجعا صغارها إلى العش المسلوب!

راقب الحدأ بنظرة الانتصار المتكافئ، ثم تمخض تنقيبه في مخلفات الحضارة عن "تميمة" جُذت رقبتها، فأوى بها إلى برج المراقبة وأرخ لضحى الهروب يوما جديدا في كراسة الشذور، ثم اعتلى الزاوية وبيده التميمة؛ ليشهد "كليوس" على إيمانه بكل بطل كان قدر الشهادة وليست الشهادة قدره. رفع التميمة ولم ينبث، وإنما أحس بجهجهة[٢] حصار وراءه. ولم يستدر إلا وخيالة الثكنة يداهمون البرج ويسدون المنافذ عليه من جوانبه عد الجدار الصاعد من انحدارة الركام، والمواجه لعمق الوهدة. قفز منه قابضا التميمة، فانحدر كصخرة معشوشبة بخيال الارتياع!

لم تفته خالجة من دهشته و حوافر الخيل تقتفى أثر انحداره مُحاذرة وطأه وممهلة بطش الارتياع؛ حتى مال الجندي عليه ميلة

---

[١] التكوثر: الكثير من كل شيء.

[٢] الجهجهة: صياح الأبطال في الحرب.

حاسمة، والتقطه مُهيئا جسمه في الهواء وانحطا معا على ظهر الحصان، ثم دار صاعدا فيما هبطه من منحدر المرتفعات..

هذه الدهشة من القوائم الفتية وحوافرها الجارفة المثيرة لغبار الحضارة الكثيف هي وقود الهروب ألآتي.

ضج الخلاء والجندي يترله إلى الجنود صائحا:

- هاكم أسير الهروب من المدرسة!

أخذوه إلى قصبة البرج، ثم اكتنفوه من الخارج وهم يهتفون بأيام الهروب، ويسموها بأسمائها:

السبت، الثلاثاء، الخميس، ثم أوقعوها غناء واصطخاب، وهو قائم يستنهض إرادة الخطر، وعيناه تلحظان دكة المطالعات فيسمع هتافها:

"أخطار الغفلة وأخطار الصدقة انتصار للباطل! ". ولكي يكملوا له أيام الأسبوع هروبا نزل إلى القصبة أربعة جنود. عرفه الأول بنفسه قائلا:

- أنا يوم الجمعة.

ورفع الأذان وتنحى ليوم الأحد؛ فحرك هذا ذراعه بأجراس الكنائس وفمه يحاكي دقاها، واتخذ مكانه يوم الاثنين قائلا:

- أنا توأمك وإن شئت فككت حصارك.

وألقى الجنود ليوم الأربعاء كوفية تبرقع بها وتأبط ذراعه قائلا:

- أما أنا فنسوانك الأربع!

ثم اتجه توأمه إلى الحقيبة وأخذ كراسة الشذور، واعتلى الركن المواجه للبوابة المحروقة. قلب لهم المشاهد..، وعن ظهر قلب صور هزلهم شذور خياله، فقد كانوا يرقبونه بمنظار من خلف أسلاك الشكنة ومن بين جذوع أشجار الكافور، بل إن توأمه أمكنه أن يأخذ كراسة الشذور المقلوبة على صدره وهو في وها ق النعاس يستبطن الخيال..

تصفح لهم المشاهد التى رأوه يكلم شخوصها ويصور صـــراعهم في قصبة البرج، وسمعوه يكلم "كليوس" ربة التاريخ الرابضة على سُـــقاطة البوابة، فيما كان جنود أقطاى يحرقونها وليس بينهم وسيف قطز المجلل بدماء معلمهم؛ إلا دخان البوابة المحروقة، ورأوه يختبئ بكمائن نبـــات البوص والخيال يصور له قذائف الغرب المنهمرة على حـــي الحـــسينية وبولاق وقلعة قيتباى وقلاع الإسكندرية!

تلك المدينة العامرة بسكانها ومنارتها وآثارها وقصورها وحديقـــة دير الفرنسيسكان وساحة الرهبان، ملاذ الخائفين وموارد الظمآن..

هذى عروس الشرق ماتت فاكتس
حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالأمس كانت والبياض دثارها
واليوم صـــارت أرسما بسواد

ليلتها تذكر جنازة عبد الناصر التي شاهدها مع أم جيدة وهو طفل دون سن الهروب. حين أرسلت حيلة إلى "شوق" ليحضر من عنـــدها التلفزيون وشاهدت الجنازة في حوش الشاهد مع غفير الخلق..

وصف معلم الكتاب غنة نواحها قائلا:

"وبينما كان الناس ياستمرئون أخبار النصر؛ كانت هي في مخـــاض الانسحاب تتكلم بنبأته كأنها واقع الغمة وابتهالها المقدور، وما هـــو إلا حين فطمت فيه الأمة ناصرا حتى رثته رثاء الغائب عن وغي السياسة. أربعون يوما بأربعين عرض للكمد الطهور وهى تتقبل العزاء على أريكة الحوش.

كانت أصداء الماضي وأصداء المجهول يؤبان مع غنتـــها العميقـــة؛

فيجثمان على الدنيا والأحياء جثوم الأكفان! كانت البلاد تئبُ[1] لأطوارها المستديمة، إذ السياسة كالموات، وإذ الموت كالموؤدة لا ذنب له!"

ويصف وفود الخلق إليها في حوش الشاهد بقوله:

"كانوا يفدون إليها وفودهم إلى مرض وليس إلى مريضة. وكلما ظهر عليها عرض للسقم حركوا المناظير في فلك واقعهم، ويتهدج شجو غنتها بريبة الغيب؛ فتخشع بهم الريبة ريثما تمر الغمة أو يظهر كوكبها في برجه المنحوس أعراض مرض حقا تخلفها وقائع جسام؟ ولكن لعبر التاريخ في بدائه الناس شبهات. يظنون العبرة علة فيعافونها ويلتمسون للعلل أدواء. إننا لا نترل قناة الحرب مرتين، ولا ننظر للعبرة مرتين. بذات الخوف القديم ننظر إلى ألف غريق. تتعدد مُفارقات العبر، وباعثنا واحد كالموت المتعدد الأسباب، والنكسة ذات السبب الأوحد: انطفاء نور الاعتبار! ".

أخذ النعاس محروسا في ليلية الأسر؛ فمشي وسط الجنازة ينتحب معها، ومن خلال الدموع أبصر النعش شلالا مهولا تحتجزه الحشود باستماتة، ولكن شلال النعش غمرها، ثم انحصر عنها وكأن شلالا لم يكن! وأفض به عويل الجنازة إلى نعاس أمسك في وهاقه بيد أكرم وهما يقفان على كوبري يعلو بحيرة السد. معلقاً كبساط سحرى؛ فأفزعهما فراغ جوانبه.. سأل أكرم:

– كيف صعدنا إلى هذا الكوبري؟

– كأنه نزل بنا من السماء!

– أو صعد بنا من الماء؟

---

[1] تئبُ: تتهيأ.

- ألا تشعر؟

- بما؟

- إنه يمتد ومستطيله يضيق بنا!

- أنظر!

- من هذين الجنديين؟

- إنهما رأس الثورة.

- أى ثورة؟

- ثورة البساط السحري!

- وما بالهما يتقهقران عنا؟!

- بل هما يقبلان نحونا!

- كيف والبون بيننا وبينهما ينبو؟!

- بل هو ينحصر!

- انظر! ماء البحيرة يتجندل بجماجم لا حصر لها!

- أين هي الجماجم إنها صخور السد؟!

- انظر! الجنديان توأمان.

- ولِمَ يشرفان على حافة الكوبري؟

- أنصت! إنهما يصرخان بالجماجم.

- هذه صخات الصخور.

- بل هي صرخات في الجماجم!

- ماذا تسمع من الصرخات؟

- نحن اللذان علمناكم العزة والكرامة!

في سحابة نهار عُنعنَ بخبر أسره..

فعن جندى الثكنة مُتعهد التعامل مع مينا ومفيدة، وعن الزوجين عنعن بالأسر سائر المتعنعنين بما فيهم بطانة الشيخ "مشحوت" الذين تستدعيهم جدته لحضرة الذكر السنوية، فيطلقون عنان الأذكار والإنشاد في سماء السطح، ثم ما يلبثون أن يطلقوا عنان المخمصة على مائدة الفتة، وكان الشيخ "مشحوت" ومينا من الحواريين، كما يصفهما ظرفاء البطانة، ولما يستدعيهم مينا لإحياء حضرة الذكر لابنة عمران، كان يتعمد مخمصة بطونهم حتى يصيحوا بشيخهم:

- ادع لنا مينا يُنزل علينا مائدة من السماء يا مشحوت!

صعد مينا إلى السطح فتلقته الجدة على رأس السلم قائلة:

- ابننا يشكوك للشيخ مشحوت.

فقال طارحا ذراعيه إلى أسفل، أي يشير إلى امرأته في الدكان:

- مفيدة لم تترك أحدا إلا وأخبرته باحتجاز الجنود لابننا فوق الجبل.

قالت وعيناها على حلقة البطانة:

- وكذلك يشكو مفيدة لابنها.

التفت فوجد أكرم ومحروسا وحيلة متجاورين في حلقة الذكر. تخطاها وهو يقول مخوفا ابنه:

- مفيدة جبرت خاطر الجندي تحسبا للأسير التالي.

ثم ظهر للشيخ مشحوت المتصدر الجهة الأخرى من السطح؛ فقال له:

- هدهد سليمان عليه السلام قص علينا القصص!

يقصد الأسير. سدد مينا ذراعيه إلى المرتفعات وهو يقول:

- كله من الجنود.

وجلس على دكة المطالعات وقال:

- الهدهد جعل الجنود يؤمنون بحقه في الهروب!

هام خيال محروس في لقبه الجديد كأنه الهدهد يبحث عن شمس سبأ. سأل البطانة:

- كيف كانت شمس سبأ المعبودة من دون الله؟

قال مشحوت:

- طول عمرها الشمس كبريق السلطة. معبود قديم، نرى شروقه وأفوله ونحن آمنون، ونعمى عنه ونحن خائفون خوف الاستبداد وسراب السطوع!

فقال مينا:

- كل ده يطلع من الشمس!؟

أجابه غير صوت من البطانة:

- ولم لا؟ والثورات تثور في عز الحر.

ثم سأل الأسير:

- ألهذا يصعد الهدهد الجبل وقت الشروق؟

تبسم وهو غائب يحدث نفسه:

"هل كافأ سليمان الهدهد على صدقه، كما توعده على الغياب؟"

أجاب أكرم:

- ووقت استيقاظ الطيور!

سأل منشد محروسا:

- كيف أسرك الجنود؟

فقال أكرم:

- كانوا يراقبونه بالمنظار.

- سمعت أنهم أكملوا لك أيام الهروب سبعة.
- وأكملوا له الزيجات أربعاً.

فقال مينا:

- أنا طالع الجبل ويمكن أقعد فوق.
- يا طالع الجبل هات لى معك زوجة.

سأله الشيخ مشحوت:

- سمعت أنهم صادروا كراسة الهروب والخنجر والتميمة؟

أجابه أكرم:

- لقد أرجعهم إليه توأمه.

تضاحك الشيخ مشحوت وسأل أكرم:

- وأين كراسة الهروب؟

أجابه:

- تحت شمس الطبلية!

نظروا إلى الطبلية فتضاحك أكرم قائلا:

- أقصد تحت شمس الخيال!

وكانت للندوة عنعنتها أيضا..

سُئل وهو جالس وراء الطبلية:

- هل ستكتب مشهدا عما فعله الجنود بأسرك؟

- ما فعلوه مشهدا ينقل الخيال هزله كما هو.

- ولعل هزل الأسر نكسة زاهدة في الحقيقة.

- أو خيال توحد بها.

- زهدوا في الحقيقة؛ فهربوا من نارها إلى رماد التاريخ!

- حتى زهدهم كان سلبيا ولم يزهدوا الزهد المريد. ألستم معي أن الزاهد في النقص طالبا للكمال، وأن الزاهد في النصر لا يطلب الهزيمة؟

- كان هزل الجنود يصور التاريخ كما يصور القاتل جريمته الكاملة لولا مصادفة الانسحاب أو نكسته. أقصد نكسة القيادة وليس نكسة الجنود!

- أجل، وأين النكسة من الجنود في معركة رأس العش؟

- أحسب أن نكسة القيادة مصادفة، أو تدبيرا إلهياً قد اختصر للأمة قرنا من الخداع في بضع سنين!

ثم أفاضوا في مصادفات التاريخ وتدبيرها الإلهي؛ ومنها مصادفة نجاة صلاح الدين من مشايخ الجبل، ومصادفة نجاة السادات من مشايخ مراكز القوى!

سألهم محروس:

- هل سيحارب السادات؟

سكتوا ليقول المعلم:

- السادات كمجهول نعرفه. لا نشك في حدوثه ولا نصدقه إذا حدث!

- هل أحب الأسير ناصرا؟

– أنا أبكتني جنازته، ودائما ما أحلم بنعشها شلالا مهولا، لا تقوى الحشود المستميتة على احتجازه؛ حتى يغمرها ثم ينحصر عنها وكأن شلالا لم يكن!

هتف صوت من الندوة:

– الأسير أسرنا بوهاق النعاس!

– من أحب ناصرا كما أحبه الأسير؟

– الناس أحبوه كابن لهم، أو ابن للزعامة وليس أبا لها كسعد؛ لذلك كان عطفنا على ناصر أكبر من أخطائه ولم نجحده جحدنا للآباء!

– أليس موته صغيرا مصادفة إلهية؟

– كنت أخشى على ناصر من العجلة لا البطء، ابن عصره، وأخطاؤه وأخطاء عصره سواء. كلاهما تعجل بصاحبه، وإن كان ناصر أسبق بتلك الخطوة التي قد نحسبها خطأ كبيرا، وقد نحسبها ضرورة نفعها أكبر من ضررها، فتأميم القناة، وحرب اليمن، وإغلاق المضيق، خطوات عجولة تشبه الخطأ، وتشبه الضرورة، وعذر ناصر أن الخطأ خطأ الاستعمار، والضرورة ضرورة الثورة وهو ابنها البكر في قارة لم يكن لها خيار إلا انتظاره!

قال المعلم:

– لو فطمت الأمة ناصرا ربما قادها إلى ثمرات السياسة ولم تقعد به هي بين نخيل الثورة!

دارت على محروس دائرة النفي..

أخرج من مدرسته في طابور النفي إلى مدرسة المنفى، حيث قرناؤه المتوحدون بالنجاة، وقد عملت له المصادفة عملها كأن النفي أمنيت الخيال:

"إنه طابور حريتي وشهادة ميلادها، لقد ولدت مرتين و لم يقض لي نحب ولو مرة واحدة. كنتُ أبعث في الرمق الأخير كطائر الفينيق! ".

شق طابور النفي غبار حارة الروم. كان وراءه حارس وأمامه حارس ساقتهما مصادفة الخيال وجها لوجه بمعلم الكتاب فشملهما بنظرة خلصت إلى حقيقة الطابور ووجهته، وأطال النظر إلى محروس كأنما يواسيه بهتاف الكتاب القديم:

"الطير على غروره المحبوب ما لم يقع في الأسر، فإن وقع فهو في ذلة الغرور. غرور العجز والتواضع!"

ثم لم يشأ أن يواسيه في آليل ندوة السطح، وإنما قال ساخرا:

- نفيكم إلى مدرسة المنفى اعتراف مغتصب من الدولة بحقكم في التمرد!

قال باسما:

- لذلك كان زملائي في الطابور يدبون دبيب الجنود.

أيده صوت:

- كنتم تحرسون الحارسين!

- ومع ذلك لم يتخلصا من الخزرانتين!

- مانح الحرية مستبد يخشى استبداد الفوضى، ومن أحبها وأحبنا يجعلنا نثق في كفاحها ويترل بنا إلى ساحتها، ليس حرا من انتظر حريته أو فكر في رصيف انتظارها!

وداعبه معلمه مُلمحا إلى انتظاره لسوسن على مصطبة جامع المار

داني إلى حين رجوعها من المدرسة:

- من كانت حبيبته قمرا لا ينتظرها في رائعة الهروب!

ثم قال بوحده "بكليوس" ربة التاريخ:

- لقد قامت لنفيه ثورتان كالزعيم سعد زغلول!

يقصد ثورة جدته، وثورة أمه.

ثارت جدته له كسفيرة في دولة التوحد، وتوسلت بالوسائل: تشفع، ووساطة، وتواطؤ، وتستر، وتبرير، ودفاع، واختلاق للمشاكل مع الناظرة، ومع أمه، ثم تصعيد للمشاغبة حتى الهاوية أو بلوغ الغاية؛ ومن ثم أعادته من المنفى على رأس ثلاثة أسابيع، قد أدمن خلالها ترياق المخاطرة واستقلال الهروب، ثم إنه وحدها بمرضيه؛ فاستغلتهما فيما توسلت به. مرض صدره وهياجه من العطور والبخور، ومرض قلبه الذي أخطأ في وصفه طبيب أبو الريش.

كان يتناوب الكشف عليه هو وأكرم في فراش واحد، ولكنه حين وضع السماعة على قلبيهما؛ سبر داء أكرم، وأخطأ في دواء محروس. ولعامين تامين ظل صقيع السماعة يهتك أسرار قلبه بينما الطبيب لا يعي الرمز ويصف له وخز الإبر الخاطئة. أربع وعشرون شهرا والصبيان يسيران بين الأمين الثرثارتين، ثرثرتهما الجامعة لأخبار الفنانين والساسة ونوادر الدنيا، وكل ما يحدث في الشارع والدكان والبيت والسطح والمرتفعات..،

ولتلك الثرثرة واقعة تستبد بذاكرة الصبيين؛ فقد خرجوا من المستشفى وبينما هما يلهوان خلف الثرثرة العمياء، وإذا بأكرم يصرخ بهما: "القطار"

فاحتجزتهما الصرخة كأنها صدمة القطار الهوائية قد نحتهما عن القضبان، ولم تفيقا إلا وهما تستديران إلى الصبيين؛ فحمدت أم أكرم

ربها، ولعنة أمه السائق الأعمى! وكما انقطعت الثرثرة قهرا استأنفت قهرا حتى احتجز أمه عند ضريح الشيخ ريحاني بجوار المدرسة، وقال لأكرم:

- قل لها ما سمعناه من الشيخ لما رجعنا من المدرسة!

فقال أكرم:

- وربنا أنا لم أسمع شيئا!

أما ثورة أمه فقد وحدها بخياله، وخدعها بما تنخدع به الشعوب، أي إنه خدع نفسه لتصدقه؛ كما تصدق الشعوب أكثر الحكام خداعا لأنفسهم. ولما استهدفها بالخداع أولا كذبته.

كان ينظف كل شئ داخل قبو عم كامل. الحقيبة والكراسات والكتب والقميص والسروال والحذاء ووجهه وذراعيه، وقد يشرف على نظافته عم كامل وابنته نبوية "أم رفيقه ضياء"، وما إن يدخل البيت نظيفا لامعا يستهدفها بالخداع؛ تستهدف هي على الفور رأسه بأظافرها. تحكها ودون أن ترى لبد الجبل؛ تسأله عن الجورب؟

فيتوهم أنه ساحر سيخرج الجورب من الحقيبة على هيئة حمامتين هتفان بنشيد الصباح، ولكن حوزة الإثم كانت أطغى من سحر الوهم، فأخرج الجورب ملبدا بالطين والعرق و فراسة نظرها تعزله في وادي الضمير وأصواته اللوامة ، وما يدرى إلا وقناع الصابون يغمض عينيه على سحر الخيال، أو متاهة الصانع "ديدالوس" التى صنعها للملك "مينوس"؛ لتكون عذابه المستديم لشعبه، وبكل ما يحمله ضمير الأسطورة من وحى وندم قصها عليها وهى جواره بالمطبخ..

ويستثير عطفها رافعا رأسه من الحوض وبعاليل الصابون تقنع وجهه. يحتجزها كما احتجزها صدمة القطار، و يسرد تفصيلات الأسطورة سرد من تعذب بمتاهتها وهروبه إلى الجزيرة، ثم سقوطه على

صخرة بنات الماء..

لم يطمئنه صمتها وقلة حيلة الصمت، وإنما طمأنه تحذيرها المتكـــرر له من أضرار الصابون؛ فاختلس نظرة عوراء على وجههـــا المغـــرق في الخيال وإشفاقه العطوف. أحنى رأسه للماء مستأنفا السرد:

– تصوري، الملك كان مخادعا فقد حبس "ديدالوس" الصانع الماهر داخل المتاهة!

ويدير وجهه إليها فاتحا عينيه، فيعلو صوتها محذرا:

– تكلم بما شئت ولا تفتح عينيك.

فيقول:

– والغريب أن ديدالوس ضل داخل المتاهة التي صنعها بيديه!

حدثت نفسها: "أم وجيدة تتساءل عن مأساة صـــنعها القـــدر!" سألته:

– وهل خرج الصانع الماهر من متاهته؟

– خرج!

– بمهارته؟

– لا، لم تنقذه مهارته!

– هل احتاج إليه الملك فأخرجه؟

– لا

– هل ندم الملك؟

– لا

قالت باسمة:

– لعل خيالك أنقذه.

يردد كلام معلمه:

– القدر مريد كالخيال يبقى على المتاهة والإنسان!

- لعل الشعب أنقذه!

قال:

- بل، أنقذته الملكة وأرسلته سرا هو وابنه إكاروس إلى جزيرة نائية لم يدم بقائهما فيها، فقد أدركهما الملك محاصرا الجزيرة ليبقى الاثنان هدفا للهلاك بين السماء والماء!

- أو هلاك الاثنين؟

- لا.

- لعل الملكة أنقذهما؟

- لا.

- أو ثار الشعب وأنقذهما؟

- لا.

تبسمت وسكتت عن عبارة على طرف لسانها، فقال:

- لقد صنع ديدالوس لابنه جناحين.

ورفع رأسه من الحوض وبعاليل الصابون تطوق رقبته، ثم أكمل لها الأسطورة مجاهاً نظرتها اللامعة بفراسة الخيال. سألته بلسانه عن معنى المتاهة.؟

قال لها:

- المتاهة هي مهارتنا التي تصنع قدرها!

تبسمت قائلة:

- أوهى نفس إكاروس وخياله.

- و لِمَ لا تكون قوة الملك!؟

ناولته المنشفة وقالت مغتبطة:

- المهم إن إكاروس لم يُطع والده حين حذره من وهج الشمس؛ فصعد إليها حتى فك اللحام وسقط من فضاء الهواء وحطمته الصخرة.

فقال:

- بل، الأهم أنه ساعده على المطار.

أجابته:

- هذه متاهة أخرى!

فردد كلام معلمه:

- المتاهة تتسع باتساع الكون ولا يزال الإنسان يغادر مركزه وهو على بصيرة بالاهتداء!

عرف منها أن تاريخ هروبه قد عُنعن به، فكل من شاهده هاربا بالحقيبة وزى المدرسة كان له "عن" إلا حيلة وحماره الثالث! وأن سجل العنعنة محفوظ في حجرة اليمام مرصد النبآت وقمقم المتاهات!

غواية النفي تلك قد اختارها.

أما غواية الحرمان من "سوسن" فهي نياط[1] القلب المشدود في فضاء القاهرة؛ لمن شاء من طيورها البرية.

فهذا النياط مهبطها الدائم حتى لا تتوقف دقات الأجراس هنيهة عن العشق، وليشهد اليوم الثاني من النفي وقفة بينهما كوقفة الحداد. جليلة جلال الفراق، ومتوحدة توحد الذرة مساك التجاذب والانشطار.

دخل إلى مدرسته القديمة قافزا من السور؛ بحيث يتجنب عين عم بيومي ونبوته المؤرخ عليه أيام الهروب، واليوم الثاني للنفي، وقد اختار توقيتا ينشغل فيه الجميع بتنظيم صفوف طابور الصباح. صعد إلى حجرة الداده "نعيمة" وهى حجرة تلي شرفة المذياع كان يقضيان بها وقت الفسحة. استقبلته الداده بحفاوة من تذكر لجدته إحسانها ومودتها وطيبة قلبها. سألته متلهفة:

- أو أرجعتك الجدة إلى هنا؟

- لا!

حذرته مشفقة:

- إدارة المدرسة هناك شديدة على التلاميذ، ولا أحد يعرف جدتك!

ودق جرس الست الناظرة يستدعيها. لحظة ومرت سوسن في طريقها إلى شرفة المذياع؛ فالتفت بها قلبها حيث وقف به قلبه. قالت:

- قلبي كان يشعر بأنك هنا!

- وسيجدني متى ذكرني!

- أبله زهرة سعت أمس للصلح بين جدتك وأبله الناظرة.

---

[1] نياط: عرق بالقلب.

- وأنا سعيى إليك هروب.

- إنني أكره هذه الكلمة!

- وهى تحبك!

قالت متضاحكة:

- لما تعثر الصلح أمس استقبل الفصل كله أستاذ الحساب بكلمة "وحدوا "رافعين سباباتهم ولكن إلى أسفل!

- الميكرفون يناديك.

استعطفته قائلة:

- ارجع إلى المدرسة المؤقتة حتى تنهى جدتك الأمر!

- إنني لا أذكر شكل الفصل ولا الفناء ولا المدرسين!

تحركت إلى شرفة المذياع وتبسمها يسأله عالما بالجواب:

- كيف وصلت إلى هنا؟

- كما أهرب!

- قفزت من السور؟

تبسم صامتاً

قالت منقبضة:

- لقاؤنا بعد المدرسة داخل مسجد الماردانى!

مستغرقة هي للحظتها، ومستغرقة للأبد وقفة الحداد!

لم يغادر مدرسته كما تسلل إليها قافزا من السور، وإنما نزل من سلم الناظرة وعند الباب؛ شخص إليه عم بيومي ونظرته ترجف بالوفاء لجدته، سأله مستنكرا الجواب المعروف لديه:

- قفزت من السور؟

ونخس الهواء بنبوته صائحا:

- إن طفشت من هناك - يقصد مدرسة المنفى - لن تتمكن

جدتك من إرجاعك إلى هنا!

ونخسه مرة أخرى وقال زاهقا:

- هو أنت يا ابني مثل المِطلاق الذي يبحث لامرأته عن محلل؟!

سأله:

- يعني أيه مُححل؟

فنظر إلى رأسه سارحا في بلادته، وربما خياله المُجمع على وصفه؛ بأنه مثل الشعرة وهي تخرج من عجين المأزق والأكاذيب. فتح له باب المدرسة، وتربصه بنظره وهو يجتازه، ثم وهو يتلفت إلى نبوته المُشير جهة مدرسة المنفى، ويهتز بهزهزة تعد له أيام الهروب؛ فيومئ برأسه إيماءة الطاعة والامتثال، وهكذا انصاع لنبوته حتى إذا فرح بالطاعة؛ أبهته جانحا إلى جهة مسجد الماردانى.

لم يُفرط في التبسم، ولا منظر النبوت الفرح بعفريت الطاعة. أتى باب المسجد الرئيس المغلق؛ فجلس على إحدى مصطبتيه المتقابلتين يسترجع وقفة الحداد المستغرقة للأبد، ثم استغرق في لقاءاهما كل جمعة بالمسجد وهى بصحبة أبويها المبهورين بما في كراسة شذور الخيال؛ من سَوانح ظنها مُقتبسة من قلم معلم الكتاب. سأله والدها:

- أنت من يكتبها أم الأستاذ فلان؟

فقالت سوسن باسمة:

- هو الخيال والأستاذ القلم!

وسألته والدهَا:

- والهروب من المدرسة خيال أم واقع؟

قال الأب ضاحكا ومعفيا أبنته من الرد:

- لا هو واقع، ولا هو خيال. الهروب ظل يطارد محروسا!

قال باطنه: "أو أنا ظله مادامت الشمس في السماء".

عادت الأم تقول بنبرات حادة كأنما تهدده بقطع مذاكراتهما بعد صلاة الجمعة:

- الهارب يسيء إلى أسرته وإلى نفسه وإلى زملاءه!

والتفتت إلى حقيبة المدرسة وقالت:

- ولِمَ تحملها في يوم الأجازة؟

قال باطنه: "لكي تذكرني بالهروب!".

قالت سوسن:

- إنها فارغة إلا من كراسة الشذور والكتب التي نذاكرها!

وقال الأب باسما له:

- المدرسون يعترفون بذكاء محروس، أما ابله زهرة فهي تعتبره نابغة المدرسة!

اعترضت الزوجة:

- أيوجد نابغة يحصل على درجة واحدة في الحساب من أول العام إلى أخره؟!

تسأل باطنه: "لماذا ارتقى الكتكوت النقار قمة الأصابع المضمومة؟ وهل انتهبته الحِدأ من فلول الكتاكيت في ضحى الهرب الأول؟

قالت سوسن:

- كثير من النوابغ تعثروا في دراساتهم!

نظرت والدتها إليه قائلة، أو مهددة:

- المدرسة في هذه السن أهم من النبوغ. لا تسيء إلى.. وإلى.. وإلى!

بعد صلاة الجمعة استأنفا المذاكرة. وقد شرحت له مسائل الحساب، ثم اختبرته بمسألة ضاحكة كأنما تتحدى أمها؛ ولكنه لم يستبدل بقمة الواحد قمة. وقد يفاجئها قائلا وهو على جناح الخيال:

- أنا تمنيتُ على بنات الماء أنا تنقل البيانو بين أشجار الكافور!

فتقول باسمة:

- أو تريد مني الهروب؟

فيقول:

- بنات الماء هن اللاتي يردنك!

- لكي يبكين علي كما بكين إكاروس؟

- لقد حولن الصخرة إلى موجة طافية!

- لبيانو المدرسة أيضا بنات ماء!

يسألها:

- ولهن إكاروس؟

كان قلبه نواة لملايين من أجزاء الذكرى السابحة حوله، وكما تسبح الأجرام السماوية سبح على صلوات من أذان الجمعة، وصلوات من أذان قلبه..

مازال وقت المرواح بعيدا. نهضت به من المصطبة همة الهروب، ومتاهة الخيال متذكرا سؤله للأستاذ:

- أو صحيح دماء المماليك جرت في شارع الدرب الأحمر؟ فضحك ووعده بزيارة يتتبعان فيها مجرى الدماء من باب المذبحة وحتى بوابة المتولي، حيث يرقد حيلة في غفق النوم وأحلامه الفصيحة. مضى قدما في سكة الوزير، أو سكة الزيارة العالقة بذهنه كبوق اغتيال يحرك بلايا التاريخ. تهزهز البوق بهزاهيز الفتن التي يهتز فيها الناس؛ فخطر له نبوت عم بيومي وهزهزته بأيام الهروب، وتصور إبراهيم أغا حارس باب العزب، والمُكلف من قبل محمد على بإغلاقه في لحظة المذبحة الحاسمة..

كابد خياله اللحظة التاريخية، أو لحظة الباب المنطوي على صهيل

الخيول وأزيز الرصاص؛ حتى بلغه ووقف بين رتاجيه المصروعين على مستنقع آسن خاله مستنقع دماء.

يا لهول النجاة!

سبيلها ضاقت به رحبة القلعة، وأغلق دونها رحبة الميدان!

كيف نجا أمين بك على جثمان فرسه؟

بل أين وقف إبراهيم أغا؟ وهل كان معه نبوتا كنبوت عم بيومي يؤرخ عليه عدد القتلة من قادة المماليك؟

يا عجز الخيال! بأي شيء سيتوحد؟

بمنحدري الصخور، أم بطائر الخطاف المارق من أبراج الباب؟ هنا تكلمت ربة التاريخ بلسان معلمه، وهنا نقب معها في الصخور، وهنا ألهمته بمشهد سمع بوق اغتاله من جهات الشمس الأربع. رص صفا من الأحجار وتنقل فوقها عابرا الطين الآسن..

هل للدماء رائحة؟

منعرج المنحدر الصخري الوعر، جبانة نُحت في صخورها صراع البقاء، وصراع الاندحار!

إنها يد كليوس أو يد المصادفة تصطفى للمماليك، منحدر اغتيالهم.

لقد أرهقهم الاغتيال صعودا؛ وإذا به يرهقهم هبوطا! يا هول النجاة من النفس، ومن مرايا صخورها المطبقة بالمنحدر وجانبيه الوعرين. تسلق الجانب الأيمن وجلس يدون في كراسة الشذور مشهدا عنوانه:

"مرايا الصخور"

ويستهل وباب المذبحة يقف به اثنان يتوهمان أن الباب مغلق:

أحدهما من الداخل والآخر من الخارج، وكلاهما يدق وهم الباب مذعورا، كأنما يفر من هول يتعقبه!

الذي بالداخل يصيح:

- في عرض الحرم افتحوا الباب!

فيجيبه الذى بالخارج:

- في عرض الحرم افتحوا الباب!

- أنت مجنون، دعني أخرج.

- المجنون هو أنت، فدعنى ادخل!

تتناهى إليهما دقات وهزهزة تتحرك ظناها بعيدة!

من بالداخل:

- ما تلك الدقات؟

يجيبه من بالخارج:

- لست أدرى!

يصيح:

- في عرض الحرم أخرجنى من هنا!

يجيبه:

- في عرض الحرم أدخلنى إلى هنا!

يأزف وقع الدقات وهزهزتها المتحركة ويستشعران دبيبها في قدميهما؛ فيصيحان معا:

- الدبيب في باطن الصخور!

يُطرقان معا، فيرى كلاهما نفسه في مرايا الصخور، ويباغتهما الحارس قائلا:

- إنها اللحظة الحاسمة فهل يأذن مولاي بإغلاق الباب؟

فينظر محمد علي في منحدر الاغتيال، ويذهله باطن الصخور؛ فيسأل إبراهيم أغا:

- من أنا أيها الحارس؟

فيقول:

- أنت مرآة الاغتيال يا مولاي!

طوي كراسة الشذور على الحقيبة مُتفكرا في النجاة، ثم قام ليمارسها وتسلق مكتنف الصخور على أربع متوحدا بفرس أمين بك، ويعيد الكرة والنجاة مهولة!

حمل الحقيبة ساعيا إلى سور القلعة، حيث قفز الفرس. بلغه ونظر أسفله؛ فألفى الأرمد الثاني مُصمَ بتيار الكهرباء. تحول إلى الهوة بين مسجد الرفاعى والسلطان حسن، وتصور الدماء تجرى بها كما تصورها الناس، وصدق معهم أن الشارع اسمه الدم الأحمر..

سأل عم نحمده الشيخ حنفي:

- أصحيح أن دماء تلك المذبحة جرت أسفل الكتاب؟

قال:

- أكاذيب الناس هي الوجه الآخر لصدقهم!

فقهقه عم نحمده وأومأ إيماءة الجزم قائلا:

- أي نعم، وصدقهم الوجه الآخر لأكاذيبهم!

وسكت لحظة ليقول:

- الحقيقة كحزن أم وجيدة ثكلى لا تمل النواح!

ثم نفخ نفير سيجارته ليتوهج في ليل الحارة وجهه، ويتشكل الدخان على أرجاء الوهج كأنه أرواح الأموات تتزايل متلاشية في صمت مخيف.

رجع قاصد أبراج باب المذبحة، وقد عزم على الصعود إليها، واستكشاف أعشاش طائر الخطاف المستعرض فضاء الرتاجين الهائلين. دار مع منحدر الاغتيال الصخري هبوطا وأصوات غريبة تتكاثر وتسرسع وتستخب وتهيج وتصرخ؛ كأنما قد انخسف سور مدينة "باب

الأبواب" عن يأجوج ومأجوج.

أو انخسف عن تلك البناية الغائرة في الصخور والصادر من نوافذها المتهدمة ذلك الصراخ المتكاثر كرمل البحر. تهيب النزول إلى غور البناية وحازها منحدرا مع المنحدر والصراخ يذكره بهول النجاة وبوق الاغتيال. ترك غور البناية وراءه حتى بلغ ساحة طائرا الخطاف؛ وإذا به يسمع هتاف دكة المطالعات:

"من عمل للخطر مُجازفا عمل له الخطر متدبرا ". تمالك خياله مُنجذبا كأنما سيرى "مدينة باب البواب" وسورها المُنخسف عن يأجوج ومأجوج. اشترى علبة ثقاب وجمع بعض الخرق، و ارتد به الفضول من فوره إلى ساحة الخطر ومراميه. نزل إلى غور البناية وفحصها تفحص الرحالة المستكشف، ثم جرب وسيلة جدته في طرد الذباب بالدخان وأشعل الخرق، ورمها من النوافذ المقببة، ولم يكد يفرغ من رمى الأصوات المُستبشعة حتى اكتشفها؟

إنها خفافيش كرمل البحر انطلقت من النوافذ قاطبة تصرخ وتموج وتنجذب للبناية مطوفة بها كأنما تترقب فراغها من الدخان..

استرق النظر إلى نضالها ودقته المتناهية وهى تطوف كسحابة مُسحمة لأصواتها حثيث يفل أصفاد الظلام التي غلتها عهودا، ولمح من وراء دوامة النضال تلك المئذنة الهيفاء الصاعدة في السماء. مئذنة الباشا.

لم يبرح غور البناية حتى تبدد الدخان ومرقت الخفافيش من قباب النوافذ إلى أصفاد الظلام. دقت أجراس قلبه كأنها أجراس المرواح، وتعجل أذان الظهر للقاء سوسن. فصعد إلى منحدر الصخور، وهبطه إلى الباب المصرع على الماء الآسن. خرج منه واخلفه وراءه زاهدا في المذبحة كما يزهد الخيال في الحقيقة.

فُتح بابا مسجد الماردانى المتقابلان، كان همه صعود المئذنة ليطل

على شرفة سوسن، ولكن التصاق دهليز المئذنة بحجرة الشيخ أفشل مناوراته جميعا، وقد ضاق الشيخ ذرعا بقميص المدرسة والحقيبة، وبنظرات محروس الحالمة المناوئة، وهيامه المفتعل بمذهبات السقف ونوافذ الجص المضيئة، والأعمدة ومصطبة الخطبة الرخامية، وتلصصه خلف الحاجز الخشبي..

انتبذ جوانب المسجد وهو أيس من تهجم الشيخ، وشأفة خصامه. أخرج كتاب القراءة، وقرأ وكتب ولكنه رمقه والبصر في البصر.. صاح به:

- التلميذ أبو حقيبة!

فقام حاملا كتاب القراءة مفتوحا على موضوع الطيران، ولما تواجها عند المنبر؛ سأله ونبراته يسيل لعاب تهكمها:

- هل ذاكرت؟!

قال باطنه: "بل توحدت".

أجابه:

- وعرفت أول من طار في السماء.

- بالتأكيد ليس هو من يهرب من المدرسة!

- بل كان هاربا!

- هاربا.؟ لعلها خيبته التي هرب منها!

- بل هرب من الملك.

- وأنت ممن هربت؟ من ملكة النحل؟

رمقه متبسما وراقه أن يوحده بخياله فسمع تهديده:

- إنني أعرف الست الناظرة تمام المعرفة.

قال باطنه: "وأنا أعرف شجرة الدر".

- إنني أعرف أختك التي تذكر معك بعد صلاة الجمعة!

قال باطنه: "وأنا أعرف بنات الماء".

سأله مشيرا إلى دهليز المئذنة:

- هل رأيت طيور المئذنة؟

فأشار إلى رأسه قائلا:

- بل رأيت طيور رأسك وخياله الواهم!

فأسمعه كلام معلمه:

- الخيال محض عاطفة كوحى الله إلى النحل في الجبال!

قال مقلبا كفيه:

- أتسمى وحى الله خيالا!؟

- أنا أقصد أن من أحب النحل كحب الله استطاع تكليمه!

فرفع ذراعه كنبوت عم بيومى وقال:

- وفيمَ أتيت المسجد و لم تذهب إلى الجبال؟

قال باطنه: "المئذنة كالجبل والجبل كالوادي المقدس طوى".

أجاب:

- رجوت الله أن أصعد إلى المئذنة!

- أهربت من المدرسة لتصعد المئذنة؟!

قال باطنه: "إنني منفي".

أجاب:

- لست هاربا!

- أنت مريب وبك جراءة غير معهودة من أترابك!

قال باطنه: "أبقني معك حتى التقى بسوسن"!

هدده بأبيه الذي مات:

- أنا أعرف والدك تمام المعرفة وسيكون لقائى به بعد صلاتي بالناس!

قال باطنه: "اعتبرني من الناس".

وقال وذراعه يزجره:

- لا تبق بإثم الهروب في بيت الله!

- سأذهب وأتوضأ.

- ليس لهارب وضوء!

رمقه الشيخ وباطنه يردد: "إنني منفي.. أنا منفى".

ثم تهيب رمقة الصقر مردداً:

- أنت مريب... أنت مريب!

أغربت جدته في الضحك وعم بيومى ينقل إليها ما وصف به ابنها في الصباح، من أنه كالمطلاق. تمالكت وأفهمته:

"إن الذنب ذنب زوجيه العجوزين!"

تقصد مدرسة الهروب ومدرسة النفي. بينما كان هو وراء الطبلية ينقل لمعلمه وصف أمه للهروب:

"هروبك من المدرسة تسول مشين. أنت تتسول اللعب كما يتسول المُلحفون نقود الناس. اللعب ليس لعبك والنقود ليست نقودهم!".

فقال قائل من الندوة:

– النقود نقودى أنا!

– قياس وجدانى معقول من الأم!

– لذلك نقود الشحاذة بلا كيس!

– ومسكين اللعب لن يجد من يتسوله!

شجعته هذه العبارة أن يقول:

– أتؤمن بهذا ولا تؤمن بأنها تتسول منى حريتي؟ هذه الحرية ليست حريتها إنها حريتى أنا!

– مسكينة الحرية لن تجد من يتسولها!

قال المعلم مخاطبا الندوة:

– الحرية ليست قصورا ذاتيا، وإلا كانت قيدا بشعا، هاكم البحر المترامى أنه لا يستطيع إلا أن يكون حرا، ونحن نحب حرية أمواجه ونتهيبها في آن. نحب جمال حريته، وجلال انقياده وتناغمه مع سريرة الكون وظاهره، أو توحده بحرية أكبر؟ الجليل في البحر أنه ليس حرية واحدة، وإنما لكل قطرة فيه حرية تؤمن بنفسها ولا تستغنى عن كل حرية معها وفوقها؟ وأنت لن تكون حرا بغير جمال، ولن تكون جميلا وأنت مستغنى جائر. شعورك بالحرية لا ينمو إلا مع غيرك، وشعورك

بالحب لا يدوم إلا مع غيرك، وشعورك بالسعادة لا يكتمل إلا مع غيرك، ولكنك تموت فردا في استغناء التهدم! الاستغناء قطب الموت. الخلود لن يكون خليقا بالاحتفاء بغير حريتنا المتناغمة المنقادة للكون، المنقاد في ذاته للمشيئة الكاملة. الحرية تنقاد للمشيئة دون أن نصفها بأنها نقص أو حرية ناقصة، ثم تبسم للمتوحد بالحرية وقال له:

- بنفس الفرحة التي غنى بها العصفور لنفسه يغنى مقاطع غيره لهذا فهو محبوب جميل، والجليل من ينقاد لحرية العصفور كأنها حريته. الله يحب حريتنا لذلك فهو جليل.

ولما غادروا السطح أجلسه على دكة المطالعات وقال له:

- كم يوم حرمت نفسك من المصروف وادخرته لهدية سوسن؟ ألم تكن أسير عيد ميلادها مضحيا بحريتك مختارا؟ وماذا لو رفضت هديتك؟ أكنت تصعد سطح المدرسة وتقول لنفسك: "لا تغنى الأجنحة عن الطيران"؟ أجل، فما أغنت الأجنحة عن الطيران، ولكن الطائر الذى يعيش الحرية في نفسه ولا نراه في السماء فلماذا يطير؟ ليست الشمس هي التي أسقطت إكاروس، وإنما سقط والصعود يحوله إلى نقطة ساكنة ضئيلة في فضاء الحرية. اخفض جناحيك حتى تراك بنات الماء فربما أسرعن إلى الصخرة وحولنها موجة طافية!

خلال أسابيع النفى أوفى توأمه من الجنود بعهده وعلمه ركوب الخيل. وكان أول شيء رصده بالمنظار الذي تحسسوا به عليه وجه أم وجيدة حيث تجلس على كنبة شباك المرتفعات. تركه الجندى ينظر إلي وجهها طويلا ثم قال:

- العمر في وجهها رتيب بينما الحياة خفاقة!

ثبت المنظار على سطح "ضياء" صريع أرجوحة المولد، وصغير "نبوية" ابنة عم كامل. ضياء هو أول من طيرَ معه الطائرات من السطحين، وأول من حرر معه الكتاكيت من البيض المسروق من عشش السطحين، وأول من بنى معه ملعب الكرة بمرعى دولة الأغنام.. هو الأول في وهلة الحياة والأول في وهلة الموت!

حول المنظار إلى المئذنة الفريدة وشرفتها ذات الأوكار، يقال إنها لمسجد الرفاعى القديم؟ وهو مسجد عتيق حقا وبه خزانة مكدسة بالكتب، وبئر، وحلق مئذنته أنبوبى مكشوف، طالما صعد فيه هو وأكرم حتى كانت مخاطرة الحدأة التي تصنعت الموت؛ فكانت نجاتها انتصارا له بأمر أم وجيدة. سألتهما مرة في حجرة اليمام:

- كيف تصعدان في حلق المئذنة؟

فأجاب أكرم بأنهما كانا يستعينان بإطار عجلة يضعه محروس في خصره، ويحتجزه به أكرم حين يخرج من قُمرة في الحلق أسفل الشرفة المكتظة بفروخ الحِدَأُ، والواقعة بين المدرستين: ذروة النفي، وذروة القبلة..

لو أنها وثبة طائر برى؟ بيد أنها وقفة طائر حيران! أجرى المنظار على سور القاهرة وأبراجه، ثم رصد القلعة والمئذنة الهيفاء، وأجاله في الوهدة الرحيبة مليا، وشعر بوطأة الدهر على بقايا حضارتها، وعلى بيوتها القريرة الوديعة أسيرة القدم. ولم يبالغ وهو يقول للجندي:

- أكاد اسمع صرير الأصفاد. وكثيرا ما أغمضت عيني وأنا بحافة أشجار الكافور لهتاف دكة المطالعات:

"أنت الذى تسمع وتتوجع، بينما هي قريرة قرارة الحكمة. الأصفاد أصفادنا نحن، وهى التى تشاهدنا وتكلمنا وتأسرنا.. إنها الحياة الملهمة المطاولة للقرون، أوهى البلاغ المبين، لمن كان له قلب وخيال. صدق إن القدم يرصف في أصفادها الملهمة..".

قال الجندي:

- صدق معلمك، وإن كانت وهدة القاهرة جامعة لنقائض الصراع. شعورنا بها شعور واحد، ولكنه ما يلبث أن ينشطر ويواجه بعضه بالبقاء والفناء، والعزة والذل!

وهما يهبطان بالحصانين من جناح المرتفعات إلى قمة التل المنخور بريح أموات طمست هويتهم؟ كان يكلمه عن الطاهر، ثم قال:

- كلما تزحلقت من قمته أشعر أن موته قد شبه للناس، وكلما ألقيت في جوفه حجرا بحجم جمجمة؛ يغور بلا أدنى صوت، فأهيب التزحلق ومنقلبه الصموت!

قال الجندى واصفا وهلة التزحلق:

- هي مخاطرة فيها من جد الحياة ومهابة الموت، وهكذا يكون اللعب المبكر حافزا لإرادة الحياة في أن تفعل وتُمحض رغبتها بين روعة الحياة ومهابة الموت وكلاهما قريب من قريب!

ثم ردد النظر فيما بين أبراج السور والتل، وقال:

- حياتنا ممزوجة بحضور الموت الأبدي، ويبدو أن حياتنا مؤجلة باختيارنا، إلا أن تكون شهادة، أو غيرة نباهى بها الأمم!

قال حيران:

- بأقل الريح يهبط علي بيتنا ثرى الأموات من ذِروة تحوى محتضر

الحضارة ومخلفات أفراها!

- واقعنا مغرق في حسية الموت والحياة؛ فهلم إلى اللعب البكر ووهلته المروم، ولكن احذر من الوهلة الصموت حيث يكون موتك بلا صدى!

ثم هيأ حصانه للتسابق صعودا في جناح المرتفعات قائلا:

- هلم!

وكانت أخر كلمة سمعها منه.

انتظم أياما بالفصل، ثم وجد نفسه ينضوي إلى الثكنة، ومن خلال أسلاكها لاحظ تفكك الخيام وتكومها، وانخراط الجنود في حمل المعدات والمخل إلى عربات عسكرية. الثكنة على أهبة الرحيل، ولكن إلى أين؟ لا أثر لتوأمه أو جندى واحد ممن أكملوا له أيام الهروب. أنسرَبَ من أسفل الأسلاك ولكنه ارتد من فوره، ثم هبط في جناح المرتفعات إلى التل المنخور الصفصاف بملساء ناعمة نعومة الموت. قضى بكرة النهار مُنهمكا في التزحلق ولم يغب عن باله تلك الصخرة "حقيبة المدرسة ".

حملها من قمة التل. أي من حيث انتهى سيزيف[1]، وانزلق بها إلى حيث بدأ هو هاتكا سرا بشريا، وليس سرا من أسرار الأرباب!

الأفق بين السطح والمرتفعات في ديمومة أشجار الكافور العملاقة.

لهامتها نجوى وقرار مكين. تدوم الحِدَأُ أعلها كمرسلات بين عالمين؟

وبالخلاء المنظور برج المراقبة "قمقم الخيال" المتوحد بغوارب

---

[1] سيزيف: بطل إغريقي حكمت عليه الأرباب بحمل صخرة، وما إن يصعد بها القمة تنحدر ويعاود الصعود بها.

التاريخ، وأغلال الفتن، ودفوف الدراويش، وعطور الحريم..

استوي بكراسة الشذور على دكة معلمه الغائب عن السطح وقرأ للندوة مشهد:

"التل المنخور"

ويستهل بأصداء تصدر من قاع الأموات الأملس.

أصداء تزين لكل عابر أن يحمل تلك الصخرة بقمته ويهبط بها، ويتوافد العابرون، ولا يجسر عابر على حمل الصخرة، وإن جلس إلى جوارها يزين لغيره حملها بأصداء تصل إلى قاع الأموات كنخر الريح للعظام النخرة..

ويختتم المشهد واللغط يسود سفح القمة، فلا يعرف الأموات بما تؤوب الأحياء، ولا يعرف الأحياء بما يؤوب الأموات؟ وإذا بعابر جديد يصغى إلى الأصداء فلا يعى منها شيئا، فيبسم من غموض اللغط وعبث تماديه، ثم أقبل على الصخرة يحملها ويهبط بها فيما انفسح له من سبيل إلى الأموات.

قال قائل:

- هي إذن صخرة العقاب حملها سيزيف إلى قمة كالمنحدر وحملها العابر الجديد إلى منحدر كالقمة!

- ولِمَ نسميها صخرة العقاب، ولا نسميها صخرة المعرفة؟ أرباب الأساطير كآبائنا يشفقون علينا من مكابدة المعرفة، ومع ذلك يبتاعون لنا الكراسة والقلم!

- المفارقة في خيال صاحب التل المنخور أن حامل الصخرة لابد أن يمر على الأموات، وكأن همته وطموحه ونجاته مرهونة بهم. وما أحسبها إلا صخرة العبرة المتوارثة، فليس العقاب من أولويات ذلك الخيال، ألم يحمل هو الصخور: صخرة المدرسة، وصخرة الهروب،

وصخرة الخيال؟

ثم التفت إلى حمال الصخور وسأله:

– ما الذى أعجبك في سيزيف؟

قال:

– أعجبني في الأسطورة شيئين: بلوغ سيزيف القمة، وانحدار الصخرة منها. فبلوغ القمة عمل سيزيف، وانحدار الصخرة عمل الآلهة، وحسب سيزيف أن يقترن عمله بعمل الآلهة!

حين قال لمعلمه من وراء الطبلية:

– إننى قد أفهم عقاب الآلهة في الأساطير، ولكننى لا أفهم عقاب الإنسان للإنسان. أنت قلت أن الناس بنوا لإبراهيم الخليل أخدودا من النيران، وبذلوا رأس يحيى الطهور من أجل جسد راقصة مبذول، وقد أخرجوا الأنبياء جميعا. أنا لا أحب عقاب الإنسان للإنسان!

فقال:

– عقاب الآلهة قضاء بالحرية، وعقاب الإنسان قضاء على هذه الحرية القدرية!

و"لكليوس" ربة التاريخ موقعها من السطح.

تساور خياله على قمم من السحب كجبال الاولمب. ويتكلم الشيخ حنفى عن يمامتى نوح عليه السلام؛ فيصدق أن طائر "الوطواط" ينبئ كليوس بحكايات المقاهى، والمساجد ،والكنائس، والكتاب، وقبو عم كامل، وحوش أم وجيدة المعلق ببابه تمساحا محنطا!

كان وراء الطبلية يردد بصره بين سحب كليوس وطائرها المارق ذهابا وجيئة كأنما يسمع حديث الندوة. داعب معلمه بنات ذهوله:

- هل حضرت كليوس؟

تبسم وفاجأ الندوة بهذا السؤال:

- هل عاصر عم نحمده خيمة آبائه خارج سور القاهرة؟

- يُسأل في ذلك الملك الصالح، لأنه الوحيد الذى بنى مسجده خارج السور.

- أتراه اقتدى بجد من أجداد نحمده؟

- ولِمَ لا؟ وقد ندموا جميعا على ذلك كما ندم الملك!

- ولكن نحمده لا يندم ويجزم أنه بنى دكانه خارج السور؛ ليظل الناس يعتقدون أنه سفير مُبعث من ملك الموت!

واستشهد بقصة الشقي الذي حُكم عليه بالإعدام؛ فكتب إلى عم نحمده يقول:

"وكيلى رب يوسف، إذا قضى الأمر أوصيك بإخراجى من الدنيا كعريس، وأنت تعلم ما أودعته عند "حيطه الحداد" الخلخال يا عم نحمده. استرده، وأعرضه على التى رفضتني، وأنا حى ظالم، فإن رفضتنى وأنا ميت مظلوم، ولم يشفع لى عندها أننى ما حزنت على ضياع الحياة حزنى على فقد حبها وتوقف قلبى عنه، إن رفضتنى يا عم نحمده؛ علق الخلخال في نعشى وسلمها هذه الرسالة:

"إن سمعت رنته ودعي روحي بنظرة أخيرة من الشباك".

ويمرق طائر الوطواط، فيكلمه محروس من وراء الطبلية:

- قل لها تقبل الخلخال!

فتقبله، ولكن صاحبه لم يخرج من الدنيا كما قدر لنفسه، وإنما دخلها عريسا يُزف على "رنة الخلخال" كما شاءت شجرة المصادفة، إذ تلقى عليه من وراء حجاب ورقة نجاته من حكم الإعدام.

سأل السجين عم نحمده:

- أو أخذت الخلخال يا عم نحمده؟

أجابه:

- أخذته يا بني!

فغلبه النشيج وهو يقول:

- صدقني، يا عم نحمده أنا رأيت سيدنا يوسف، وبشرني ببراءتي وزواجي منها!

وقد نسى الناس زفة العروسين، ورنة الخلخال، ورؤية سيدنا يوسف، ونسوا ورقة المصادفة وشجرتها تورفهم بظلالها، غير أنهم ما زالوا يذكرون سوانح أخيلتهم المُفسرة للنجاة.. كأنما الحقيقة الحاضرة، كالخرافة الغائبة، يستطيعها الخيال والقدر!

ويمرق طائر كليوس بسرعته الفائقة، فيذكر مرض الشيخ حنفى وسؤاله للمعلم:

- أكانت مصادفة أن يمرض الشيخ حنفى وتصبح أنت معلم الكتاب؟

فهش وجهه لتدبير المصادفة قائلا:

- حقا كانت نادرة أن يمرض الشيخ، وأندر منها أن يأتمن أحد عليكم، فقد ماطلته الحكومة مرات في المعونة المخصصة للكتاب، ثم طلبت منه توزيعكم على المدارس، ومعاهد الأزهر، ولكنه احتفظ بكم غير عابئ بما يكون من الفاقة والعافية!

وكم من صباح عبر قبو مسجد أبو حريبة، ولتوه انعطف مستقبلا سلم الكتاب المنطوى بين جدارين يضيقان به، ويصماه عن نُهيرة القبو أسفله وحجرة الدرس أعله.

درجاته قائمة كمنحدر خطر! وقد تبلغ الواحدة حجمه إلا قليلا، ولا يدرى لما تركوه يرتقى تلك الدرجات وحده؟

وكان وقوف أخته خلفه على باب الكتاب ادعى للتعثر والرعب؛ إذ كان جل اهتمامها تعجل ارتقائه بتشجيع كالانتهار، ونظرة مذعورة من التأخر على مدرستها.

بكورة الارتقاء تلك على ما شابها من رعب وتعثر وانتحاب؛ إلا أنها كانت ماضى الذاكرة المجيد، وعزيمة الخيال لدى كل ارتقاء وكل خطر مطير، وهى السبيل إلى حماسة الإنشاد الجماعي، وبهجة الغرور اللتان كرسهما معلم الكتاب للقضاء على ذهول الانتحاب، و تطويع عاطفة البكاء لشعور بالثقة والاجتراء، فلا يتلقاهم في حجرة الدرس إلا وحماسة الإنشاد من الصغار؛ تقفو إيقاع نبراته ارتفاعا وهبوطا، وتارة تسلس حماستهم له، وتارة تستقل بنشوزها وروعتها، بينما هو يزكيها بإيماءات الاندهاش، وهزل الاحتجاج المحرض على الاستقلال، ثم يغمر الجميع بحفاوة الإعجاب.

ولا يسألك إلا لتتنبه أو تتذكر، وإن كان تعاونه معك أسرع من تذكرك، وقد يجعل الإجابة مدعاة للتنافس والمكافئة، أو يجعل من نفسه هدفا لك، فيحاكيك في جهلك، وشرودك، وإيمانك بالمحاولة، ثم فرحتك بالتذكر وإصابة الإجابة..

ويسأله محروس:

- لِمَ يسكن الوطواط سقف الكتاب؟

فيقول للجميع:

- لكى ينقل أخباركم لأمهاتكم.
- الوطواط يقول لهن كل ما يحدث هنا؟
- كل شيء إلا البكاء!

ويستجيب لحماسهم واندفاعهم إلى عقدتي النافـــذة الـــشاسعتين؛ ريثما يراقبون الوطواط في سرعته وجراءته، ويومئ إليه وهـــو يأكـــل ويشرب ويستحم على جناح الهواء..، ولكن صغيراً آخـــر يـــومئ إلى طيور مسجد أبي حريبة ويسأله:

- لما تسكن هذه الطيور المئذنة؟
- لأنها طيور برية!
- يعنى أيه برية؟
- لا أحد يملكها.
- ومن يصطادها؟
- لا تأكل عنده ولا تبيض!
- حتى تموت!

فيقول لهم:

- لا، إنها لا تموت أبدا في يد أحد!
- وأين تموت؟!
- على جناح الهواء!
- الهواء ليس له جناح!
- بل له أجنحة كثيرة!
- وأين هي؟

فيسألهم لامحا محروسا:

- من يجيب على هذا السؤال؟

فإذا بمحروس يُمزق ورقة من الكراسة ويلق بقصاصتها من النافذة

وهو يقول لهم:

- هذه هي أجنحة الهواء تطير بالقصاقيص!

ويمرق الوطواط بسرعته الفائقة من قبو أبي حريبة؛ فيرددون من تلقاء أنفسهم هتاف الطير:

"الطير على غروره المحبوب ما لم يقع في الأسر..". وبعد حين ردد هو هتاف الإنسان من ذِروة المرتفعات:

"والإنسان مع فضيلة الغرور الناشئة متى كان الغرور نقيض العجز والتفاهة والتطاول والادعاء"

ويتكلم عن البحر ثم يبسم له من دكة المطالعات قائلا:

"وللبحر غرور محبوب ما لم ترهبنا قوته المجهولة، وللزهرة غرورها ما لم يُقبضنا هون ذبولها!".

بعثته جدته إلى أم وجيدة بأكواب العاشوراء، ونبات عباد الشمس، وكيس السمسم، وأعشاب الكافور. كانت بالطرقة المكشوفة تفلي أذني الكلب "حُنجُل" وتغط الملقاط في صفيحة الماء؛ فيطفو القمل البني والرمادي سابحا مرتعشا، وقد سمته "حُنجُلا" على اسم أبيه "حُنجُل" كلب الطاهر، وهو على خلاف ابنه لم يترل إلى الحارة ولو مرة واحدة، واكتفى بالتطلع إليها من سور السطحين:

سطح أم وجيدة، وسطح البدوية، ومن فوق سورهما تعددت صداقاته مع كلاب رآها، وكلاب جاوب أصواتها ولم يرها؛ لذلك كان أي نباح يتردد في الجو يُستهدف من حُنجُل الأب حتى أمكنه من خلال ترددات النباح ومناجاته أن يستدرج كلبة عم "إيران" من سطحها الرابع..

ولما فقد الطاهر وقع حدثان في حياة "حُنجُل" الأب: أولهما هجرته من بيت البدوية إلى بيت أم وجيدة، وقد أخذ في فمه قميص الطاهر، ووضعه بتجويف حائط بين كنبتي حجرة اليمام كانا ينامان داخله، والحادث الثاني سقوطه من سور السطح وكسر رجليه؛ فحملوه إلى أم وجيدة تجبر كسره، ولم يكد يتماثل للشفاء حتى تجرأ ونزل إلى الحارة بعدما ذاق حلاوتها!

أبقت له أم وجيدة قميص الطاهر في تجويف الحائط "إيلاف الذكرى" كما تصفه، فكان يلوذ به مختارا آمنا، أو هلوعا هاربا من خرطوش البلدية، أو لاهثا جريحا من معركة، أو مدبرا من شهوة قطعها عليه السابلة، وربما لاذ به ليسكت غضب أم وجيدة. استفزته حمامة دأبت على نقر أهدابه المغمضة على عينه المتصأص-أة، وزام، وهرهر بفراغ صبره، ثم كشر عن أنيابه وانتفض يهاجمها، ولكنه ارْعَوى لاوياً أنيابه عنها وأم وجيدة تردعه وتوبخه؛ حتى انسحب في انكسار ظاهر،

ولبد بالطرقة يسمع استنكارها المتواصل، ثم وهى تقول وعينيها في عينيه:

- هل جننت؟! كيف تهاجمها وأنا بينكم؟

فنكس رأسه كأنما وعى ما في نظرتها من أسى، وتلهمه غريزة الإيلاف؛ فيبدل الأسى ذكرى ملتاعة في عينيها ويلوذ بإيلافها منكسرا، أى بمرقده هو والطاهر في تجويف الحائط. وكانت هي تختبر وفاءه وتخبئ القميص في الدولاب؛ فيعود من الحارة ودون أن ينظر إلى تجويف الحائط ينعطف إلي ريح القميص، ويشخص للدولاب يتشممه ويستروح الرائحة الدفينة، ولا يجرؤ على فتح ضلفتيه بأظافره، وإن تجاهلت أم وجيدة نظرته المستعطفة وتكاسلت مسترخية على السجادة، فعل مثلها واسترخى أسفل الدولاب!

أشعرتها وقوقة "حُنجُل" الابن أن زائرا معروفا يرتقى السلم..، تراءيا على تبسم حفي كأنما كانت تتعجل حضوره بأكواب العاشوراء. وقف على آخر درجة يسمع سؤالها:

- كم كوبا أكلت؟

- العاشوراء لا تزال ساخنة.

خطى من خلف ظهرها المنحى إلى شباك المرتفعات. وضع صينية الأكواب على حائطه وكيس السمسم وعباد الشمس، وأعشاب الكافور على السرير النحاسي، وسمعها تقول لحُنجُل وقد فرغت من تفليته:

- لم يعد لبصرى طاقة على ذلك!

نبح مندفعا إلى السلم كأنه على موعد، بينما رجع محروس إليها حاملا قارورة زيت الكافور. أراحت ظهرها بجدار الطرقة مغمضة عينيها له. بدأ بتمليد ذراعيها، ثم رقبتها الصاعدة. همست بغنة كأصداء الذكرى:

- يدك مثل يد الطاهر!

فروع سكينتها قائلا:

- أنا عثرت على ممر الأبراج الذى فقد داخله!

أوقفته عن جذب أصابع قدمها وقالت متهدجة:

- مالك والممر؟!

سألها:

- هل قلت ذلك للطاهر؟

أغمضت عينيها على رؤية سمعها منها؛ فتراء لها الطاهر وهو يندغل إلى جُحر ثعلب، وعم نحمده يقتفى أثره بقنديل انطفأ ما إن تطاير بينهما عصف من أشجار الزيتون، ثم تكوم وغاض في تراب التل المنخور..

أستأنف فرقعة أصابع قدميها وخطرت له مشاهدات عم كامل للأموات. قال:

- عم كامل شاهد الطاهر يحمل ملابس كاملة لامرأة تستتر بالبرج!

- كامل لا يرى سوى الذاهبين!

- إنه أخذنى إلى الممر الذى ولجه الطاهر!

التفتت يائسة إلى برطمان العقارب فوق الراديو، وقالت:

- الطاهر كان يحلم بالعقارب!

- وأنا أحلم "بقراقوش" باني السور!

كالمحذرة:

- تذكر أن وساطة الشيخ حنفى هي التى أرجعتك إلى مدرستك.

فناوأها بغرام الشيخ القديم:

- الشيخ حنفى يحب رائحة الكافور!

قالت باسمة:

- أمك نفد صبرها وجدتك نفدت حيلتها.

فاستدركها إلى ذكرى الكتاب حين كانت تذهب به إليه، إما ممسكة بيده، أو مجاورة للأرمد، أو حاملة له في عام الكُتاب الأول..

تكلم محروس بنبرات ونظرات تخجلها وتضحكها وتريبها في سريرها، إذ تنادى على الشيخ حنفى من سلم الكتاب المنطوي بين جدارى الماضي، فكان الرجل يهرول من حجرة الدرس إلى السلم ويهبطه متئدا وقلبه يهوى في بئر الهوى ومائه غير الممسوس!

لم تتلاق عيناهما أبدا، حتى وهما يرتلان القرآن في حوش "الشاهد" أو يتدارسان الأحاديث النبوية ومأثورات الكلم والحكمة.. ولما زارا معا بيت الشيخ محمد رفعت بالمغربلين؛ سألها مواسيا كليهما:

- هل ترين الشيخ حنفي يا أم وجيدة؟!

فأجابه الشيخ حنفي في نفسه:

"صَمتُ وصمتت هي وكان صمتنا رؤيا"

ويقول ما معناه في قصيدة يمامتي نوح:

"ألاقيها وتلاقيني لقاء الغرباء

وأودعها وتودعني وداع الأليفين!

فيم الخمار وصوت عينيك صداح؟

وفيم الخجل وحنين أهدابك حياء؟

وفيم الوداع وتلاقينا اغتراب؟

دغدغ أعصابها مفرقعا أصابع قدميها تباعا وهو يقول:

- كانت رائحة الكافور تذهل الشيخ حنفى؛ فينسانى في حجره حتى يفيق على احتجاج الصغار، أو فوضى لهم كالاحتجاج!

فعاتبته:

- مالك والشيخ حنفي؟

قال باطنه:

"مالك وسوسن؟ لوجهها ما لوجهك متنسم من أريج الزهور!".

قال لها:

- كان يأخذني منك وفى حجرة الدرس ينسمنى ويتنسم قفطانه ثم يردد مذهولا: "مزاجنا كافور"

نفذ ألق نظرها في جنانه بسؤالها الرادع لهروبه من المدرسة:

"ما أخبار بنتنا عازفة البيانو؟"

ولكنها سألته:

- هل قرأ حيلة القرآن في حجرة الدرس؟

فأضحكها وهو يحيل السؤال عليها قائلا:

- ذكريني أنت بما قاله لك الشيخ؟

وكانت الذكرى روحا لأعصابها وقلبها وحرجها، وإن كانت الذكرى حاضرة متجددة، ولا تمل من سرد رواحها كما سردته عليه متضاحكة دامعة. قالت:

- فرح حنفى برغبة حيلة في حفظ القرآن الكريم؛ فطفق يرتل له: "ق.. والقرآن المجيد.."؛ فيُحبس حلق حيلة على حرف القاف، ويتبعبع، ويقأقئ به بينما حنفي يقهقه، ثم أرسله إلي؛ ليراجع معى ما انحبس في حلقه من قأقأت!

ويتفتح عباد الشمس في ضحكتها ثم نهضت بعودها المديد؛ لطوافهما اليومى على أقفاص الحمام المثبتة بجدران الطرقة المكشوفة. شرعا في تغيير ماء المساقى والحبوب وهديل الطير جميعا يستدعيها إليه، وعلى دعوى الهديل كانت توحده بطوافها، وكان هو يوحدها بخياله. تداوى الطير وتسأله عن أيام النفي وأيام الهروب، وقد تقطع استرساله

قائلة وهى تقصد أمه:

- وماذا فعلت "نــمسس" ربة العقاب؟

وقد درُب على إطلاق خياله لحظة الكذب الصادق، أو لحظة الضرورة الخلاقة. التحضير يفسد خيال الهروب، ويقول معلمه في الندوة:

"مطاوعة قوانا المبدعة خيار الخيال، ألا تطاوع الأرض قوى البركان حتى لا تنفجر؟ لحظة التصدع خيار الأرض، وكذلك لحظة الإبداع خيار الخيال..".

وربما كانت أكاذيب هروبه مطاوعة لقوى الواقع واستلهاما للحظة الإبداع والتصدع، تماما كالأساطير المُستلهمة لما سيبقى من فضائلنا وكشفنا، أو لما يحفظ للرموز قدسية دوامها. ويقول:

"في جلاء الحقيقة فنائها.. سيظل البحر رمزا لكلمة الخلق وبرهان خلودها؛ وان قلنا إن البحر سوف يتبخر أو إنه بخار تقطر!".

وقد يستلهم لكذب هروبه تصورا كتصور جدته، ويُضمن الأسطورة معنى العبرة والموعظة، ويجعل من أبطالها قديسين وغرباء. أى يشبهونه، فكانت جدته تنظر إليه أمدا يوحدها باللحظة الإبداع، وإذا بها تكلمه بكلام "تيمات" ربة الأرض وتوصيه ببناء برج بابل؛ لكى يكون رمزا لمن كان تمرده خيالا، ثم تتصنع الحذر والتلفت الباحث عن ابنتها قائلة:

- وماذا سنفعل "بنمسس"؟

- سنجعل الأكاذيب تبلبل في عقلها بلبلة برج بابل؟

ويضحك عباد الشمس في وجه أم وجيدة وتستلهمه اسما لها وهى تداعب الطير داخل الأقفاص؛ فيقول لها:

- أنت "ماعت" ربة العدالة، والريشة التى ستزن ما في قلبى من خير

وتوحد!

ولا يُمهلها قائلا:

- وعم نحمده، حارس الريشة والميزان!

فتؤيده قائلة:

- ولعله حارس الأموات!

ويطوف معها على الأقفاص مُسترسلا في لحظة الإبداع التى جعلت قلب أمه كقلوب الطير، فريثما تُفرغ قوى غضبها، يبدع خياله آبدة للهروب هي لباب الواقع الذى عاش بعضه وتخيل بعضه وحلم ببعضه وانتظر بعضه انتظاره للمصادفة وتدبيرها الإلهي. روى لها فيما روى لأمه:

أن الخيالة مرت قبيل الأذن لنا بدخول المدرسة، وإذا باللوثة تضرب سعيدا؛ فشزرنا هياجه وقطع علينا السبيل كأننا نفير من فصام ظله، ويناوئه تلميذ فيلاحقه ولا يكاد يمسه حتى يفر منه غير قادر على لمسه لمسة إحياء جنود الانسحاب، ويُسلطون عليه هتافاهم:

- يا مجنون!

- يا حرامي!

وبكل ما نبا من ألفاظ الكبار، كأن يحرض رجل يأكل الكشرى بباب الدكان تلميذا قائلا:

- قل له يا ابن عدلية!

فكان اسم أمه طلسم اللوثة.

وفز وراءنا كنيزك مدمر حركته يد "نمسس" ربة النقمة. فررنا منه حتى يئسنا من الفرار، ويأس سعيد من مطاردة أشباحا ليست أشباحنا فكتبت لنا النجاة، ولاذ من لاذ بالمدرسة، والدكاكين، والحارات، وقع من قع بجوانب الشارع..

ولم يبق إلا أنا و "قسام" ومجال النيزك ونقمته وأشباحه، ويد سعيد تتطاول تلاحقنا؛ فتنكبت الشارع إلى بوابة المتولى وغبار شنيع يلف "قساما" وإذا به صريع تحت عجلات أتوبيس (٦٨) كان سعيد أول من لمس قساما؛ وفز صائحا في الناس:

– الحرب لا تنصر قويا ولا ضعيفا، هو المجنون يا مجانين يا حراميه!

سألته أمه وعيناها طفوان بشفقة النجاة:

– هل رأيت الحادث؟

فقال شاردا:

– بل رأيت النجاة!

– أية نجاة؟ ألم يصرع التلميذ؟!

– نعم صرعى وقد ظل قابضا على الحقيبة وهم يحملونه إلى المستشفى!

– ابن من؟

– إنه قسام ابن قسام!

– وأين يسكن؟

قال باطنه: في حارة اليهود!

ثم امتقع وجهه وصوته وضميره بغبار الهروب وغبار فرار سعيد بلمسة الموت. قال لها:

– كنا عائدين أمس من المدرسة فلبى "قسام" نداء الشيخ ريحان ووقف يقرأ الفاتحة، وإذا بصوت يقول من الضريح:

"طوبى لمن كان مرضه بلاء الأقوياء، ونجاته بلاء الضعفاء!".

ربما توسط قبو عم كامل ناحية القلعة وناحية بوابة الفتوح إن اتصل ما رُدِمَ من سور القاهرة وما تهدم منه..

كان عم كامل وعم "دئدش" يرعيان أغنام جده في فج يلي القبو، ويمتد إلى برج الظفر، ذلك ودولة الأغنام قائمة على عروشها..

ولما خوت اتخذ عم كامل من القبو مرتادا للمتوحدين بثمالة الشاي المذاب بها الأفيون. وفي مرعى الأغنام القديم كان هو وأكرم وضياء يمتطون ظهورها، ويحتلبون أثداءها بأفواههم، ويهللون لذريتها تهليل العاطفة بظهور الحياة وبراءتها المتجددة تجدد الجهامة، وكلما عقد "دئدش" صرة وليد؛ تنازعوا حمله وتخطفوه، والرجل العملاق وراءهم يُهدئ من مأمأة الأم.

كل أولئك نبت من خياله. أشجار الكافور الباسقة، وبرزخ الحِدَأُ المرسلات، ومزاغل رمي السهام، والأبراج ومساربها، والفخاخ المنصوبة للهدهد وأبو فصادة والبلابل والغربان..، والكلام عن زرايب الخنازير وراء المرتفعات، والقطار المقلوب، وصخور المقطم المتحركة ومُشتجر الزيتون بحضيض التل المنخور، وتلك السيول الجارفة لطين الأموات، ومُحتضر الحضارة ومدافن أفراها، والمجتاحة به صدع السور إلى حيث الحارات ونوافذ البدرومات، وهى السيول التى شقت شِعبا في المرتفعات، صار طريقا مختصرا إلى القرافة؛ لمن يستطيع صعود المنحدرين والهبوط منهما.

منابت للخيال نبتت في دولة الأغنام الذاهبة، وإن بقيت مزاود العلف منضودة مائلة على سور القاهرة العتيق، أما المرعى فقد أحاله هو وأكرم وضياء ملعبا لكرة القدم، ولكن عم كامل ما يفتأ يقطع عليهم اللعب، كأنه في المرعى بين الأغنام، ثم يأخذه إلى فجوة السور المتصلة بممر الأبراج، ويحدثه بما يشاهده يوميا عند كل غروب، إذ يسوق جده

الأغنام خُفية إلى سرداب الفجوة! أحيانا يقول لعم كامل:

- ولماذا خُفية؟ أليست الأغنام أغنامه؟

فيتمتم:

- لعله يخشى ربه فيما بذر تبذيراً!

ويطيل الجلوس على أحجار الفجوة، ويخبره أن قنبلة من "قنابل الثلاثة" أحدثتها، يقصد إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، ثم سكنها "فهمى" دربكة العاشق السكير، ولما جهزها حجرة تطل على المرعى؛ تزوج فيها عشيقته القوادة التائبة..

وفي ليلة زفافهما ساخت بهما أرض الحجرة في حلق كان يُستخدم كحجرة تعذيب في مجاهل العصور، وقد وجدا العشيقين بين الأحجار صريعين على توحد من العشق يتدفق بماء الحياة، كما وصفه معلمه وقال:

"كانا صريعى المجد. مجد الشرق، ومجد الغرب!".

يقصد حجرة التعذيب القديمة، والقنابل الحديثة.

قال عم كامل:

- بعد أربعين يوما من وفاقما؛ خرج بهما جدك من الفجوة وقد أراد أن يُضحى لهما أُضحية؛ ولكن "دربكة" أمسك السكين، وسألني:

- هل كانت توبتها صادقة يا عم كامل؟

فقلت له:

- ألا ترى دموعها يا دربكة؟

وسألنى جدكَ:

- من يسرق الأغنام يا كامل؟

فاستحيت من الرد، وقلت في نفسي:

"التبذير سرقها!".

مصطبتا القبو بجانبيه أحجارها ضخمة مستطيلة، يقال إنها أحجار لأهرام بائدة؟ ومن حلقة حديد بالسقف يتدلى كلوب يتقابل عنده بائكتان: بائكة النصبة، وبائكة منفذ ممر الأبراج، الذى ولجه الطاهر إلى حيث يتوحد بالغيبة، ولكن عم كامل ما يفتأ يشاهده وهو يهبط الشِعب المختصر لطريق القرافة وقد وضع سترة المرأة بظهر الأرمد، الذى دفنه الطاهر وحيلة في برج الظفر. ناداه عم كامل:

- يا طاهر، الشيخ سباق حفر قبر الأرمد، ولما قرأ عليه من "سورة الروم"؛ تكلم الجان بالإنجليزية، واعترف بمواقعة المرأة بوصيد البوابة المحروقة!

سأله الطاهر:

- هل أذهب إليها يا عم كامل؟

- ألا ترى عريها؟

- حيلة قال لى صر ترابها في خِرقة، وعلقها أسفل التمساح بباب الشاهد!

فقال:

- دماغ حيلة من دماغ حماره.. اذهب إليها يا طاهر!

كان رواد القبو أما منتعشون بصحوة الأفيون المـذاب في ثمالـة الشاي و"أبو درج"، وأما مائلون إلى أسـفل كعرجـون النخيـل أو عرجون "أبو صليبة" المطحون على مربعات الزجاج الظـاهرة للعيـان بالمصطبتين.

يـمر عليهم محروس وكأنه لم يمر، إلا أن يكون "نوفل" بـالقبو وهو من المجاورين لذوى المتربة، يقاسمهم الهناء ومسبغة الجوع، ويسأل ذوى الأملاك:

"هل ادعى أحد من لدن آدم أنه امتلك جبلا من تراب أو حتى من ذهب؟"

والنقيضة أنه نصاب فذ لم يتقاعد به بيع الأفيون عن النصب، كأنما مقاسمته الفقراء لغنيمة النصب؛ مدارة لطمع النصب، أو تبريـر هـوى النصب وتشهيره، وربما كان نصب "نوفل" عطفة على نفسه اتـسعت للمتربين؛ فخاطر من أجل بقائه وبقائهم، وبحق كان مـثلا في الثبـات وحضور البديهة، ولو كان الحرج مُطبقا بالمواقف والمخاطر.

كان "شكوكو" الممثل يزور قريبا له نجارا، وغالبا ما يجد نوفـل صدد الدكان يفترش الأرض في حلقة يديرها للعب القمـار. في مـرة سأله:

- كم خسرت اليوم يا نوفل؟

فقال وهو يعد أفراد الحلقة:

- خمسة رجال، ورجل!

يقصد بالرجل الأخير "صفية" أشهر مقامرة بين الرجال، وأدومهم على مقامرته بمسافر الطرقات. قال شكوكو كأنما يلومه علـى هـذه الأريحية:

- الأفاق الذى بداخلك فنان متنكر!

أجابه:

- أو "أراجوز" يهرب من تحت الستار!

فحمل عليه:

- تهرب بعُري القمار من تحت الستار إلى ظهر الأرض يا نوفل؟!

فقالت صفية مُتشكية:

- إنه لا يكسبني إلا على ظهر الأرض. مهربه الحقيقي!

ثم توسلت قائلة:

- والنبي يا سى شكوكو، خليه يقامرنى ولو مرة واحدة خلف الستارة!

سألها:

- وإن كسبك أيضا؟

قالت قاصدة عصا "الأراجوز":

- عصاك موجودة يا سى شكوكو!

فصاح نوفل:

- نوفل، أعجز خلق الله عن المواجهة، ولكن الويل لمن يواجهني، ولمن يرفع عليَّ عصاه!

وقهقه نجيب النجار وحكى لشكوكو مواجهة نوفل أول أمس للحديد والنار، ثم خروجه بلا قطرة عرق. وصلت إخبارية من الحارة إلى خلف المخبر تقول:

"نوفل الساعة ينتظر زبونا للبدل المسروقة!"،

ومن شباك في الحارة سمع نوفل من يحذره بنبرات خفية راسية تقول:

- الحكومة على سلم البيت يا نوفل!

فلم يسعه إلا أن يكوم البدل كومة واحدة ويستجيب لوحى

بديهته؟ ولا يذكر أحد أن باب شقته قد أغلق ساعة من ليل أو ساعة من نهار؛ لذلك ولجه رجال المباحث كما يلجون باب القسم، وجدوه مُستلقيا على الحصيرة وعيناه مغمضتان تستلهمان حبكة المواجهة وأدق تفصيلها...

علا صوت خلف:

- يا نوفل!

ففتح عينيه على نظرة مهومة ثبتها عليه وهو يقول:

- ريقي ناشف اسقيني يا خلف!

قال ونبرات التلبس تستهين بعطشه ودهائه:

- اسقنى أنت! وقل لى أين بدل المستشار يا نوفل؟

دارت نظراته المطمئنة على الأيدي، وهى تفرغ من الدولاب وصرر ظهره ومرتبة السرير وصحارتى الكنبتين، وما يترامى إلى سمعه من كراكيب المطبخ وكراكيب البسطة المفضية إلى الحمام خارج الشقة، ثم نظر إلى الضابط مناديا:

- اسقنى يا حكومة!

فزمجر خلف:

- البدل يا نوفل!

أجابه إجابة المتحدى البرئ:

- الشقة شقتى والزير زيرى اسقوني يا عالم!

سب خلف صاحب الشقة وصاحب الزير وأسمعه زمجرة لا مزيد بعدها:

- البدل يا نوفل!

اعتدل نصفه رافعا ذراعيه وهو يقول:

- قم بى يا خلف!

شَسَعَ خطوته وأماطه من الحصيرة، وتركه يمشى وحده إلى الزير.. رفع الكوز والغطاء وتجرع الماء، وما إن أعاد الغطاء تقهقر وقع بالكوز إلى حيث استلقى، وكان جميع المخبرين قد فرغوا له وأيديهم خالية من البدل؛ فوقفوا على رأسه، وحاولوا إماطته ولكنه حذرهم من الوقوف في مكان واحد على السقف، وجعل يدفع أقدامهم ويصيح:

- يا عالم السقف ممسوك بقدرة قادر!

فصرفهم خلف باستجابة من يعلم صدق نوفل ولا يعلم كذبه، بينما شعر الضابط بخلخلة تحت قدمه ومن موضعها رفع الحصيرة، ثم رفع بلاطة كبيرة هشة أظهرت فجوتها حجرة بالدور الأرضي؛ فقال مستنفرا المخبرين:

- البدل أهرَبَها من هنا!

قال خلف:

- دى حجرة "مكاوى" عالة الناس!

وخاطب نوفل وشرر نظرته يتطاير:

- سيادة المستشار طلبك وحدك ولكننى سوف أذهب إليه بتيوسين!

قال نوفل لشكوكو:

- محامى البيبانى طمع في فخامة البدل وعلى رأى نحمده كان "نصفه فرحان" لما عرف اسم المستشار، وأقسم لى بأنه سيعلق الروب على ذراعيه ويستترف البدل أمامه باستتراف المرافعات.. ويشارك الجميع شكوكو في الضحك، حتى يقول نوفل:

- أرسلت البدل لخلف مع مرشد الإخبارية، ولما قلبها بين يديه وشعر ببللها هتف بنفسه:

"ظلمت مكاوى يا خلف.. البدل كانت في الزير!"

فتماوجت ضحكة شكوكو مع حركة جسمه كأنها "الظغطة" الراقصة، وقال:

- خلينا نضحك حبة والنبى يا نوفل!

فلا يستجيب قائلا:

- إننى واربت لهم باب الورطة معتمدا على ذكائهم، ألم أقل لخلف: اسقنى يا خلف؟!

فردد شكوكو عبارته:

- والشقة شقتك والزير زيرك!

فيم تجذبه مزاود العلف المنضوضة المائلة على سور القاهرة العتيق؟

لا يهبط من المرتفعات، أو يلعب الكرة بمرعاها؛ إلا وهي بوابة للزمن تبدو مفتوحة ولكن إلى هوة في الزمن تقبض روحه!

قال لعم كامل داخل القبو وهو ينظف حقيبة المدرسة، بينما نبوية تنظف القميص:

- هل تذكر يوم قلبتم الدنيا علينا؟

يقصد هو وأكرم وضياء. قال متأثرا بذكرى حفيده، وكان يجلس بطرف المصطبة وبجواره رجلان و"الميسى" محرر الشكاوى:

- رحمه الله جدك، فقد أسكت جذع مينا، وأخبره أن ثلاثتكم نائمون في المزود.

تناول من نبوية القميص، واستوضحه:

- لم يكن جدي على وفاق مع أم وجيدة!

قال:

- رحمه الله، كانت الدنيا في نظره "نعمة مُدبرة"، من لا يُفتن بها لا تفتنه أعناب الجنة!

وأشار ذراعه ناحية حجرة اليمام وقال:

- وأم وجيدة دنياها "نعمة مُقبلة" وما قبلها فتنة النفس. قالت لجدك في جنازة أصحاب الطاهر الذين شاهدوا أموات التل:

"من فتنته نفسه لا أعناب الدنيا ولا أعناب الجنة تفتنه".

ويلاحظ الكبير يغلى.. فينبه نبوية إليه وهو يقول:

- رحمه الله، لو لم ترده النسوان بشغف ما أرادهن بشغف! وجلَّ من لا يسهو، فالنعمة المُدبرة فتكت بواصفها، وقد كان على شغف بها، وهى على شغف بغيره!

فهزق الميسى بالضحك وقال:

- جدك كان غناما يعد نسوانه ولا يعد أغنامه!

واستعرض ذراعه الفضاء خارج القبو وهو يقول:

- أخوالك يربون على العشرين!

فسلط عليه عم كامل نظرة مظلمة كماضى قلمه، وقال:

- إيه يا ميسي، شكوت أغنامه وأنت تأكل لحمها، والساعة تأكل لحم من جاورته وأنت كَلّ شره!

يشير إلى أن الميسى كان يحرر الشكاوى ضد جده بسبب رائحة الأغنام؛ إذ كان السور جدار لحجرته وعرائسه نوافذه مفتوحة على المرعى.

بصعوبة نهض عم كامل، فأسرع إليه محروس. اكتهل ظهره حتى أوصله إلى المصطبة الأخرى، ومدد للقيلولة بينما غادر هو القبو إلى المزود الذي أنزله هو وأكرم من فوق صف المزاود؛ ليستريحا عليه بعد فراغهما من لعب الكرة.

تمدد داخله وعيناه تروغ كفاف السحب السيارة، ولا يدرى لم طاف بذهنه "جِمال" عم نحمده وحلقات مربطها بحوش المحروقي؟ هل لأن الجمال بقت والأغنام ذهبت؟ أم لبقاء صداقة عم نحمده بجده؟ تلك الصداقة الضاربة في الصحراء منذ سافرا معا لخطبة البدوية من والدها تاجر الجمال، أم لأن محروسا كان قد اعتاد على مشاهدة جده مائلا كعرجون النخيل. مثله مثل مرتادي القبو، وينطبع في وعيه، وخياله، وبصيرته "مشهده" وهو يطحن أقراص أبو صليبة بمربع الزجاج؛ فيصرفه عم نحمده إلى سنام الجمال يتسنمها. ماذا قال عم كامل؟" لو لم ترده النسوان بشغف ما أرادهن بشغف، وجلَّ من لا يسهو، فالنعمة المُدبرة فتكت بواصفها، وقد كان على شغف بها، وهى على شغف بغيره!".

واتته وهو بمذود الأغنام عطور الحريم من قماقم القصور، وباطن

الواقع. إلي أين تذهب سحب السماء؟ وأين الحدأ؟ وهو راجع من المدرسة دخل على مربط الجمال؛ فوجد بين ظهورها صبيا في مثل سنه. سأل عم نحمده وجده إلى جواره في غيبوبة أبو صليبة:

- من هذا يا عم نحمده؟

فقال وهو يقيم ظهر جده:

- هذا خالك الأخير!

وفي لحظات الصحو النادرة كان يسمع عم نحمده يُشارك صديقه "الدندنة" بأغنيات لا يذكرها، ولكن الأغنيات الصادرة من مُسجل "أوكي" الوافد الجديد على برج المراقبة، كانت تبعث في نفسه أصداء من تلك الأنغام الممزوجة برغاء الجمال، والمنقوشة على قماقم الحريم.

قام من رقدة المزود قاصد "أوكي" الندرجي وتسجيله الذي لا يفارقه حيثما صار وسهر، أو أعتلى زاوية برج المراقبة يسمع غناء عبد المطلب، ويدخن سجائر الحشيش، ويرصد الدخلاء ورجال المباحث من ثغرتي الجبل:

تقاطع الدراسة، ومدخل شارع الأمام محمد عبده.

صعد محروس المنحدرات الثلاثة، وأوغل في الخلاء المتاخم لأشجار الكافور حيث تتردد أصداء الغناء من مسجل أوكي:

ودع هواك وأنساه وأنساني عمر اللي فات
ما هيرجع تاني
كان حلم وراح أنساه وارتاح ودع هواك..
وبعد أيه رايح تتندم ما راح زمانك ويا زماني
ومهما تبكي وتترجاني عمر اللي فات ما
هيرجع تاني..

هل تجلس سوسن على البيانو الآن؟ لم يستلقي في مربع البرج منذ أعتلى زاويته "أوكي" أنت أشهر هارب يحمل صخرة المدرسة، و"أوكي" أشهر عاشق يحمل كفنه على يديه كما يقول عم نحمده، ويقصد بالكفن مُسجل غرامه لمحبوبة طلقها طلاقا بائنا. عند كل طلقة كان يُجالس أم وجيدة على الحجر الصوان ويستحلفها بالذي يحي ويميت:

– إن مشيت يوما في جنازة حماتي؛ فلا تكشفي قبح وجهها على جلال الموت. لأنه وجه أقبح من أن يموت، أو أن يحيى!

ويناديها:

– يا أم وجيدة، أنا حماتي ربنا ابتلاها بجمال المحبوبة، وابتلى المحبوبة بقبحها، لا هذه تصدق قبحها ولا تلك تصدق جمالها، وأنا المُصدق بالجمال والقبح في عذاب مقيم!

وترى أم وجيدة دمعه وهو يُبكت نفسه على توريط أخته، واصطحبها إلي المحبوبة وأميها.

سألته حماته ولم يكد يستريح من صعود السلم، وتبهر أنفاس عشقه، ويتصبب عرق كرامته:

– ما شغلتك يا ابني؟

ردت عليها أخته مُستعرة باللهجة المتهكمة:

– ألا تعرفين!؟

– أنا اعرف إنه شغال فوق الجبل!

– اشتغل فوق من غلبه!

– ونحن تحت. فليتركنا في حالنا!

– أنا قلت له لا يحرجنا مع احد!

– يا قعيدين يكفيكم شر الحرج!

فنهضت قائلة:

- ويكفينا شر القاعدين للشر!

أمسك أوكي بمعصم أخته يمنعها من الانصراف؛ فتفصت من قبضته تقول للمرأة:

- أتعايريننا في بيتك وانتم معرة؟

وارتد ذراعها إلى الوراء، أي إلى الماضي القريب، وهى تقول:

- أنسيت؟ أخي لم يشتغل "ندرجيا" إلا بسببكم، ألم يطلبها منك وهو "صنايعى قد الدنيا"، لِمَ صغرته حتى تصاغر، ولِمَ أصررت على رفضه حتى ضيعته؟!

ونَغرَ صدرها وفاة أبيهما بالدرن ، فاستدارت بالباب قائلة:

- أنا أخي سليم معافى؟

ومن حيث اختبأت خرجت المحبوبة لتلحق بها، بينما جذب أوكي طرفي الجاكت وقال لحماته:

- أنا عارف إن هدمتي هذه من حرام!

وقال ساحبا من إبطه كيس ورق كان ينوى تركه لها، إذا ما وافقت على الخطبة:

- وهذه الفلوس من حرام.. أمهليني سنة، وسوف أحرق الفلوس والملابس على باب بيتك الآن!

فتوسلت:

- ولم الإحراق يا ابني والغلابة كثيرون؟

- أمهليني!

فحصت الكيس بعينيها تحذره:

- أوعى يا أوكي! حرام يا أوكي!

كان التمحك في نظرتها فاضحا جشعا كأمله في ابنتها، التي

استوقفته على السلم؛ فعاتبها قائلا:

– ثمنها غالٍ جدا؟

– ما هذه؟

– شربة الماء!

قالت متجنية:

– أختك تسرعت بقيامها، كنت على وشك القيام بواجب الضيافة ولكنها تسرعت بقيامها!

وهو يطعنها بنظرة الهوى الفاضحة:

– عطشتُ في بيت السقائين!

أجلسته على درجة السلم تقول:

– ماء الدنيا كله ليس بأغلى منك، ولا بأغلى من كرامة أختك!

فقال:

– ولا الفلوس الحرام بأغلى منك!

لم يمنعها نداء أمها اللحوح عن سقيه، و لم يمنعه ماء شفتيها الزلال أن يجلس بين بيتيهما الملتصقين يراجع نفسه:

قد يستوي طلوع السلم و نزوله، أما الجلوس عليه فلا. وقد يستوي الإنسان وكيس المال، أما الحلال والحرام فلا. سوف تخسر قلبك يا أوكي إلى الأبد ما لم يكن قلبا فاضحا جشعا كقبح أمها وكخضوع المحبوبة لجمالها!

وتأكد لديه أنهما تراقبانه من السطح حيث يجلس صدد بيتهما، فنهض و لم يجلس ليدخن سيجارة الحشيش؛ إلا وهو عارٍ حافٍ مُستريح إلى الحريق وحسرة الاثنتين على كيس الفلوس وملابسه الأنيقة!

أحبته ولكن للجمال غوية كغواية القبح وغواية الهوى!

وهو يُطلقها لأول مرة قال لها:

- عُهر القبح ألعن من عُهر الجمال، وأنا البريء أحمـــل لعنتيهمـــا. أنت طالق!

كان لا يمل انتظارها في برج المراقبة وهى لا تمل الغياب عن السطح المنظور في الأفق القريب من البرج. ويُهديها الحمام فرخا، ولما تـــشتدُ أجنحته يجعلاه رسُلا وحديثا في الهوى..

تُحجب عنه فيقتنصها واحدة تلو الأخرى مـــن نافذتـــه الحافـــة بشرفتها، ثم يُرسلها من البرج، وفى سيقاها سيل من الرسائل بعدد مـــا أحرقه من سجائر الحشيش:

رضاي في انتظارك أطيب من رضاي بلقائك!

أحببت في الانتظار اعتيادي على انتظارك!

لقائي بك يأخذني من عادتي الطيبة!

غيابك عن السطح والشباك والبلكونة والشارع والدنيا؛ ليس إلا فردوس قلبي ولكنه جحيمي!

قلبي مغيب عني أناديه، فيقول:

دعني وغيابها. الحب ينقص باللقاء، ويكتمل بالغياب، لك دنيـــاك ولى دنياي!

قسوتك ولا قسوة قلبي. أقول له:

لا أريد الكمال ؛ فيقول:

اذهب وألقها!

ناديتُ قلبى.. لم يجبنى.. فهل قلبك معك؟ أم إهما؟.

وتصفو له؛ فتكلمه برموز الهوى كما كلمها برسوله المُهداة إليهـــا وليدة. تقول له:

- إن أطلقت في السطح أنثى "العنبري" فهو اللقـــاء، إمـــا عنـــد المستشفى، وإما في عطفة الدويدار.

فيرجح ضنها باللقاء ويسألها:

- وأن لم تستطيعي الترول من البيت هل سأراك في السطح؟

فتضاحك قائلا:

- طبعا، وسوف أطلق في السماء ذكر "الشقلباظ"!

- وحده؟!

- طبعا، وستكون أنثاه في يدى ولن أبعثها له حتى يتعلم الجسارة ويحط إليها وهي في يدي!

وتفعل مراوحة نظرهما بين أوكي في البرج وذكر "الشقلباظ" في السماء؛ فيخاطبه:

"تضاحكها من شقلباتك البهلوانية عزائي من الحرمان مادامت بالسطح".

ويطول سهاده وحديثه لنفسه:

هواها كله مقامرة. ما أشبهكما بمقامرين يجلسان على مائدتين متجاورتين. أنت وحدك وهى وحدها، ولكن من تقامرا؟ ما أنت يا أوكي إلا ندرجيا للهوى وليس ندرجيا للسطل كما تصفك حماتك.

ألهذا كنت تجازف وتهبط من البرج صاغرا، ومتخليا عن ثغرتي الجبل؛ من أجل دقائق دوامها هجران؟

آهً لو أصابت "الطوبة المعطوبة" وكبست الحكومة كبستها. يا أوكي ، ما أنت إلا ندرجي لزورق الهوى ولكن زورقك ليس له مرسى!

قبل الزوج بأيام سألها:

- متى تُفرجها علينا أمك وتلين؟

فتثنت للناظرين على رصيف سينما الحلمية وهى تقول:

- حين أطلق ذكر "الهزاز" من السطح!

ولما أطلقته كانت فلوسه كلها حرام في حرام!

وشاهده من البرج ببياضه الصابغ يرتفع إلى سماء غير سماء الهجران، وقبل أيام من انقضاء عدة البينونة الكبرى؛ صوب على ذكر "العنبري" طلقة رش، فسقط من منشر الشرفة، ثم داواه، وانتظر لعلها تبعث أنثاه في سماء السطح، غير أنها لم تفعل، فبعثه إليها وفى مخالبه رسالة بكلمة الطلاق.

لقد كذبت حماته على الحرام كما كذبت على المآذن!

وكلا الكذبتين بغضاء مستترة لأم الشاب؛ لأنه طلاب يد ابنتها وهو ينقش الذهب والنحاس والفضة والأخشاب والصدف والوجوه أيضا. كان "أوكي" مثل أبيه جل زبائنه من السائحين، ومنهم تعلم المحادثة بلغتهم، وقد درج على سماعها والتحدث بها؛ حتى اشتق له أصحابه اسمه المستجيب الدمث "أكي" ولكن المرأة أحبطته وكايدت في إحباطه إلى أن صار عاطلا بالهوى.

فهو إما جالس بين بيتيهما يوقد الحطب في ليالي الشتاء، وإما جالس في برج المراقبة في ليالي الصيف يدخن سجائر الحشيش، ويترقب طلعة ابنتها بالسطح المضنون بها ضن السقم، أو المستجداة بطرب عبد المطلب أينما حل بالتسجيل، ومن أغانيه كان الناس على اطلاع بأحوال أوكي في الهوى..،

وقد أوجزها صديقه "العايق" في أربع أغان:

يا أهل المحبة. شفت حبيي. الناس المغرمين. ودع هواك.

وكان العايق موهوبا يُحاكى الأصوات ولوازم شعورها، وكانت له صولات مع "لوزة" العالمه على مسارح الأفراح، ولما بانت المحبوبة من أوكي غنى له في سهرة سُطل:

- ودع هواك - مرة بأداء عبد المطلب ومرة بأداء أم كلثوم،

وكان يردد له ولغيره:

"كلانا مسكين، أنت هربت من نار البطالة إلى رمضاء الغرام ، وأنا هربت من رمضاء الغرام إلى رمضاء الغرام!"

ونصحه أخر:

"الحب وأنت ندرجي أفضل من الحب وأنت عاطل!" ونصحته جارة لحماته بقولها:

- لا يا عم أوكي، مصيبتك ليست في الحب، ولا في جمال جارتي. مصيبتك في ضغينة أمها لأمك!

وهذا ما رجحه عم نحمده فقد قال:

"لهذه الضغينة قصة، ولقصتها عبرة هي النعش لمن لا يعتبر!".

اشتهرت أم أوكي "بالغندورة" وهي على مثال المحبوبة. أنثى تنسيك عذبات الجمال وأوهامه، وتجذبك إلى الحقيقة الباقية. أي نزعة الجسد وفرحته بما يخرج من أصلابه وأصلاب النوع في ملايين السنين.

في ليلة زفافهما لم يطلب أحد من المحبوبة النهوض من الكوشة وإنما نهضت بها تلقائية الغواية؛ لتبارى "الغندورة" الرقص على مسرح الزفة المتصدر ساحة الباطنية...

كان لجسديهما صوت شلال يهدر مجاوبا إيقاع الطبلة مجاوبة الصدى للطبيعة والهدير للهدير.

أنوثة جسدها يهدر بالشوق والبهجة ولا تثريب على العيون الذليلة حيث تثنى الجسدان أو تراقصا. أنوثة كهذه تخدمها الشبهات حينا وبعده ينقلب الخدم أسيادا من الثقلين. وفيما كان أوكي يُفني حياته كخادم لأنوثة المحبوبة، كان زوج حماته قد أفنى حياته في أنوثة "الغندورة" التي أرملها الدرن قبل أن يدُف زوجها في التراب؛ ومن ثم كانت العبرة كفن لمن قصدته ولم يقصدها وولاها دبره على وصف عم

نحمدو، وقال:

لقد قصدت العبرة أوكي في جمال محبوبته، وقـــصدت حماتـــه في قبحها، فأفناها هو في مصادقة المحبة، وأفنتها هي في مكاذبة الأضغان!

أسمع أوكي محروسا أغاني عبد المطلب، وقد ينتفض من زاوية البرج؛ ويصفر بأصابعه الموضوعة في فمه، صفيرا من مقطعين حادين يتلقاهما ندرجي أخر كامن بالناحية المواجهة للجبل. ولابد أن يتبع الصفير إشارة باليد، أو تصريح بلسان إذا ما كانت ثمة كبسة، أو أمرا مريبا يُرتب له بإحدى ثغرتي الجبل، وأحيانا يترك أوكي والغناء قاصدا مربط الجمال بحوش المحروقي. يلقي السلام على البدوية؛ فتطيل النظر إلى حقيبة المدرسة، وتقول:

- الطاهر لم يهرب من مدرسته يوما!

فيسألها:

- أين كانت مدرسته؟

قالت بلهجة تهدده أو تتعجل انصرافه:

- هي نفس مدرستك التي تهرب منها غير عابئ بأمك، ولا جدتك!

وحدت بصرها في مكان جلوس جده وقالت:

- جدك كان مهيباً!

وتحسرت على المهابة قائلة:

- ولكن العشق كسره وهو في مشيب الحكمة والوقار!

قال باطنه: "أو مشيب عُرْجُون النخيل!"

وجاء عم نحمده. بَسَمَ لمحروس واكتهل كتفه يسألها عن حيلة؛ فقالت:

- أم وجيدة أرسلته للعطارين.

شرد عن حديثهما في مداعبة عم نحمده له كلما مر على الدكان هو وأمه. كان يناده مسمعا أمه: يا "هاء والقلم"!

يقصد حرف الهاء من كلمة الهروب، وقد يضحك أمه ويناديه من

عرض الطريق: "هاء والقلم وما يهربون!". ولكن أم وجيدة لم تفوت نداءً قصه عليها إلا وأفحمته قائلة: بل هو "نون القلم" أجلسه عم نحمده في نفس مكان جده، وسأله:

- ماذا قالت لك البدوية عن حقيبة المدرسة؟

فقال مزلزلاً شيخوخة الرجل:

- تحدثت عن مشيب جدي العاشق، وعن حكمته التي أدمنت أقراص الحكمة!

ترحم عليه مراراً وقال:

- جدك قد سلم منه الناس!

فقال باطنه:

"ولكنه لم يسلم من نفس ولا من العشق!".

والتفت ثلاثتهم إلى خلف المخبر وهو يقتحم ساحة المربط بخطواته الشاسعة، وتخلل الجمال مكبرا يُرقيها من الحسد، ثم قال لعم نحمده:

- منصور بك قبض على حيلة فوق الجبل!

قال دهشا لعلمه برهبة حيلة من الجبل:

- حيلة يحمل الجبل ولا يصعده يا خلف!

قهقه كأنه لم يسمع شيئا وقال:

- وأنا قبضتُ على الحمار متلبسا بغرام حيلة!

وقبل أن يفيق نحمده قال بنظرته الهوائية كغاز سام:

- "الدحروجى" مات في الحجز، وقد أوصاني في ساعة موته بالذهاب إليك، وهو يحلم الآن بين الأموات بجنازة حارة على يديك!

وحد بصره في محروس مُستدعيا جلوسه بدكان جزارة جده، ولكنه سأل البدوية:

- ده، أخو الطاهر؟

فقالت تهدده بصبر الجمال:

- لا، أخو الجمل ده!

فقهقه خلف، وشَسَعَ خطواته يتخلل الجمال وهو يقول:

- هات معك بطاقة الحمار لكي يضمن حيلة!

تساءل محروس:

- أهو جاد؟!

فقال عم نحمده:

- رحم الله جدك، كان يقول: خلف هزله جـد وجـده هـزل، وعذره أنه نزيل مقيم بمصحة السلطة!

ثم تعجب مخاطبا محروسا:

- من صعد بالأرمد الجبل؟!

إنها مصادفة نبات "القنب" التي نفثها دخانها أحد أرباب السطل في واحدة من مواخيرهم الساهرة.

هى منضرة يُلجئهم إليها الشتاء؛ فيغلقون منافذها دون قُمرة بأعلى حائط يتسرب منها الدخان إلى إسطبل "الشاهد" ببيت أم وجيدة، حيث يبيت حيلة والأرمد، ومن ثم كان الاثنان عرضة لعوارض السطل وصيته، فقد يُسمع للأرمد جيشان نهيق يرق ويهبط في الرقة حتى ينق نقيق الضفادع، أو يسمع له تثاؤب يجيش كصراخ غراب.

أما حيلة فقد كان سمر السطل ينهض به من غفق النوم، ويخوض في دُوار الدخان ورائحته حتى يعتلى كومة الحشايا، ويطل عليهم من القمرة متوسدا باطنها ومستأنفا مسامرة الأمس وأحلامها التي يعتريها يقظات مُباغتة يستترفها في "شخطة" مُبعبعة ينتهرُ بها المتضاحكين، ولا يميزون منها إلا اسم أم وجيدة، فيفهمون أنه يحذرهم من إيقاظها، وهى بعينها "الشخطة" التي يصفها عم نحمده بقوله:

"حيلة يشخط في بحنجرة حماره".

وإنهم ليتداولون ذكراها الموصوفة؛ إذا "بعنتر" يُلهم نفحة العشب المهضوم في الزبد محدثا بدخانها رافدا يغزى مُطرب الضحك. خاطبهم:

- ما رأيكم لو استعملنا حيلة "ندرجيا" فوق الجبل؟

استملح "سوكه" الاقتراح وتمايل هاتفا:

- ونادي يا حمار على الحكومة!

وكأنهم قد سمعوا موارج حنجرة حيلة مُنادية على من لا حياة له؛ فاضطرب بهم التضاحك أيما اضطراب، وذكرهم "كفنو" بعناده حين استعصى على نحمده الرجوع بحيلة من القرافة سالكين شِعب المرتفعات المختصر للطريق؛ عقب رجوعهما من مدفن أوقفه نحمده على الأموات، وقد دفنا فيه رجلا وافته المنية في مولد السيدة فاطمة النبوية،

وكان هذا من المتوفين القلائل الذين لم يُحملوا بالكارو؛ فقد صادف موته صعق الأرمد، ووفاءً لذكره لم يُبدل نحمده حيلة حمارا بحمار، حتى تستوفى الذكرى وفاءها.

أيأسهم "كفنو" قائلا:

– طلوع حيلة الجبل كتروله منه حلم من أحلام الدخان!

فقال عنتر:

– ما ألذ أحلام الدخان، وأنا حلمي أن أُطلع حيلة الجبل!

وسحب "سوكه" نفسا قرقرت له الجوزة، ونفثه يقول:

– وما ألذ بدايته الدخان ونهايته، وعذابه ورحمته!

وكركر مثل الجوزة.. ثم خاطبهم:

– يقولون إن الكون مغلق على نفسه، ولاشى يفلت من جاذبيته؛ حتى الضحكة وحتى الدمعة، ربما سمعهما سامع بعد ملايين السنين!

فذكره "العايق" وهو يأخذ الجوزة بإصابته في حرب ستة وخمسين:

– ويقولون الدنيا مثل الحروب بدأت بدخان!

فهتف عنتر:

– ولا محالة ستنتهي بدخان!

ناوله العايق بوصة الجوزة المزينة بالفل قائلا:

– خلونا في البداية!

أجابه عنتر بتناغم أدم جرحه:

– الأوله في الغرام والحب شبكوني..

حذره سوكه قائلا:

– دخان الغرام "خضة" وخضته نار!

فقهقه العايق ثم قال:

– النسوان كلهن دخان يتبدد!

تضاحك حيلة فالتفت إليه عنتر وعجيج من الدخان يضطرب بينهما.. تودده قائلا:

- الجبل ينتظرك يا حيلة.

فتضاحك وبعبع بما لا يفقهون؟

سأله سوكه:

- ألم تحلم بطلوع الجبل يا حيلة؟

ففسر البعبعة بالبعبعة!؟

سأله العايق:

- هل عاشرتُ امرأة يا حيلة؟

أقسم عنتر متأثرا بحياء حيلة:

- والله، عروسك عندي يا حيلة إن طلعت الجبل.

فوضح من بعبعته هذا السؤال:

- من هي؟

قام كفنو مناديا:

- يا قاصدين السطل أين نحمده ليشهد على جواز حيلة؟

غلف "العايق" استنكاره بظاهر التأمين على ندائه وقال:

- أى نعم، أين نحمده لكى يحبسنا؟!

وقهقه مسائلا كفنو:

- هل ترانا مغادرين الدخان قبل أن تصل نكات نحمده قسم الدرب الأحمر؟!

وناده:

- يا كفنو، هناك قسم والقسم يتحرى عن نكات نحمده!

ثم باغتتهم ضربتان دُقتا بشباك خلف "سوكه" فقال بتناغم يُعجز الطارق:

- "شباكنا ستايره حديد"

فجاءه الرد مجلجلا من حيث لا يرى صاحبته:

- أنا قادمة إليكم من الباب يا سكسوكة!

عرفوها وردد بعضهم:

- دى "لوزة" العالمه..

اجتازت الحوش وما إن دفعت باب المنضرة تأوهت قائلة:

- وربنا أنا دخلت خاوية جان!

واسترسلت في ضحكة رخية.. ثم سألتهم:

- الدخان ده كله محبوس على أى ذمة؟

أجابها كفنو:

- على ذمة السطل!

فاعترض عنتر:

- لا ، ده على ذمة حيلة وحماره.

وناداها من تعرف لوعته:

- يا لوزة، أنا حابس دخانى على ذمة الغرام!

فترنموا جميعا تتقدمهم "لوزة":

- "الأوله في الغرام والحب شبكونى بغمضة عين"

ثم نادته كما ناداها:

- ياعايق، أين أنت؟

أجابها:

- لا أين بيننا يا لوزة!

سأله كفنو:

- ولا حتى سرير؟

اعترض عنتر قائلا:

- أنا بينهما يا قواد!

فتكسر جسم لوزة وصوتها وهى ترفع ذراعها قائلة:

- هات يدك يا عايق!

فحذرها كفنو:

- خذي بالك الدخان هنا حيطانه أربع!

فأرسلت ضحكتها تتخالع بتحذيره.. ثم قالت:

- دى حيطان، كلها مائلة وأنت أدرى؟

تضاحكوا من المساواة الجائرة بينهم؛ حتى تبدد دخان المنــــضرة، ثم علا صوت لوزة جادا يوشى بالرغبة في سماعها قالت:

- صلوا على النبي!

فاستجابوا لها لتقول:

- أنا فرحى الأحد ألقادم، ويطيب لى أن تشاركوني فرحي؛

فشملوها بالتهنئة والدعوات، ثم كانت عفوية دموعها، وأخذت يد العايق وخرجت به.

لم يُشاهد حيلة قط، ولا أباه دئدش يمتطيان ظهر حميرهمـــا، ومـــن معاشرتهما لأم وجيدة والست كوثر، عرفا أن الأعياد "فرحة" الأموات والأطفال؛ لذلك كانت الأرامد تشارك هؤلاء، وهؤلاء فرحة الأعيـــاد، وخلال أيامها تحتكر الأطفال ظهورها، ويأتون من فجـــاج الحـــارات والساحات إلى دئدش، ثم إلى حيلة من بعده.

وكانت "مفيدة" تعدُ على حيلة النسيان؛ إذا ما سَها عن أعيادها؛ فترسل أطفالها صباح العيد إلى إسطبل الشاهد، ثم يخرجون بالأرمد إلى كنيسة العذراء بحارة الروم أو بحارة زويل، بينما حيلة في غفق اليقظـــة صامت يتفكر في السجائر، والحلاوة الطحينية، والزجاجات المثلجة..

وأحيانا تترع منه مفيدة بركة الحمار التي خلعها علي ذرية دئدش الشيخ مشحوت في حضرة ابنة عمران عليهما السلام؛ إذ أنه قد انتهى بنسب الأرمد إلى الحمار الذي حمل السيدة العذراء في رحلة قدومها إلى مصر.

قالت له مفيدة حانقة في عيد ظهور السيدة العذراء، وقد تكاســـل عن مصاحبة أطفالها إلى كنيسة العذراء بحارة زويل:

- نسيت عيد القيامة كما نسيت عيد الميلاد يا حيلة، فكيف تنسى عيد الأرمد وبه بوركت أرض مصر؟

ودفعت كفها إلى أعلى تقصد السطح وقالت:

- لقد كذب مشحوت على الحمير. أنت لا حق لـــك في بركـــة الأرمد!

ولا ترضى عنه إلا وهو يقف بباب الـــدكان، وحنجرتـــه تتعتـــع بكلمات منام جديد يرى فيه السيدة العذراء، وقد بـــرك لهـــا جمـــل "الشاهد" ولكنها ألقت عليه السلام، ومشت حتى ظهرت للناس وهي تشير إلى كلمة الله؛ فيكلمهم مرتلا:

"اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا.."

ظهر حيلة لصق الأرمد بساحة الباطنية؛ وإذا بأرباب السطل يختمر في رؤوسهم المشوشة الثقيلة حلم السطل المسائي إلى واقع يشتاق لسطل الصباح، على رأى عم نحمده. لمحوه لصق الأرمد فتهوشوا[1] عليهما مضطربين هائجين كل من موضع اتجاره من الساحة الشبيهة "بغرزة" غير مسقوفة. جدرانها البيوت العتيقة حيثما التصقت، وانفصلت، و تفرع إلى عطفة أو حارة أو شارع؛ فالغرزة ممتدة بعددها وعتادها. المروجون، والطاولات، والميزان، والجوزة، والأحجار، وجمرات الفحم، والمقاعد، والصبيان، وطوابير من المتعاطين تتفرع كفروع النيل.

سألوه:

- أين تذهب يا حيلة؟

ميزوا من تتعتعه اسم أم وجيدة، فخاطبه عنتر:

- وليكن، أنت في حاجة لأم وجيدة والسلام.

طوق "كفنو" كاهليه وبغواية تذكره بالليالي القمرة، التي شاركهم فيها ما لذ وطاب من المأكولات، والفواكه والحلويات والمثلجات والبيرة..، قال له:

- غداؤك اليوم يا حيلة صنوف من الأسماك والسلطات!

سرح في وجههم، واهتز عمقه متمثلا الجبل خلفه جليلا كالضمير يعلو البيوت المتهالكة. خضخضه[2] صياح عنتر كطعنة في مأمنه:

---

(1) تهوشوا: تحركوا نحوهما مضطربين هائجين.

(2) خضخضه: حركه بعنف.

- الجبل ينتظرك يا حيلة!

فشال برأسه إلى السماء وقال بوضوح لا يفهمه سواهم:

- المطر شقق الجبل!

فنادى "كفنو ":

- يا اصتباحتى، أين الجوزة؟ حيلة لما نطق شق الجبل!

طمأنه "سوكه" قائلا:

- الجبل شرب المطر كله يا حيلة!

برطم مشيرا إلى قوائم الأرمد وطين الأرض، وهو يعنى طين الجبل.

سأله عنتر متكلفا السخط:

- إن طلع الحمار الجبل تطلع أنت؟

فزعق فيهم شاكما الأرمد، وخاض بعبال جسده المكين شاقا احتشادهم. لم يفكر أحد مجرد التفكير أن يعوق جيشانه، ولكنهم ترصدوه بالمكر، وأعدوا له "فرشة" طعام يشتهيه كما تشتهى الكائنات الماء.

ولمن شاء فليعزر حيلة إن أنساه السمك الطازج الأرمد وشنطة أم وجيدة وحاجاها من العطارة والخضروات، ولمن يسأله عن "بروتين" السمك؟ فليسأل الدود عن الإنسان؟ ولما كانت المرتفعات وأشجار الكافور تتصدران سفح الساحة بجلاء بحيث لو برز الأرمد من ذروها إلى حيلة؛ لرآه كما يرى نفسه في المرأة على تعبير العايق.. وقال عنتر:

- يا سلام، لو علقنا شنطة أم وجيدة برقبة الحمار!

فنادى كفنو:

- يا دخان الأمس، إن طلع حيلة الجبل سأطلع أنا وراءك مليون سنة قبل السطل ومليون سنة بعده!

وتضاحك سوكه وقال:

- أنا أرسلت إلى "أوكي" كلمتين: اسطل حيلة!

وفيما كان حيلة في غفق اللذة يُسامر القطط في مواء المُؤاكلة؛ أسلموا الأرمد صبى من صبيانهم، طالما سمع نهيقه، ما إن ينادى منادٍ على حيلة، لذلك اعتلى ذروة الجبل المرهوبة و نادي على حيلة؛ ليُسمعه نهيق حماره كأقوى ما يكون نهيق الفراق والرهبة.

كان جالسا بصدر الساحة، فسارق بصره الأذرع المُصوبة حيث ذروة النهيق، ثم ظل مشدوها ما بقى من العصارىِ، وهو أسفل الجبل يتنمر للجبل وبينه وبين الأرمد المطوق بشنطة أم وجيدة جرف هاوية لا يخطو حيالها خطوة إلا وهو يتقهقر خطوات؛ كمن يستيقظ من غفقه على بدء الخليقة. يقول عم نحمده:

"حيلة ترهبه الشمس والهواء والمطر والنيل، ولولا الألفة لأرهبه الشجر. لقد خلته يعتقد الولاية في "الطاهر" مذ حمله رضيعا. حيلة يخشى الله في البواكير خشية من يرى المخلوقات تخرج من يد بارئها!"

كان عناد الأرمد على شفا الجراف فضيلة تسمى الوفاء، فطاوع الصبى وهو يجذبه بطوق الشنطة، ويهبط به في الجراف الخشنة المبطنة بمخلفات الحضارة وأفرافها، ويجتهد الصبى في أن يكون الهبوط هادئا طبيعيا لعل حيلة يجيش للعب ويقطع الجبل صعودا، ولكن تنمر حيلة تقهقر، ولعبه مسامرة في سامر النوم. وينفلت الأرمد عائدا أدراجه، حتى سرح الصبي في سبات حيلة وهو يقتعد الأرض، ثم أيقظه مناديا:

- يا عم حيلة، لف وراء الجبل وتعال من طريق القرافة!

فخطر له عناد خوفه وإعراضه عن نحمده إذ يستميله إلى الشِعب المختصر لطريق القرافة، وقد بلغ منه الكد مبلغه في جنازة رجل المولد، وفي قيظ الدفنة. ولكن إرادة السبات نهضة بحيلة مُستجيبا لهتافها، ودار حول الجبل إلى الطريق الذى تضعضعت دونه إرادته مهما بثه نحمده

وهن صحته خلال فترة الحداد على الأرمد المصعوق.

انظروا حيلة فوق الجبل!

صيحة أطلقها أرباب السطل وصبياهم وكل من ترقبها بساحة الباطنية، وقد تناه ضجيجها وهرجها إلى حيلة، إذ يلتحد ببرج المراقبة. وكافأه الصبى مطلقا سراح الأرمد، وكافأ نفسه متفرغا للتهليل ومخاطبة الجموع الطامحة إلى ذِروة الجبل:

- أنا الذى أطلعت حيلة إلى هنا!

ويا استهويه ضجيج الغروره فيرى حيلة مدى سهولة هبوط الجبل، ثم يريه مدى سهولة الطلوع، بينما خلص حيلة الأرمد من طوق الشنطة، وأناخ مسندا ظهره إلى حائط البرج وهو يحسب أنه مستقبل القرافة وحدها فهاله مواجهة جبل المقطم!

راقب "أوكي" عذاب حيلة كما يراقب الغرباء عن الحي. التبليغ بقطع السبيل عليهم لا يكون إلا والخطر مرجح والريبة مُستفحلة، وفى عذاب حيلة خطر محتمل، كعواصف العشق الثلجية؛ لذلك التزم "أوكي" الحياد المشوب بتبسم عطوف، وتضاحك ينساب كدخان سجائره ذوات السطل والصيت ومغنيته عن الجوزة نهائيا. مال على حيلة من جلسته بزاوية البرج وأنامله ممسكة بإحدى سجائره؛ فشطرت جبل المقطم بين عيني حيلة. أخذها وأشعل في مكانها أوكي عود ثقاب، فأطفأه حيلة دون تعمد بدفعة من حنجرته توصى الصبى بإبقاء الأرمد قريبا، أشعل ثقابا ثانيا، فأطفأه حيلة متعمدا وتضاحك من نفسه العابثة بأوكى فقال هذا:

- والنبى، ضحكتك حلوة يا حيلة!

وعاتب نفسه، أو عاتب أرباب السطل:

- ما للسطل وهذه الضحكة؟

بسط كفه ليسترد السيجارة فدسها حيلة في جيب الصدر من الجلباب وبرطم بما أضحكه، ومعناه:

- سأدخنها أنا والأرمد!

اعتدل أوكى وهتف مازجا ضحكه بصراخه:

- هل سيفرق القدر الإنسان والحيوان، كما فرق الإنسان والإنسان؟!

ثم أخلد لسيجارته ومراقبة ثغرتي الجبل، فيما راقب حيلة الصبى وهو يمتطى الأرمد ويقوده إلى أشجار الكافور.

همَ بالنهوض ولكنه أخلد للسبات؛ فرأى الشمس تبزغ من صخور المقطم وهزه الأرمد فعرف أنه يمتطيه لأول مرة في حياته. قال له غير هياب:

- إلى الشمس يا أرمد!

فأوغل يقطع الخلاء ومن ورائه القبور، حتى وقب من قرصها؛ فصاح بها حيلة:

- لا تغيبي أبدا!

انخلع قلب "أوكي" من صياحه كأنما قلبه لا يزال يهتف بالمحبوبة المُطلقة طلاقا بائنا. عقب طلاقها اتهمته حماته بالشروع في قتلها، وقد حملت إلى قسم الدرب الأحمر أداة الجريمة، المرسلة إليها في تهديد صريح بخنقها بقطعة فوقية من بذلة رقص مهداة إلى ابنتها، وفى "كنيف" الحجز صادفته ضفدعة ضخمة تشبه حماته؛ فتضاحك كقرد يصرخ في وجهها من سُخرته في الغرام، وما كذب أن شطف الضفدعة، ثم ألبسها بذلة رقص كاملة من قصاصة كفن، ثم أرسلها إليها كدليل تالٍ لإصراره على الجريمة.

انتشى "أوكي" بنفسٍ من السيجارة بطول الذكرى والطلاق

والحبس والفضيحة. كتمه طارحا ظهره على الزاوية؛ لينفجر الدخان ضاحكا يدغدغ جسده، كما لو كان الضحك "ضفدعة متوحشة تفترسني" بدد صياح حيلة المطلسم خواطره، فبخع نفسه بالضحك متصورا الضفدعة ببذلة الرقص تراقص عم نحمده رقصة الحرام.

بسط ذراعيه للقدر مسترجعا موعظة حماته لابنتها:

"كيف أسلمك لندرجى يُصفر للمساطيل ولا يستحى من المآذن حوله!". أنا صفرت لهم وأنت صفقتى وهى رقصت.

صيح يا حيلة، وأسمع حيطان السماء، لو كان لحماتى عُشر جمال ابنتها ما استباحتها وسفحتها. كانت ضفدعة يا حيلة، تشتهى جمال ابنتها اشتهاء المساطيل للسطل.

صيح يا حيلة، وأسمع مآذن الدنيا وكنائسها كما أسمعت أنا أم وجيدة: ربنا ابتلاها بجمال المحبوبة، وابتلى المحبوبة بقبحها، لا هذه تصدق قبحها ولا تلك تصدق جمالها، وأنا المصدق بالجمال والقبح في عذاب مقيم.

صيح يا حيلة، وأسمع طائر "الشقلباظ" ذاك المهرج الذي يشبهني.

جهجه صياح حيلة للشمس..

فتراءى المخبرون وأوكي. انتفض من زاوية البرج يُصفر صفير الكبسة، وقفز إلى حيث يفر مرددا:

- الحكومة يا حيلة.. الحكومة يا حيلة!

هجم خلف على الجبل، بينما اندفع إلى الساحة وما دونها سائر المخبرين.

أمسك حيلة شنطة أم وجيدة وعجز عن النهوض وهو يردد نص العبارة كأنما يقوى نفسه ويحذرها من مهلكة:

"الحكومة يا حيلة.. الحكومة يا حيلة..".

بهت خلف غير مصدق أنه أمام حيلة. سأله:

- ما أطلعك هنا يا حيلة؟

لم يكترث ببرطمته، ومد ذراعه إلى الزاوية آخذا علبة السجائر المحشوة، وكشح فرشة أوكي وما عليها من شرائط لعبد المطلب، ثم هبط إلى محيط البرج وأخذ المُسجل وقفص الحمام المُهدى للمحبوبة والمرافق لأوكى يومى الجمعة والأحد؛ على أمل الخلاص منه وبيعه لأي قادم من سوق الحمام، ولكنه خلاص من قبيل مغالطات النفس.

أو كما قال:

"اعتدت على الخلاص منها كأني أحبها من جديد!"

أو يقول:

"خلاصي منها إخلاص لها!"

أو يتعزى بما سمع:

"الخلاص من الحب وصول إلى نهايته. حب حتى توصلك النهاية، ولكن لا تساءل عن بر الأمان!"

رجع خلف إلى حيلة، فبرطم مشيرا إلى الصبي القادم من ناحية أشجار الكافور ممتطيا الأرمد، وقد تخابث مناديا على حيلة؛ لتتوالى الناهقات تحذر خلف، أو تنبهه إلى سبب صعود حيلة الجبل.

حسبه خلف يختصر الطريق إلى القرافة. تجاهل عبال جسده المنوء بالنهوض، ونادى على الصبي:

- يا ابن سعده، هات الحمار ولا تسلمه لحيلة!

برطم فوبخه يتهمه بأثر رجعي:

- الأفيون كان في جيبك يوم طلعة رجب!

ويحد نظرته على نفس الجيب العمران بسيجارة الحشيش، وزجره:

- الأفيون كان في الجيب ده صح؟

ويهدده نازعا الشنطة من يده:

– على الطلاق لأحبس لك الحمار!

يفتش الشنطة ويسأله:

– دى شنطة ابن الملقطة؟

يقصد أوكي.

يلتقط اسم أم وجيدة من برطمته ويقول مستنكرا:

– شنطة أم وجيدة، كيف؟ وأنا أشم رائحة الحشيش منها!

فينظر حيلة مذعورا إلى علبة سجائر أوكي بيد خلف؛ فيدسها في جيبه متوعدا أوكي:

– على الطلاق لأحبسه بعلبة سجائره!

يقه حيلة كاسرا رأسه على جيب صدره يشم رائحة الحشيش.

وكان الضابط بالكاد يرى الصبى والحمار فنادا يقول:

– إيه يا خلفا! أنت ستقف ندرجى فوق؟

فظهر على حافة الجبل يقول:

– ده حيلة، يا منصور بك!

فقال:

– وحيلة ده الحمار؟

– لا ، حيلة صاحب الحمار!

– وستشترى منه الحمار يا خلف؟

– لا يا منصور بك، أنا سوف أشترى حيلة من الحمار!

قهقه حيلة وحده وراء برج المراقبة وتجاهل البك نكتة خلف قائلا:

– وما هذا الذى تحمله؟

– ده حمام حيلة وتسجيل حيلة!

– وأين هو سى زفت؟

- عاجز عن القيام يا منصور بك!

- انزل به!

استدار وقال للصبي:

- اسبقنا بالحمار يا ابن سعده.

حد نظرته لحيلة يأمره بالنهوض ولكنه لم ينتظر؛ وألقى قفص الحمام شاسعا خطواته صوبه، وعبثا أن يقيمه أو حتى يزحزحه، وما درى إلا والأرمد يهاجمه بشراسة قاضما أسورة الجاكت. أفلت ذراعه من الفك الحديدي وقد ظن أنه نجا، ولكن الأرمد واصل هجومه مستخدما رأسه ومشفريه؛ ليقهقره في الجرف البارزة المتدرجة ويُسقط من يده المسجل فيما تداركه حيلة وعانق رقبة الأرمد حتى ألفى نفسه أسفل الجبل يقهقه، وبسرعة أفاق خلف، وتوعد حيلة قائلا:

- على الطلاق لأحبس لك الحمار!

والتفت للصبي يقول له ولا يمنعه من التضاحك:

- اطلع يا ابن سعده، وهات المسجل والحمام!

تخابث وقال ناظرا للضابط:

- ده حمام أوكي، وتسجيل أوكي!

فانتهز خلف تضاحك البك قائلا:

- الحمار قبض علي! إنه ولا خلف في زمانه يا منصور بك!

أوسع البك خطاه إلى الساحة وهو يقول:

- هاته ياخلف؛ فتقريظك له يرشحه للاشتغال معنا!

نظرة عم كامل لا تأمره ولا تنهاه، نظرة مخضرمة بأهواء اللعب وحتمية مصيره!

تنصرم الأعوام على مصرع ضياء أسفل أرجوحة المولد، ويأخذ محروسا إلى المرعى البائد ويقول:

- ضياء حضر من المدرسة وحلب لك ثدي الشاة في كوب الزير. ضياء انتظرك طويلا على الأحجار فقلت له: إنك لن تأتى! قال لي: أنك تلعب داخل القطار المقلوب، فحذرته من دُوار اللعب داخل القطار. نهض من الأحجار وأعطاني كوب اللبن، ثم تطير الطائرتين ورفعهما إلى حيث تحب:

"ضياء اللؤلؤ" عسى أن ترى طائرتك وطائرته من نوافذ القطار..

وقد يقطع عم كامل مباريات الكرة في المرعى البائد ويقول له:

- ضياء انتظرك كثيرا، ثم ربط حبل الطائرتين بالمزود ونام به، ولما خرج جدك من فجوة السور قلت له:

- اللعب ضياؤه شديد!

فطمأنني وقال:

- من لعب بالقلم كتب أسرع.

ولكنى حذرته:

- اللعب مثل الأرجوحة لا يُبقى على ظهره أحدا!

و يسأل نبوية ابنته سؤاله اليومي:

- أين هو؟

فتجيبه بلا وعى:

- ضياء؟!

ولما يصمت تقول مُتذكرة محروسا:

- إنه هناك.

تقصد واحدة من مظان الهروب: أشجار الكافور، وبرج المراقبة، وتل الأموات المنخور، ومُشجر الزيتون، والقطار المقلوب، وزرايب الخنازير، وترعة المجاورين، والشعب المختصر لها حيث جُحور الثعالب المندغلة في نباتات البوص..

أو تقول لأبيها:

- إنه هنا؟

وتقصد نومه في المزود متوسدا حقيبة المدرسة.

نظرته لا تأمره ولا تنهاه. نظرة مرجوة كالحرية وكالهروب. يتعادل في حيادها الخطران:

خطر النجاة، وخطر السقوط!

إلا أن يلمح في عيني عم كامل ساقية الأرجوحة تدور بضياء حفيده؛ فتبدى نظرته مصير اللعب. نظرة معنية بفرحة اللعب و دوامه ولا يعنيها تعبه وآثامه.

قال لمعلمه من وراء الطبلية وهو بدكة المطالعات يقرأ رواية "ثرثرة فوق النيل":

- عم كامل ينظر إلى بنظرة مدرب في غابة اللعب جل اهتمامه نقاط الضعف وليس المهارة!

فنظر إليه نظرة جلها إعجاب و قال:

- كثيرا ما تكون الهزيمة ضعفا مستغلا، وقلما ما تحقق المهارة انتصارا كاملا!

وأعاد مقولته في الندوة:

- الخيال لا يُخدره أمل يُنال، ولا يثبطه فوات رجاء. إنه شوق الحياة الزائد على رغباتها، أو هو إرادتها المكافئة لمصيرها.

أخبره محروس أن عم كامل بلل له التراب إذ يُهيل الردم من منفذ

الممر المتصل بالأبراج، والمفضي إلى تل التراب المنخور، ثم زحف من الفجوة ومن حيث اختفى سمعه عم كامل ينادى على لا شي، وخرج زحفا يقول له:

- رجوع الصدى يدل على إمكانية السير في الممر!

فتجلت في نظرته غابة اللعب وقال:

- ظلمة اللعب شديدة!

- أنى أعددت الشمع والثقاب وفانوس رمضان.

مشى إلى المصطبة ليتمدد القيلولة.. جلس وقال:

- كل شيء ينقص إلا المصير، وكل شيء هالك إلا وجهه!

عم كامل أسير المصير، وأم وجيدة أسيرة الحضرة.

قالت للشيخ حنفي:

- الخوف مما يقطع علينا الحضرة؟

فسألها:

- وما هو؟

فقالت:

- لقاء النفس!

طوي معلمه الرواية وسأله:

- أعزمت على السير في سراديب الممر؟

- ولن انتهى حتى أخرج إلى تراب التل وأسمع ما تنخر به ريح الأموات!

- ستجد بيوت العناكب غابة شهبا!

- سوف أبقيها لمن يأتي بعدى!

- احذر نور الخيال!

- سوف أتوحد بمصيره!

- الطاهر لم يعد!

- في يدي فانوس رمضان!

ولا يدري لِمَ قام معلمه من دكة المطالعات، وقد أبقى الرواية ومجموعة قصصية بعنوان: "همس الجنون" وأخذ محروسا إلى حيث يشير ناحية مئذنة "الحسين" وقال:

- هنا ولدا نجيب محفوظ!

وحرك ذراعه قليلا قائلا:

- وهنا ولد عبد الوهاب!

ثم رجع به إلي حيث يشير ناحية المغربلين، وقال:

ـــ وهنا ولد الشيخ محمد رفعت خادم القرأن.

وهو غافل عنها، ضبطته أخته يضع في الحقيبة الشمع والثقاب والفانوس. أتمت ارتداء ملابس المدرسة، ثم دارت في الشقة تغنى لمن شاء السماع:

"وحوى يا وحوى...."

ولحقت به في حجرة الجدة وطوقت ظهره قائلة:

- هل هلالك!

فخاطب جدته:

- قولي لها تنصرف إلى مدرستها.

قرصت ظهره هامسة:

- أنت طالع أم نازل؟

وأرجحت ذراعها الآخر علوا وسفلا، وقالت بلهجة توشى بالزهق:

- حتى جدتك لا تعرف الفرق بين طلوعك ونزولك!

- قولي لها تنصرف لشأنها!

فقالت الجدة وقد حسبت أنها ضاربة عصفوريها بحجر واحد:

- لا تنس إعطاء الفانوس لابن بيومي!

فخذلت أخته خيال الجدة قائلة:

- أما الشموع فأعطيها لابنة نبوية!

تقصد ابنة السبعة أعوام في القبو..

ضايقه غفلته وترصدها لأسراره. تنح عنها قائلا:

- لو سمحت انصرفي لشأنك حتى أقول لجدتك سرا؟

نادته مكايدة:

- يا أخي، أنت أسرارك تسبقك حيثما سرت. أنت تسير كمعتوه يقضم ياقة ملابسه. معتوه لا يرى أحدا. صدقت أم وجيدة: "من لا

يرى أحدا محط أنظار الجميع!"

وأشاحت في وجهه مستهينة بسرحانه المزمن وقالت:

- أفق، فأسرارك تسبقك.. تسبقك!

تضاحك قائلا:

- أنت التي تسبقيني دائما!

قالت مزهوة بمقدار ما تدارى غمزه:

- أجل أسبقك في كل سنوات المدرسة!

أمن على زهوها قائلا:

- وسنوات الكتاب!

شحذت الذكرى سخرها قائلة:

- زمان، كنت تنتحب على سلم الكتاب ثم تعود راقصا بغناء الطير، والآن أنت ترقص على سلم الهروب ثم تعود منتحبا بلا دموع!

فقالت جدته:

- ولكنه لن يسقط من سلم ارتقاه مختارا.

انصرفت قائلة:

- اسأليه، ألمْ يسقط من سلم مئذنة المارداني؟

تشير إلى انزلاقه على درجاته، بعدما رأى سوسن وأمها من شرفة المئذنة، وهما تسيران إلى المسجد لصلاة الجمعة وكانت أخته معه.

للمرتفعات طريقان.

يسلك أيهما على حسب الطوارئ والمحاذير. طريق برج الظفر إلى يسار البيت حيث وهلة الهروب وميلاده، وطريق حارة القبو الأقرب إلى يمين البيت، ومن ثم كان ينعطف إليها كما يغمض عينيه لأحلام اليقظة، أو يغمضهما لوهاق النعاس، ووشيش "البابور"، وغوارب الحضارة، ورموز الأساطير، ثم إنها المعبر إلى بيت أم وجيدة وجلساتها الصيفية بعد الفجر. تقيم صلاتها ثم تتبوأ الحجر الصوان كما تتبوأ مدارا لشجرة اليقطين. "بلاء الخير وإطاقة الشفاء"، وهى الجلسات الجارحة للطريقين على حد سواء. فإن أفلت من مرمى بصرها وتلفتها المنبئ فما هو بالمفلت من الكلب "حُنجُل" ولكنه كان يؤثر المرور عليها؛ لذلك اكتشف طريقا ثالثا خلف مسجد أصلم يبلغه بعد مجالستها قليلا على الحجر الصوان.

اجتاز حارة القبو، ومد بصره إلى تبسمها الندى المحزون. فيه معنى للفجر ومعنى لواجهة السبيل.

كانت الشمس مائلة عنها وأشعتها الساطعة سياج يتشتت فيه هباء التراب كما يتشتت "عفر" الطباشير في ظلال السبورة. كل من كتب بالطباشير، أو مسحه عَفرَ ظل الشمس المائل من النافذة، إلا أبله زهرة، وهو حديث العهد بالخروج على السبورة، أبصرته من نافذة الطرقة يُضرب في شعاع شاتٍ أذله الصقيع؛ فاقتحمت النافذة وقالت تثبت عزمه وتتحدى الضارب:

- لا تخف من الضربة حتى لا تخيف راحتك!

أو تقول لهم في حصتها:

- استجمع أعصابك كلها في راحتك تفشل الضربة، وتنهار أعصاب الضارب!

تصرفات الإنسان تجنى على المعاني! إننا لا نسمح لأي شيء أن يستقل. لا الخطأ ولا الصواب، ولا النافع ولا الضار، ولا الولد ولا الوالد. المعاني كلها تتشابه عندنا، حتى الطهر والإثم والكفر والإيمان.. إننا نأخذ من المعاني هواجسها وهلاميتها ونعلقُ بها كأننا "العفرة" في ظلال النور!

كيف صارت حضارة السور عفر وهباء؟!

أجابه من دكة المطالعات:

- وهل يستوي لديك وجود السور وعدمه؟

ويبسط ذراعه إلى "قُمقم الخيال" ببرج المراقبة ويسأله:

- كيف ميز الخيال "العفرة" من ظل النور، والحضارة من الهباء؟

تلقاه "حُنجُل" باندفاعات العدو، ولا يزال يقفز إلى صدره وظهره ويلتف حوله حتى جلس على الحجر الصوان. رد تحية صباحها، وأخذ نصيبه من السمسم وعود النعناع، وسمعها تقول:

- مالها بك؟

حسبها تتحدث عن الناظرة سألها:

- من؟

- التي توصيك بإنارة فانوس الهروب في فصل المدرسة!

أي أخته التي سبقته إليها. تساءل باطنه:

"لماذا الهروب ولد؟"

سمعها تقول:

- كيف أنقذتم أكرم؟

تشير إلى انقلابه في تراب التل صباح أول أمس. أذهله هتك السر؟ ولا سيما أن الذين نافسوه في التزحلق هو وأكرم من فوق التل، قرناء لهما من المحجر والزرايب!

- من أخبرك.؟

قالت باسمة:

- أموات التل!

قال وهو يبسم مثلها:

- حسبتها إحدى اليمامات!

- اليمام ليس مأموراً بإفشاء الأسرار.

لا قبل للخيال بالسبح في مدار شجرة اليقطين "إطاقة الشفاء" إنها تغمسه في رموزها كما يغمس الرومان مواليدهم في خمر الصراع. قال بثقة تحملها على تصحيح ظنه:

- أكرم اعترف لأمه، وأمه اشتكت لك الهارب؟

قالت غير مبالية بثقته:

- اسأل أكرم.

قال ضاحكا:

- ألم تخبرك أموات التل كيف نجا؟

قالت مطمئنة على صدقها:

- ما تراه الأموات غير ما نراه نحن!

والكذب أيضا لا يكذب في مدار شجرة اليقطين؛ إلا أن يكون الكذب خيالا ينطقُ بالصدق كهدهد سليمان عليه السلام. صور لها انقلاب أكرم لحظة السباق وهو دون الحضيض. مال بجناحه، ولكنه اعتدل وأمكنه الوقوف والتراب يغطي صدره. أسرعوا بخلع قمصانهم وإلقائها إليه معقودة الأكمام، ثم صور لها لحظة النجاة؛ فشخصت كيمامة لازمها الارتياع حتى استوت السفينة على الجودي. نبهها من شرودها مُسائلا:

- من أخبرك؟

فسألته:

- من كان بالقبو وأنت وكامل ونبوية تنظفون أكرم من تراب الذين تقطعت أرحامهم؟!

- كثيرون!

- لا أسألك عن هؤلاء!

أطرق متنهدا، ثم ثقب ألق عينيها الخواص وهو يقول:

- إذن هم الذاهبون؟

وضحك قائلا:

- ولكن الذاهبين لا يتكلمون إلا مع عم كامل!

تضاحكا معا، وبثته شكواها ووجدها قائلة:

- فيم عاودتم التزحلق على تراب الأرحام؟

- مادام التل موجودا سيوجد من يتزحلق فوق قمته!

- للزلل عناد تُحبط عنده الرغبة في النجاة!

- النجاة في الزلل!

- والدتك لامت فيك تلميذ العقاد، وتفكر في إنزال طبلية المذاكرة من السطح!

ثم أخذ بصرها "حُنجُل" وسعيه يتشتت خلف "عرسه" ثم غربت نظرتها في لوعة كالدمع، وذكرى كالوجد؟ بعينيها الضيقتين ألق للموت تنيره الذكرى البعيدة، وتخبو به الفرحة الحاضرة. سمعها تقول:

- أنت تأخرت على مدرستك!

سألها:

- من أخبرك؟!

فنطقت بحكمتها المأثورة وهى تعنى أن الكدر ليس في إفشاء أسرارنا لأن إفشاءها ضرب لازب، وإنما في جهلنا بهذه الحقيقة الناصعة، وهى:

"للأسرار آونة تكدر علينا ما كنا نستمتع به من عماء!".

انطلق إلى جامع أصلم، ثم دار حوله مستقبلا الحارة البارز في نهايتها جزء السور المقوض. ارتقى أحجاره المكومة وعاود الانطلاق حتى دخل القبو. مر بين المصطبتين المتخمتين بالزبائن وهم على ميلة العرجون وصحوة الأفيون! استغرب وقوف عم كامل على النصبة وحده وغياب نبوية؟ وضع الحقيبة على كرسي النصبة وأخرج منها الفانوس والشمع والثقاب، ثم سأل عم كامل:

- أين أم ضياء؟

التفت إلى ما أخرجه وغابت نظرته في رماح غابة العب، وأوزاه. أجابه:

- مدرسة عواطف طلبت حضورها؟

فضحك باطنه: "للأسف مدرستي طلبت حضور "نـمـسس" في عام الشهادة الأخير!".

حمل عم كامل الحقيبة من كرسي النصبة وجلس مكانها وهو يقول:

- السنين تُنقص العمر وكل شيء ينقص إلا وجهه!

ثبت الشمعة بالفانوس. أغلقه ومد يده يريحه من الحقيبة؛ فقال عم كامل:

- دعها لنبوية تعلقها في مسمار من المسامير..

فاجأت صغار الكلاب محروسا؛ إذ تمرق من الفجوة التي أهال ردمها في يومين. حسبها سفراء المصادفة وتدبير الخطر لمن عمل له مجازفا. زحف في الفجوة يتقدمه الفانوس ومن خلفه الجراء. تقدم غير هياب، ولكن راعه أن يشيخ الظلام المعمر؛ ويفنى في عتمة من قتام متغبر. سواد بعده سواد يتكاثف به انطواء الممر وامتداده وخطره. هباء الأحجار عالق في شيخوخة الزمن كما نعلقُ نحن في ظلال النور!

هل للأحجار أرحام قطعت كما قطعت أرحام التل؟ امتداد غائر كرموز الأساطير مُشوق مخيف، يتهدل من سقفه بيوت العناكب مستعرضة جوانبه وحجراته، وجل فرائسها من خنافس مدلاة بخيوط شهباء، منتهاها كفن مغزول مُحكم كغزل المومياوات. تحصن بظل الفانوس، وهالة لحظة الخطر:

"من لم يخلد معها فني بفنائها.."

هاهي أنوف الجراء حثيثة تشمم هباء الماضي وفرائسه، ووَاهِلة الحاضر الآبدة. خاض في غمار الشيخ الفاني بغريزة الأنوف المقتحمة المستكشفة. جسورة الغريزة في غفلتها تكتمل جسارتها.

تتبع صغار الكلاب في ضرب عشواء، ثم هبطت سلما يعترضه باب من قضبان الحديد تسللت منه تباعا وهو خلفها، حتى انتهوا إلى حلق برج غزلت جوانبه العناكب طباقا مُسدلة على محفل من الفرائس. لمسها كما يلمس سعيد نفير فصامه، وكما يلمس المنقب غزل المومياوات.

محفل أموات مغزول محكم. اجتازه والجراء إلى جنن ظلام منبثق من جنن، ثم راعه شُفافةُ الظلام، وتدريجيا تلاشى ضوء الفانوس؛ فلتمس منفذ الشُفافةِ المتعافية، فإذا به ركن مزغل عن يساره. أطفأ الشمعة واضعا الفانوس جانبا، وانتصب في مستطيل المز غل يروز ببصره الشمس وطيورها وأشجار الكافور وبرج المراقبة، وانحداره على ركام الحضارة كصخرة معشوشبة برعب الأسر والهروب. أين الجندي أسره ومحرره؟ قال له:

- ستجد تاريخ ترحيلي منحوتا بشجرة الكافور هذه!

ونظر مليا إلى الوهدة المنتهية بانتهاء القبة الزرقاء، ثم قال:

- العائد منا سيترك لك المنظار عند مينا البقال.

أخرج جسمه كله من مستطيل المزغل مثبتا راحته أعلى حزه وقدميه أسفله، فبدا كمصلب مائل في الهواء، أو طائر أسود صافاً جناحيه يقتحم قاعة الأعمدة على مولاه. سأله:

- فيم طالت غيبتك أيها الوزير قراقوش؟

- كنت أستطلع أحوال الأجيال القادمة يا مولاي.

- وهل استطلعوا هم أحوالنا أيها الوزير؟

- لقد أتى الجيل يا مولاي الذى يذهب إلى الشمس ولا ينتظر شروقها!

- إذا لن تكون الشمس شمسا!

- إهم يا مولاي يرون عبرة الماضي كوكبا معتما!

- فخليق بنا إذا أيها الوزير، أن ننتظر عبرة المستقبل كم انتظرنا شروق الشمس!

ظل صافا جسمه خارج المز غل يسترجع حوارا، ارتجلوه في الندوة حين سأله ساءل:

- والطائر قراقوش ماذا سيقول لمولاه إن صادفه في ممر الأبراج؟

أجاب شاردا:

- سأقول له القاهرة يا مولاي في هذا الزمان لا تحتاج إلى أسوار!

- لا تحتاج إلى أسوار متى عرف العالم كيف ينظر إليها؟

إنه لا يعرف التعب، ويعرف إثم الهروب!

أشعل الشمعة، واجتاز بالفانوس تقاطعات الحجرات والدهاليز وأبواب الحديد، وخامره أن يحرق بيوت العناكب قاطبة، ولكنه جفل أن تمس النيران فرائسها المعلقة في أكفانها حيث يصان الموت كما تصان الحياة. هز الخيوط منبها العناكب؛ فأتته مستطلعة.. ناوشها مُستمتعا بهروبها وفرارها، وبروعة النجاة وشرفها المروم كشرف الأقدام:

"كلاهما صيانة للحرية من ابتذال التهور وذلة الخنوع ". لاح له من مزغل التل مشجر الزيتون وبعض شواهد القبور والمظلات.

هنا فقد الطاهر، وهنا جاش حيلة بعاطفة الخيال فعلق صندله وصُرة ترب الأرمد أسفل التمساح المحنط بباب الشاهد. تشاغب الجراء بهرير[1] الجوع. تفقدها حيث هرهر، وجدها تجهز على أرز في رغيفي خبز، وقد تناثر في المكان معطف متهرئ، و خدادة وشلت من القش، وأكواب بلاستيكية ومالا حصر له من أعقاب السجائر..

لحقت به الجراء وهو يفيء إلى ركن المز غل تأهبا للخروج إلى التل، وأنه ليحمل الفانوس؛ وإذا بصوت نافر غليظ يأتى من أسافل السور. اعتمد ركبتيه وراحتيه ناهزا رأسه من المستطيل كأنه كلب يستطلع. أداره على امرأة تفترش تراب القرافة فوق ملاءتها، وقد أسندت ظهرها إلى حوض حنفية، بينما تطامن إليها شبح شبه راقد على جنبه.

كانت تعانده في دالة تمنع، أو دالة تهيؤ وتحفيز بحيث لا يستطيع إلا أن يفعل ويفت عنادها. أغمضت عينيها متلقية براحتها لهبا نافطا، ثم جرف الشبح ذيل جلبابها المزركش وتهيآ معا على اضطراب نزق أخفى اللهب النافط.

لا الكبار ولا الصغار غضوا الطرف عن الكلب "حُنجُل" بل هرروه وركلوه ونكلوا به؛ فيما كانت أليفته ممسكة به حتى رمق اللذة الأخير؛ لذة الأمومة وأصولها الأولى، وكان عم نحمده يعاتب الكبار في أليفة حُنجُل قائلا لهم:

- الوطء هو الذى يرعبكم لا الحياء؛ وإلا فغضوا أبصاركم عنها،

---

[1] هرهر الكلب: كشر عن أنيابه.

ولا تستبيحوا مهد لذتها المباح.. ما بال أمثالكم لا يستحون من صبار القبو؟ وأنتم ها هنا تعافون الحياء!

نفاق ضعف أم نفاق أنانية؟

هاهو الصبار، فما بال المرأة تتلظى بلهب الشبح النافط؟!

أين الوزير قراقوش؟

بل أين ملك الموت؟

أعرض عنهما مسندا ظهره بجز المزغل وإن بدت من مستطيله شواهد القبور كأنها رؤوس أموات، تشخص مآقيها إلى العاشقين، وقد برق بها الشغاف نُطفا اهتز به الترب؛ فأنبت أرواحا زايلتها روح أقبلت نحوه قائلة:

- أنا الطاهر!
- هل رأيت المرأة؟
- ورأيت الشبح!
- كانت تنتظرك!
- بل كانت تنتظر حرية الموت!
- وحريتها؟
- حرية الموت أسمى وأطهر!
- نحن نختار حريتنا!
- وحرية الموت تختارنا!

جعجع الصوت النافر الغليظ بقهقهة جاوبها ضحكة مستهترة برؤوس الأموات على شواهدها. اعتمد ركبتيه وراحتيه وهز رأسه من المزغل فتلاقت الأعين على أمر قد قدر. وكأن عينيهما بعد السفاح أكثر يقظة من ضميريهما. يقظة من غمرة، أو صفوة من عَكَرة خائره!

وبلهوجة آثمة أقامت المرأة ظهرها من الحوض حاشرة طرفي ملاءتها

بين فخذيها، بينما الشبح قد حقنته نظرة التلبس بجرثومة التهتك فصار قوادا للإثم ، وحدق في نظرة التلبس بافتضاح، ثم عرى فخذ المرأة قائلا لمحروس:

- هيا إليها ولن تقول لك لا!

فلكمت زنده وسحبت من أسفلها الذيل المزركش سحبة واحدة، وقالت وهى ترقب الآخر:

- كيف دخلت هنا؟!

وجدت لهجتها في تحذيره:

- المكان عندك غير آمن إن سلمت من الهوام، فلن تسلم من أماسخ البشر وهذا أولهم!

وربتت صدغ الشبح، فجعجع بالقهقهة و لم يتمالك نفسه وجرو من الجراء يبرز بين ذراعي محروس. هتف بدموع آثمة ضاحكة:

- أتفضحنا؟!

وتملق محروسا وهو يقول:

- والنبي، من معكما أيضا؟

فقال ضاحكا:

- معنا الوزير قراقوش.

قال الشبح مأخوذا كمن يعرض الاسم على ذاكرته:

- قراقوش ده أبو على بابا والأربعين حرامي؟

- لا، إنه وزير ملك الموت!

وكأنما خامر نظرهما خامر الإثم وتمثلا شواهد القبور رؤوس أموات تنضح مآقيها بعبرات التبكيت، ولكن الشبح دقق في قميص المدرسة وقال:

- الهروب إلى هنا من تلميذ فصيح مثل نية حسنة، والنوايا الحسنة

مهلكة لمن كان الهروب غوايته!

آه ما أشبه الكلمة بالكلمة والسهم بالسهم.

"أنت أغواك الهروب فإلى أي مد يأخذك؟ "

"وأين الأغصان.؟ "

"أنا حفظت لحنا كاملا لشادية، وقد أوقعته على البيانو في حجـــرة الموسيقى، وغناها الفصل كله إلا أنت!"

"وما هو؟ "

"تعالى يلا في غمضة عين لا تقول دقيقه ولا دقيقتين".

نعم للأسرار آونة تُكدرُ علينا ما كنا نستمتع به من عماء. وربما كان تأخره عذرا لأخته؛ إذ تطلع أمهما على أمر الفانوس والثقاب والشمع، ثم قالت لها:

- أظنه دخل إلى فجوة السور التي يشاهد عم كامل جدي يخرج منها!

فصاحت بها:

- التي ماتت تحت أحجارها كريمة؟!

تقصد زوج فهمى دربكة. فقالت تهدئها:

- سوف آخذ حيلة وأذهب إلى عم كامل!

فوَلْولت:

- حيلة! يا حيلتي، لكي يأتي لي بحذائه كما أتى لنحمده بصندل الطاهر!

قالت الجدة من الصالة:

- دعيها تذهب لأحد من أخوالها.

استقبلها عم كامل ضاغطا جفنيه على شُهب مقبلة من الذاكرة، أو ضاغطا على أرواح حضرت كما وصفته. أجلسها على المصطبة وهو يقول:

- ضياء ينتظر أخاك في المرعى!

تفحصت القبو باحثة عن نبوية وهى تقول:

- أين أم ضياء؟

قال:

- "شعلة" أخذها إلى الست الناظرة لتكلمها في نصب الأرجوحة بحوش المدرسة!

و"شعلة" هذا مالك الأرجوحة، وقد صرعه شريكه "البطاطى" في

معركة دامت بدوام الشركة. لاحظت الحقيبة المعلقة بمسمار القبو. نهض من المصطبة وصحبها إلى منفذ ممر الأبراج، وقال يطمئنها:

- الكلاب الصغيرة دخلت به هنا والكلاب هي التي ستعود به!

فاستهولت ضيق المنفذ قائلة:

- دخل من هنا؟!

وفكرت تستعين بسعد ابن نوفل فسألته:

- أين سعد يا عم كامل.؟

نظر إلى ما ظهر من سفح المرتفعات كأنما يتتبع شبحه وهو يختصر الطريق من والى القرافة، ثم قال:

- سعد في المقابر يصل ليل القمار بنهاره!

صاحت ضجرة:

- أين نبوية يا عم كامل؟

وتطوع معوض البنا سابقا للدخول من حجرة دربكة، ولكنه مال على جنبه ولم يعتدل؛ فانصرفت الفتاة عنه وهى تقول:

- أنا سأحضر خالي.

شيعها كامل بقوله:

- اطمئني! النائمون في الممر يعرفونه. كلهم خدموا جدك، وكلهم حملوه من المزاود نائما.

وتطاير النبأ بحبوب اللقاح؛ فتجددت في الأخيلة ذكرى الطاهر، وجنازة رفاقه، ولكن خروجه من حيث زحف أفسد على خيال الناس ربيعه..

تقدمته الجراء مارقة من المنفذ وترادفت متهافتة على صفيحة الزير. خرج ذراعه بالفانوس مضاء، وأكمل زحفه؛ ليقول له عم كامل:

- لقد حضر جدك، وفك حبل طائرتك من المزود وأعطاه لأم وجيدة!

اندحرت الفرحة بعيني أمه وهو ماثل أمامها ملطخا بآثار جريمة كاملة، ولكنه لا يدرى إن كان هو الفاعل أم أنه مجرد شاهد عيان، أو طائر أسود قد أعيته فراسخ الهجرة؛ فانقض على ثدي شاة بالمرعى البائد.؟

عاتب جدته قائلا:

- كنت معها اليوم عليَّ!

- أعصابها لم تعد تتحملنا معا

- وماذا سنفعل بقسمها؟

- عليك البر به..

قال حانقا:

- وما شأن السيدة النبوية بالهروب من المدرسة؟!

وحاكى أمه في لهجتها ونظراتها وتوعد يدها وهو يقول:

- وستنا فاطمة النبوية، إن سولت لك نفسك الهروب أو حتى الاقتراب من السور والأبراج والقبو؛ لأفعلن ما تفعله الأمهات الصالحات. أنت أفسدت نفسك وأفسدتني. لن أدعك تهنأ باستهتارك والعبث بي، أما المدرسة - الحائط المائل - الذى تركن إليه فهدمه أهون عندى من القضاء على تسولك..

كانت جدته سارحة تقارن ملامح المُحاكة ونسختها الأصلية التى شاهدت ثورتها وهى صامتة تماما!

قالت الجدة:

- حسبك من الأيام يوم الجمعة والأجازات.

قال مغالطا نفسه ومتحديا قسمها:

- وماذا لو هربت إلى مسجد السيدة النبوية؟

وتعرض لشيختي أمه: الشيخة "حورية" ضاربة أمثالها وضمير

وعظها، والشيخة زينب غزال المنبهرة باعتقالها!

قال:

- وماذا لو هربت إلى الست أم حورية أو الست زينب؟

وسأل الخيال:

- كيف تفتن باعتقال الشيخة ولا تفتن بحرية الهروب؟

قالت مشفقة:

- تجنب إثارتها من أجل صحتها!

ساوره اندحار الفرحة بعيني "نـمسس" ما أن رجع إليها من فراسخ الهروب. وقد اختصر لمعلمه وقائع الهجرة من وراء الطبلية، ثم قال:

- وماذا بعد الاعتراف بالخطأ إلا حرية الصواب؟

- اعتراف الضمير أم اعتراف الخيال؟

قال شاردا:

- الضمير هواجس من الخوف!

- بل الضمير "هم" تنشغل به النفس الحرة.

وسكت ليتنبه من شروده، ثم قال:

- الضمير يخاف النقص وليس العقاب.

- هل ما أفعله عيب يخاف العقاب أم نقص يخشاه الضمير.؟

- ماذا يقول لك ضميرك؟

- ضميري مع أمي، أما حريتي فمعي!

برَ بقسم أمه نافيا نفسه بإرادته، وواظب على الحضور إلى المدرسة حتى أثار حضوره ضجة كضجة الهروب؟

فقد أضح سطحها بديلا عن ذِروة المرتفعات. يتطلـــع منـــه إلى أشجار الكافور والكتاب وطيور مئذنة أبي حريبة وهى تهـــيج موليـــة شطرها منارة أجراس كنيسة حارة الروم، ويخفق قلبه في مكان "القبلة" حيث هوى في سقطاتها، ولكن قلب سوسن كان ينكـــل عـــن عهـــد الصعود إليه، كلما أبرماه في المرسم، وحجرة الموســيقى، أو حجـــرة الداده نعيمه، أو وهو ينسم رائحة الكافور في وجهها وشعرها وردائها، أو وهى تحذره عند مسجد الماردانى قائلة:

- يوميا وأبله الناظرة تعلم بطلوعك السطح!

وكانت الناظرة قد طلبت من أبله زهرة إحـــضاره إلى حجرتهـــا، فغض طرفه عن عينيها الجاحظتين وهي تقول له:

- أنت فرجة لا تسر عدوا ولا حبيبا، وستظل "شايل" حمارك حتى يتعب الحمار من العناد!

هتق باطنه.. قال:

- ومن يدفع ثمن الفرجة الحمار أيضا؟

تضاحكت أبله زهرة ماسحة رأسه بينما تعمقت الناظرة خياله "ذا الوازع العقلي. صدقه عمل وكذبه أمل.." كما أوجز لها معلمه حالتـــه في زيارة موجزة. قالت له:

- أبله زهرة قرأت على ما كتبته، وأنا معجبة جدا بخيالك ووازعه العقلي ولكن الخيال بغير زاجر من الضمير فجر كـــاذب! ثم أجلـــت الناظرة تضاحكها؛ حتى أجلست جدته أمام مكتبها وقالت:

- ابنكم "شايل" حماره وأنا "شايلة" الاثنين!.

وتشاطرها جدته الضحك مصغية إليها:

- أقول له أنت فرجة، فيقول لى: هات ثمنها!

ثم قالت بجدية المتطيرة بالضحك:

- طلوعه السطح مصيبة علينا كلنا. السطح بلا سور ومن غير المعقول أبقى شرطة التلاميذ على سلم السطح طول اليوم الدراسي!

وتستنجدها بعينيها قائلة:

- كانت الطامة هروبه من المدرسة، وطامته الآن هروبه إلى سطحها!

فتوحدت جدته "بتيمات" ربة الأرض قائلة:

- اجعله شرطيا على سلم السطح، لعل مسئوليته عن سلامة زملائه تصرفه عنه!

تعمقتها كما تتعمق خيال حفيدها. أظهرت الفرحة لها قائلة:

- فكرة معقولة ولكنى سأجعل له رفيقا، ولا ترجعي إلى البيت اليوم حتى تشترى له شارة الشرطة والكاب!

ثم أرسلت إلى أبله زهرة وقالت تستشيرها:

- من بالفصل يرافقه على سلم السطح أثناء الفسحة؟

قالت متحمسة:

- زميلته سوسن!

فقالت بلهجة قاطعة:

- لا، هذه عازفة بيانو وليست غفيرة!

- الوحيد الذى تأتمنينه عليه هو أكرم.

بنفس اللهجة:

- لا، هذا قد هرب معه!

- لو أفهمته خطورة الأمر ربما حرص على سلامته أكثر من غيره.

- أو كان أحرص على رضاه من غيره!

واختارت "نجوى" رائدة الشرطة، ولكن رفقتها لم تكتمل فسحة واحدة؛ حتى ثارت الضجة التي زلزلت المدرسة.؟ فقد أفاج إليه أكـــرم مرتقيا السلم الحديدى ولكن الفزع وقف به حيث بدا له أفق الـــسطح ضاربا في فضاء بلا أسوار يحيط بجوانبه. حاز وجهه بظهر السطح مناديا عليه يخبره:

- نجوى الآن في حجرة الناظرة تخبرها بطلوعك السطح!

قال غير مبالٍ:

- اطلع يا أكرم سأريك بيتينا من هنا!

ضحك بعصبية وقال:

- شكرا، فأنا أعرف مكانهما تماما.

- اطلع يا أخي.

- أنسيت؟

يشير إلى يوم اختل توازنه إذ يناوله فروخ الحِدأُ من قمرة المئذنـــة. تباعد عنه محروس إلى أن حاز بقدميه حز السطح، ثم قال صافا ذراعيه:

- كنت في حجرة اليمام أحبو على أربع مطاردا ما أأتلفته منه، ثم استترفت لهاثي وراءه، وخلتني أسندُ ظهري بقوائم سياج الطرقة الخشبي، ولكني سقط من بينها على بطن حيلة؛ فروعتني يقظتـــه كأنه هو الذى سقط في مجاهل السبات. بينما هتفت أم وجيدة بساجدة: "طفلى سقط يـــا ســـاجدة!" وبمجـــرد أن ضـــمتني وتنسمتُ رائحة الكافور؛ طاردت اليمام وهو يهـــرب مـــنى و يتطاير من بين القوائم الخشبية موضع سقوطي من ساعتي!

تمتم أكرم:

- قدماي ترتعشان!

جلس على حز السور. تشجع أكرم يناديه:

– خذ بيدي.

لم يحرك ساكنا.

– ها أنا ارتقيت السطح.

التفت إليه من مجلسه قائلا:

– أقدم كأنك الخوف ذاته!

– أنت ترعبنى بهذه الكلمة!

– توحد بالخوف تزهد فيه ما لم يجعلك مثله مخيفا!

– لما قلت لى توحد بتراب الأموات انقلبت في جوفه!

– والآن، أنت أكثرنا جرأة على قمته!

– قدماي تعجزان عن الحركة!

– هما خطوتان.

– اختلال توازنك وأنت معلقا خارج المئذنة كان رهيبا!

– هما خطوتان وتخلد خلود الخطر. هلم يا أكرم!

همَ أكرم أن يقول شيئا ولكنه خر في إغماءة ضجت لها المدرسة ضجيج الهروب.

و"للمرواح" أيضا وهلة من خطر الهروب، ولكن الهروب فردى أثرته من أثرة التوحد والخطر واللعب.

قد نهرب معا ولا نسمى هاربين حتى نتضاد ويكتمل صمودنا.

كان يحيل مرج المرواح واصطخابه وهوجاء فرحته؛ وهلة هروب مشبوبة تجازف الفزع؛ فيزا يل زملاءه من باب المدرسة منتهيا من عطفة سيدي سعد الله ابن الحسن، ومن منفذ بدرب شغلان يرتقى جناح المرتفعات فيما يالي التل المنخور، ثم ينحاز يمينا مقتفيا أثر السور بصحبة كليوس، ولا يحفل بما تقوض منه، وما ردم وزال، وتمثله فتيا قيد من قوة، وحرية من منعة.

وقف حيث تصعد من الجلمود أبراجه ومزاغل النبال والرصد والمراقبة، ويطيل النظر إلى المئذنة الهيفاء الرشيقة كأنما تطوف بها خفافيش ذلك الغور المنخسف بسور يأجوج ومأجوج.

وتأتيه سحب السماء بذكرى ضياء؛ فسرب ناحية القطار المقلوب. جناح ضياء الذي أغناه عن الطيران ولم يغنه عن السقوط من أرجوحة المولد. لم يكن يعدل بالقطار شيئاً، لا التسابق من قمة التل المنخور، ولا لعب الكرة، ولا مطاردة الثعالب ، ولا تطيير الطائرات، ولا وهلة الهروب.

قال له ضياء وهما بعربة القطار:

- كنت أعجب من نوم الطاهر بتجويف الجدار في حجرة اليمام؛ حتى اتخذت من القطار جناحا لي!

رحم الطاهر جدار، وحياة ضياء قطار مقلوب!

وهو الأول في وهلة الحياة، والأول في وهلة الموت، وهو أول من وحدا محروسا بمس سعيد داخل قبو جده، إذ لم يترك سؤلا عن الحرب والأسر إلا وسأله، وكان سعيد يصبر على أسئلة دائه لحبه لعم كامل أو

حب الموت فيها وحديثه الواصب عن الأموات، وبموت ضياء انقطـــع سعيد عن القبو، ولم ينقطع عن سؤال عم كامل عن حفيده وذلك من سطح بيته المواجه للقبو، وأحيانا يحدث ضياء عن الأسرى كأنه موجود يسمعه، ويعيد عليه قصة الطيار الأسير التي حكاها له جندي بالحـــارة، ويصر سعيد على إنه شاهد الطيار وهم يضعونه على التبـــة كهـــدف مباشر للطائرات المصرية ولكنه نجي والطائرات ماتت!

هو رحم الطاهر وجداره، أو جناح ضياء وقطاره المقلوب، أو هو السعي إلى سعيد حيث يجده بصحبة حيلة فى فى حوش أم وجيدة، وفي درب الهنود، وفي مربط الجمال، ونطاق المدرسة، أو ينتظر خروجه من حمام الدرب الأحمر ملجأه المستديم، أو وقوفه بعتبته منصة صـــياحه في السابلة:

"إلى سترة العرى يا مجانين يا حراميــه. إلى المـــاء لا النـــابلم. إلى المغطس لا الحديد!".

وفجأة يُوجم، ويحذر المتهوس يتحول إلى مجرى الشارع و يلامـــس أي شيء يصادفه، ثم يرفع يده متأملا صورة المس، أو يد الانـــسحاب التى اغتالت رفقاءه العزل، وينكبُ حافرا في التراب وما يلبث أن يطارد أشباح كل من لمسهم من الجنود والشارع، ثم يرتد إلى عتبـــة الحمـــام منصة الصياح:

"السترة، السترة، السترة.."

ويُحذر الجميع من بأس الجـــراد والحديـــد، وقـــد يقطـــع عليـــه المشاكسون السبيل إلى الحمام؛ فيشط في هياجه وفزعه إلى أن يـــصعد إحدى منارتي البوابة، ويقضى هزيع الليل وهو يخاطب القطب متـــولى والمؤيد شيخ، أو يهتف بالناس أجمعين:

"الحرب لا تنصر قويا ولا ضعيفا هو المجنون يا مجانين يا حراميه".

وقد يلازم حيلة بنافذة البوابة حيث يرقد بلوحتي الفنان المصور: لوحة اليمامة، ولوحة الكارو، وذلك كلما تجددت ذكراه، ويرفع لسعيد لوحة منارة الموت التي لم تكتمل بموته، والمستلهمة من سأل، سأله لعم نحمده وكان معه زميله السريالي:

- أكان يحتطب للحرب الكونية الثانية فى الخفاء وهى تنتبذ القرافة اعتصاما بأرواح لا تموت جزافا كما يموت الإنسان؟!

فقال عم نحمده:

- لو قدر لها أن تترل بقوم هيروشيما ونيكازاكى؛ ربما خرجت هم نبْأة الأِنتباذ قبل أن يترل عليهم الصبي الصغير من الجحيم!

يشير إلى اسم القنبلة الذرية، قال السريالي:

- ربما، ولكن هل كان أولاد العم سام سيضحكون من أسرارهم العليا المستباحة للضعف الملهمٍ أم كانوا سيغضبون غضبة أخرى؟

قال الفنان:

إن لم يكن وحمها اعتصاما بروح الموت فماذا يكون.؟

أجابه زميله:

- لعله نبأة فى ضمير العالم تتفصد عن براعم مشئومة تسقى من رحيق القبور أو تسقى من دماء الحروب!

استحضر عم نحمده رحى الحرب وقال:

- زرناها بستان الشاهد والأوزار تجعجع وكان معنا الطاهر يريد أن يستكشف الوحم الذي تشيعه عنها البدوية؛ من أها تتميع نفسها لأكل العقارب، وزواحف القبور أيام الحروب، وإنه ليستكشف الوحم المستفظع فى صداعها وغير الذبول فى وجهها وصيامها؛ كنا نحن نتطعم "بالوحم" ضد طائرات الحرب؛ لذلك لم يخفق لنا قلب ولا جفن وصفارات الإنذار يتواصل نعيرها كنوة بحر تفوخ أصواقا بوهدة

القرافة. كانت سجائرنا تتوهج فى ظلمات القبور كمنارة للطائرات! ولما استأذنت أم وجيدة لصلاة العشاء؛ قلت لهم:

- من يصدق أن آلافا من أرواح الموتى الآن قد فارقت أصحابها لتبلبل فى هذه الهامة الصاعدة؟

قال طه مدرس الجغرافية:

- إنها كقناة السويس، المتحاربون كلهم يريدون إخفاءها ولو مؤقتا!

وبارزني توفيق موظف البنك قائلا:

- هي كقناة السويس وأنت كالبحر الميت!

فقال مينا:

- ونحن أسماكهما الصغيرة!

وكصحفي محترف قال عزيز:

- وربما أشاع السياسيون أنهم ملائكة الحرب!

وبجدية موظف مثقف قال جمعة:

- أجل، لن تخلف هذه الحرب سوى طب السياسة الأسود، وربما حمل لواءه المنتصرون إن هزم هتلر!

ثم رفعنا رؤوسنا لأزيز الطائرات فتوسلت إليهم:

- والنبي، اطفوا الظلام وإلا شافتنا الطائرات!

فتضاحكوا حتى تساءل بدر المسحراتي:

- يا ترى على من تنوح الآن أم وجيدة أموات الغرب أم أموات الشرق؟

فالتحد الفنان بنفسه:

"قدر عليك أن تصور ريشتك كمنارة للموت وتطرح ظلالها متموجة هادرة كأنها نعير بارجته. سيظل صداع وحمها مألوفا للناس

وإن أرهبتهم غرة نبأته، كما يرهبهم ركوب البحر. الموت بعد غِرته مألوف حتى للغريق نفسه..

وسيظل صيامها فيما تعارفوا عليه إرضاء لأرواح فارقت أصحابها؛ ليعيشوا أمواتا على الدنيا أربعين يوما، وما أن تضع الروح سرها ضمير الموت؛ تعاهد أم وجيدة الموت على الوفاء والصيام وتبليغ نبأته بغموض يليق بجلال السر!".

أهدى حيلة سعيدا لوحة "منارة الموت" الغير مكتملة، ولكنه رمى بها في الجمرات المتقدة بدكان "حيطة" الحداد في نوبة بكاء..

وكانت أمه وأخته "هنومة" تحضران طعامه إلى دكان عم نحمده ريثما يأتي به حيلة من الحمام، أو ميضأة أبو حريبة، أو من دكان "حيطة" حيث يجلس لشرر الحديد وحمئه ساعات يتخللاها هاتفات يهتفها بالفنان باكيا:

"ليس للموت منارة، المنارة منارة الرمال!"

ولما يطارده التلاميذ يطارد أشباحهم، ثم يلوذ بعتبة دكان عم نحمده يشكوهم قائلا:

- كلما روحوا من مدارسهم نادوني باسم عدلية!

قال سائما الشكوى وسائما نصفه العاقل:

- جريك وراءهم هو سبب هوانك!

فيرتبك سعيد ارتباك الريبة في سفير الموت، ويتلفت مقارضا نحمده بنظرة الاستنكار قائلا:

- جريي وراءهم هو السبب يا حانوتي!

فيتضاحك عم نحمده من "كراهته المعكوسة"، ويستوضحه هواه:

- أنت تحب الحانوتي أم تحب نحمده يا سعيد؟

فقال يؤنبه تأنيب الفاهم لمغزى الكلام:

- أنت غسلتهم بالرمل وغسلت نبوي بالثلج!

يقصد الجنود، ويلقى باللائمة عليه لأنه لم يُحييهم بالثلج كما أحيا نبوي.

تأوه ضحك عم نحمده من ذكرى نبوي، ثم ارتكز على المكتب وتناهض وهو يقول:

- سأصلى الظهر يا سعيد، إن شئت بقيت في الدكان، وإن شئت أيقظت لنا حيلة من نافذة البوابة مرقده الذي يحي به ذكرى الفنان بما يسامره في غفق الميتة الأولى.

واستقبل مسجد طلائع مُحدثا نحمده:

"رجة الضحك هذه؟ أم رجة العمر الرزيل؟

نحمده لا يقوى على الضحك وأم وجيدة تقوى على الأحزان. يا شحك يا دنيا، حتى عافية الضحك استردد تيها غير منقوصة..

الضحك لا يشيب معنا والأحزان شابت. يا غدرك يا ضحك، يا وفاؤك يا أحزان، ملامحك من ملامحنا. نفس النضارة، ونفس التغضن، ونفس الغَرارة. وهن من وهن!

هل أنكرتك الأحزان يا نحمده في المرآة؟ كما ينكرك الضحك وتنكره؟ لو يهتف سعيد من عتبة الدنيا بهذه الوصفة:

"أيها الضاحكون إلى مغاطس الأحزان! ".

وتصرخ امرأة فيهطع سعيد مُسرعا متوجسا من دهليز الحمام إلى حيث يجد الصراخ يأسا قد وسعت رحمته كل من سمعه؛ فثار له غبار الأقدام من كل مثار، ثم ثارت الأصوات الناقمة:

- هذا الأتوبيس غول أطلقوه على عيالنا!

- الشارع ده موعود بالدم!

- التلميذة انتهت!

لمسها سعيد لمسة استترفها المس، ورفع كفه متـــأملا في صـــفحته جتزير الدبابات وأزيز الطائرات، وشق الشارع بطوله وهو يحذر الناس من صاروخ الحديد ونابلم الجراد، ويتنكب نافذة البوابة، ومن ورائهـــا يخاطب الفنان المصور:

– منارة الموت جنود رفعوا رؤوسهم لأزيز الانسحاب. الطـــائرة ماتت والطيار حي لا يموت إنه جريح في الأسر. وضـــعوه علـــى تبـــة التنكيل؛ فقام كمنارة ولكن الطائرات ماتت وبقى الطيار حيا!

ثم يصعد إلى قنطرة البوابة، ويطل من عرائسها متمثلا الأتوبيس حية بسبعة وستين رأساً، ثم يتحول إلى صحن المؤيد يناديه:

– يا مؤيد الحية رابضة ببوابة الرمال!

ويستترفه منظر التلميذة والعجلات الضخام تهرس عظامهـــا؛ فـــلا يبرح قنطرة البرجين إلا ليلمس صريعا جديدا، وقد يكون كلبا أو قطة، ثم يصعد إلى مرقب المنارة ويهتف برجل معمم تنشق له قبـــة الرفـــاعي ويأتي فوق سجادة خضراء؛ ليخرج الحية من الرمال.

وينادى عليه التلاميذ من صحن مسجد المؤيد؛ فيسألهم من مرقب المنارة:

– أين الذين أيدوه يا تلاميذ المدارس؟ مجنون من غره التأييد!

وقد يجدونه في شرفتها يعاتب عم نحمده مناديا:

– يا حانوتي، لما غسلت الجنود بالرمال في ليلة ساجدة؟

يقصد ليلة أم كلثوم من كل شهر، وهى ليلته الأخيرة مع الساهرين حيث استدعوه للحرب من محيط برج عم كامل..

أي من أفق حجرة اليمام حيث ترنو وتسمع ساجدة، ترنـــو إلى الكلوب والراديو المتوسطين محيط البرج فيلوح الموقع بظلالـــه وعلـــوه كطبق طائر في دهماء المرتفعات، ويصل صوت "ثومه" إلى مده المقدور

من مواقع النجوم ومواقع القلوب ويسرى في عود ساجدة ولطاف فتنته؛ فيزيده رواء على رواء.

"رواء صوت من رواء عود. ولعله ظمأ العشق يرفل في ثوبين من رواء!" على وصف أستاذ الندوة.

يقصد أن دوام الظمأ للعشق هو معين الرواء في صوت "ثومه" وعود ساجدة.

تقول أم وجيدة:

- معجزة صوتها في أننا نستغرب سماعه من غيرها مهما تغنت به مغنيات العصور.. في صوتها مزج فريد لمحاسن أصوات الرجال والنساء؟

قال لها الشيخ حنفي يصف عود ساجدة كأنه عودها:

- عود ساجدة "عبق كافور" لا الكفيف ينكره، ولا المبصر يقيم الدليل عليه.

رنت ساجدة إلى الساهرين وهى تناجى أمها:

- هؤلاء الساهرون عرفوا أين ينتظرون كوكب الشرق في طلعة الشهور.

كانت تتخدد كفها على السرير النحاسي، وقد أنضبت وساوس النبأة روافد روحها، وأبقتها "هشة كعصف نعناع"، ندت الغنة من صوتها:

- طاف بى أن سُقاطة البرج انخسفت بالساهرين، بينما ريح سحق الكلوب، وجر ظلاله كاشفا عن جثث جنود كأذيال الريح!

وتوجعت:

- آهً، رأسى هاش كعصف النعناع!

ناجتها ساجدة وهى تفيء إليها:

- لطفك يا أماه!

جلست على الكنبة الملتصقة بالسرير بحيث تضع راحتها على رأسها. سمعتها تقول ضاحكة:

- نحمده وقف بحوش الشاهد أمس يعينني على وساوسي ويقول: أنت مثل شجرة الصبار الموت من تحتها مغلوب على أمره!

فقلت له:

- ها أنا أشتهى ماءه وجثث قبوره كما تشيع عني أم الطاهر!

فقال مقسما:

- والله، إن هذا الاشتهاء لسراب تحسبه دودة القبر جثة!

وانتبها من تضاحكهما على انقطاع صوت ثومه؛ فاستطلعت ساجدة موقع الساهرين من شباك المرتفعات، وهو يعج بأشباح تضطرب.. وشاهدت من يحمل الراديو والكلوب؛ لتنحصر ظلاله مسرعة. تساءلت الأم:

- ما بالهم؟

- أمر ما يحدث في برج عم كامل؟ ها هي نبوية تلم الأكواب وحاجات السهر..

- أو كان معهم الجوزة؟

- لم أر المجمرة، وربما وشى دخان سجائرهم الغزير بأنهم قد خلطوا الحشيش بتبغها..

قه قلب أم وجيدة وقالت:

- إن يحرمهم البيات في القسم من سماع "الست" خير من أن تنخسف بهم سُقاطة البرج!

ولكن الأمر انجلى لهما و"هنومة" أخت سعيد تقول لنبوية بصوت مستبشر:

- إنهم استدعوا سعيدا للحرب!

فقالت نبوية:

- كانت الحرب تُستدعى لنا، وها نحن نستدعى لها، فهل ستأتيننا الغارات ونطفئ الأنوار؟

كأنه المخاض الهش يعصف بورقة النعناع وعودهـــا المديـــد ذاك الارتواء الظمآن.. ندت غنتها تنوح بغمة الواقع وابتهالها المقدور:

- الجنود يا بنية، في أذيال الرياح، والرمال تنـــسحب انـــسحاب الطوفان يا هول الانسحاب أيُّها الجنود!

ويسأل التلاميذ سعيدا من صحن مسجد المؤيد:

- أين ساجدة يا سعيد؟

فيتحول جهة حجرة اليمام ويخاطب أم وجيدة بأنه رأى ساجدة في باطن الرمال ترفل في ثوب الحج.. ثم ركبت مع المؤيد الهودج، وكـــان يودعهما رجل الرفاعي المعمم. استنهض الجمل بعصاه وقال لهما:

- سوف يعقد قرانكما في القبة المذهبة!

فقال المؤيد له:

- إنني مدعو لصلاة الجنازة في جامع قيسون.

قشط رجل الرفاعي بعصاه أمواج الرمـــال؛ فانخفـــضت وظهـــر المسجد في قاع صفصاف وبمدخله كان النعش يكتنفه طفـــل وشـــيخ. تقدم الشيخ يؤم المصلين فرقت قلوبهم للطفل وأبوا إلا أن يـــصلى بهـــم صلاة الجنازة. تقهقر الشيخ صامتاً إلى صفوف المشيعين. قالت ساجدة للمؤيد:

- أقم الصلاة!

فانحرف طرفه داخل النعش ولم يصدق الموت وأزميله ينحت وجها كالليث، وهم أن يبكى فتساقطت أسنانه على الصدر النبيل صدر سعد زغلول..

ويهبط سعيد من شرفة المئذنة ويطل على صحن المسجد ينادي:

– يا مؤيد، الرمال تتحرك بالهودج وتقصيه عن القبة المذهبة. يا مؤيد، عدلية مشت وراءك في ظلال الكلوب ولكنك سبقتها ثم اختفيت.. نادتك فرجع بها الظلام إلى الظلام، حتى دلها صوت كوكب الشرق على بقعة من الضوء. ولجتها ونظرت إلى تسألني:

– من أين أتيت؟

فسمعت صوتين:

صوتا يتردد من الرمال، وصوتا يتردد في مواقع النجوم..

وينادى التلاميذ سعيدا من أسفل البوابة..

فيصعد إلى مرقب المنارة ويخاطب جبل المقطم:

– يا مقطم، دوى الانفجار وراءك مجهول المأتى والغايات؟ وتبرق في ظلمة كالظلمة؟

ويتكلم عن دخان فاحم يتعرج من نوا فير الرمال وينعقد زاحفا في هيئة خنزير، ثم يتفكك ويبقى وجهه يزحف به الريح إلى أن يلج بقعة الضوء.. وتغمض يمامة ساجدة عيني سعيد، وتثب باسمة للخوف مرفرفة رفيف الرعد؛ فمس ألقه أمواج الرمال واندحَ كسرمد البرق...

قال "مدبولى" كياس حمام الدرب الأحمر لعم نحمده بعدما أخفق في إنزاله من المنارة:

– سعيد نفر منى نفرته من الناس. ذكرته بالمغطس فزاد نفوره، وطالبني بالصعود إلى المغطس الحق. أي قبة الرفاعي، وأفزعني بهتافه:

"يا قطب، حبيبك فارد سجادته الخضراء".

افتر السحر من تبسم عم نحمده وهو يقول:

– ضلالات النكسة والأسر هذه هي كشف الجنون المدخر لعقلاء الحروب، والبلية في ألا تطول سهواء الليل بسعيد وهو يتنطط فوق

عرائس القنطرة حتى يبخعه كشف الجنون!

استهول مدبولي أن يقضي كشف الجنون، أو ضلالات العقول على فتوة لم يشاهد لها مثيلا في أجسام الرجال، وقال:

- يخلع سعيد ملابسه والترهل بجسده إن عصرته يُعص، ولكنه يغطس في لماء برئة حوت، ثم يخرج منه وجسمه مفتول بصفائح سلحفاء! والله لقد حسبته ملموسا بمارد، لا يبقى بجسده دقائق؛ حتى يترف الترهل من جسمه ويتخبخب في رخاوة مضطربة!

وكان حيلة يجيش لمخاطبات سعيد كلما زمجر الأتوبيس أمام البوابة، ولم يفوت يوما إلا ووضع يده على الأتوبيس ويبرطم له بهذا السؤال الذي سمع إجابته مرارا:

- أين هي رؤوس الحية السبع والستين يا سعيد؟

فيجيبه متضاحكا وناظرا إلى الأرمد الملصق وجهه بظهر حيلة:

- الأرمد يشفها يا حمار!

ورِهق[1] سعيد بغِرة صراع نشب بين برجين البوابة، وانفض بسقوط فرخ صقر من مخالب صقر على الكارو، وبحذر الرَهَق أطل من القنطرة على حيلة وهو مُعلق له رأسه الضخم، وممسكا بفرخ الصقر يشجعه على النزول..

ولما واظب على إطعامه دودا يستخرجه من روث الأرمد؛ تجرأ سعيد ونزول مشاركا التلاميذ الفرجة، ولكن من خلف نافذة البوابة الشاسعة.

فى مرة حمل محروس الفرخ ودخل عيله النافذة، وتردد في لمسه غير أنه لمسه مذكرا محروسا بيوم البومة، التي حبسه معها بمنور بيته بدرب

---

[1] رهقه: أي غشيه.

الهنود، إذ كان منور سعيد يُعدُ مهبطا للبوم لكثرة ما يغشاه من الفئران، ولقربه من الجبل ومن ثم أشجار الكافور. بابه من أسياخ حديد مواجه لقبو عم كامل، ومن محيط برجه استهدف أكرم "بومة" بطلقـــة رش فسقطت في المنور يتبعها ريشها المنسول وزمجرة هنومة أخت ســـعيد. رصدهما من شباك حجرتها قائلة:

- ألم أحذركما من استخدام هذه البندقية هنا؟

فتجاهلا حنقها متوددين:

- والنبى، يا أبله هنومة البومة ستطير!

- آخر مرة!

لكنهما استوعبا خطب تحذيراتها السابقة وسعيد ينتصب على سور السطح معسكرا خطواته في الجهات الأربع، ويغنى للطيور فوقه أغنيتـــه للأرمد:

"خلَّ السلاح صاحى"

ثم أوقفته وثبات مُجهضة للبومة؛ فأمر أكرم:

- استعد الهدف يتحرك!

انتهرت هنومة حامل السلاح:

- امش، بهذه "المخروبة" من هنا!

فقفز أكرم بالبندقية من جانب البرج المتهدم ناحية الملعب بينمـــا طمأنها محروس قائلا:

- سعيد نزل من السطح.

انحنت برأسها إلى البومة وألمت بها لحظة، ثم قالت:

- لا ترجع بهذه المشئومة إلى أمك!

طلب منها مفتاح المنور.. تضاحكت وقالت:

- ستك سوف تحارب من أجل إبقائها في البيت!

ثم وهي توشك على الانصراف:

- وربما استضفتها شهراً وأم وجيدة شهراً!

ومن شباك غير الشباك ألقت بالمفتاح، ويبدو أنها تطيرت من الفرجة والترول إلى المنور؛ فقالت تحذره:

- اتق شؤم نظرتها وعمى مخالبها يا محروس!

دفع باب المنور فحفز صريره البومة على وثوب تستطيعه، غير أنها لم تفعل وأسدلت جفنيها على دراية بقدرتها وقدرة القنص وقبضت هلالي أذنيها كأنما تصميهما عن هدير النجاة.

في وجهها مسحة من طفولة عجوز. وجه وديع وليس بالغرير وإن تلونت الظلمة في استدارة عينيها، وتموه ريشها تموه القنص ومنقارها بقوس المخالب.

أصاخت لحركته الهينة الوئيدة نحوها؛ فأيقنت أنه ريح القنص وأرمشت جفونها تتعجل انقضاضه، وتخاوصت[1] مغمضة على ميقات القنص لتسلمهُ نفسها بسكينة تريدها لفرائسها.. فيما ثبت هو لسعيد، إذ يأخذ المفتاح من القفل ويغلق به الباب ولبد خلف أسياخ الحديد واجما، والخوالج في عينيه مشوبة منقسمة على نفسها كلها حادة كلها جامدة. سأل محروسا من خلف أسياخ الحديد:

- ماذا قلت للعيال؟

يقصد أصحابه بدرب الهنود حين طاردوا سعيدا بالحجارة، وبالنداء على عدلية فصاح فيهم مغاضبا:

- أنتم تنتقمون من جنونكم وليس جنون سعيد!

والحق إنه كان يترجم استياء معلمه من الكبار حين انقلب تشاغبهم

---

[1] تخاوصت: ضيقت عينيها.

مع سعيد عراكا أهوجا، انقلب بدوره انتقاما أهوجا أقعده أياما في مستشفى الدراسة، ولما زاره كشف له سعيد بالغ إصابته والهمل منها، ثم قال:

-إني دافعت عنهم و لم يدافعوا عني!

يقصد أنه منع غضبه عنهم و لم يمنعوا غضبهم عنه، مع أنه قد أصابهم مثل ما أصابوه، وأقعدهم في المستشفى مثل ما أقعده.. وقد أثار المعلم عبارة سعيد في الندوة وتكلم عن سنوات أسره، وبعضهم وصف انسحابه بأنه انسحاب من يريد القصاص، ولكنه لا يدرى ممن يقتص، وبعضهم قال:

– قسوة الجبن عاتية أعني جبننا. فكل من جبن من عقاب نفسه أسقط العقاب على غيره.. في أمثل وقت لعقاب النفس بذلنا سعيدا قرباناً عن أنفسنا ولسان حالنا يقول: لن يهزمنا إلا مجنون أو لن نهزم إلا من جنون فينا، وقد جعل الأسر العدو حاضرا متجسدا في سعيد. مسكين من كان اسمه سعيدا أو كان الجنون اسمه!

فتح سعيد باب المنور وقد انقطع عن حديثه محدقا بالبومة.. تقدم ولمسها، ثم قال:

– لا تأسرها وأسلمها أم وجيدة تداويها!

لم يُشاهد سعيد فك أسرها ومحروس يطلقها من حجرة اليمام إلى أشعة اللؤلؤ. سألته أم وجيدة:

– ما لونها؟

فقال:

– بيضاء!

ثم ضجت الحارة:

"انظروا إنها بومة أم وجيدة البيضاء!".

كما لم يشاهد سعيد أوكي؛ وهو يفك أسر فرخ الصقر؛ بعـــدما استبدله من حيلة بتسجيل الغرام ، ثم جلس في نفس المكان القديم أسفل بالكونة محبوبته البائنة منه رغم ما تعاقب عليها من محللين؛ وربط إحدى ساقي الصقر بحبل مربوط في معصمه، وروّضه على إسقاط كـــل مـــا أهداه إليها من الحمام الذي عجز عن بيعه، أواستبقاءه عنده، أو حـــتى التفريط فيه لغيرها؛ فسترده الصقر منهوشا ومَتروف الجراح، ثم صـــعد إلى برج الهوى وفك سراح الصقر..

وإن جالس حيلة بنافذة البوابة رهقه زمجـــرة الأتـــوبيس وغرهـــا؛ فينتفض إلى حيث يطل عليه من القنطرة ويخاطبه بما سمعه مـــن أحـــلام حيلة. كأن يحلم برؤوس الحية تهاجم الأرمد وتحمده ورجل الرفـــاعي والقطب متولي، ولما تبتلعهم في ممر البوابة؛ يُخرج حيلة رؤوسها السبع وستين من الرمال ويأكلها، ولكن زعاف سمومها حول جسده الهائـــل ترب، صره سعيد وعلق صُرته بعتبة الشاهد أسفل التمساح المحنط!

ويسمعه التلاميذ يخاطب الأتوبيس فيجيبونه:

- يا سعيد يا ابن عدلية، حيلة يأكل رؤوس الحية!

واجترؤوا على الصعود إليه؛ إذ يشير إلى محروس من بين العـــرائس بالصعود.. ترادفوا خلفه على سلم القنطرة، وظهروا لسعيد فنفر منـــهم مختفيا في سلم المنارة، ثم ظهر بالشرفة. تملقه تلميذ قائلا:

- والنبى، ركبنا السجادة الخضرة يا عم سعيد!

ويسألونه عما في القبة، فيختفي ثم يظهر بالـــشرفة التاليـــة وهـــم يهتفون بهتاف المرواح:

- يا سعيد يا ابن عدلية، هيا اغطس لنا في القبة!

وفيما كان محروس ينهاهم بقوله:

- حرام عليكم سعيد أُسر في الحرب!

كان سعيد يجيبهم متضاحكا:

- الدرب الأحمر كله مجانين وحرامية!

وأرعبهم صوت منهم زعق صاحبه وفر هاربا:

- سعيد نزل لنا!

فلم يسعهم استطلاع الشرفة من زعقة الكذب، وفروا كلهم هاربين إلا محروس؛ فقد ثبت كما كان يثبت وسعيد ينفلت إلى دكان جده ويظل صامتا ويجيل نظرته الحادة الجامدة في الخطاطيف المعلقة بالجدران كأنما ينفذ إلى ماضيها، ثم لمسه وقال:

- الانجليز استولوا على أغنام جدك في باب الخلق!

وزاغت نظرته خارج الدكان وقال:

- عدلية نصحته بقفل باب الخلق!

فقال لها:

- أبواب الدنيا لا أقفال لها يا عدلية!

تطلع إليه وهو لا يزال بشرفة المنارة قائلا:

- أوكي فك سراح الصقر!

فارتبك سعيد منكمشا برأسه عن طيور السماء البعيدة، واعتدل مركزا نظرته خلف محروس؛ فاستدار لتقول له هنومة:

- زملاؤك روحوا بيوتهم من بدري.

وقالت واضعة على قاعدة المنارة شنطة الغداء، وكيسا به ملابس وفوطة، ولوفة، وما يلزم لتشطيف أخيها:

- أمك أرسلت أكرم ابن مينا ليحضرك إليها!

وقالت لأخيها:

- انزل لحيلة، إنه خائف يطلع بجركن الماء!

فوجم سعيد والتفت إلى مدى قبة الرفاعي..

تعجلته أخته:

- حيلة تحت وأنا اهد حيلي!

لبد مُبلسا غير قادر على أن يفعل أو حتى يلتفت إلى مدى القبـــة. فقال محروس لها:

- سعيد يريد أن يغطس في قبة الرفاعي!

لمحت اللوفة متضاحكة وتضاحك سعيد ولكنه استبقى محروسا وهو يحمل حقيبة المدرسة، وقال ونظرته تنفذ في أمشاج الذكرى:

- عدلية نصحت أمك بعدم الذهاب إلى الشيخة زينـــب غـــزال! فقالت لها: اعتقال الشيخة تأييد من ربنا!

ثم صاح وهو يلتفت بنظرة حادة جامدة إلى صحن جامع المؤيد:

- مجنون من غره التأييد!

قالت هنومة تنكر عليه تحكيم العقل في الجنون:

- المجنون من غره الجنون!

فصاح:

- أين الذين أيدوه؟

فصاحت به:

- أنت المقيد وليس هو!

فتضاحك سعيد مسائلا محروسا:

- أنت مقيَد أم مؤيَد؟

خطرت له أمه، وجنازة أبيه الحاشدة ولكن بـــلا شـــلالا يجـــرف الخلق.. قال وهو يستقبل سلم القنطرة:

- أنا مؤيد بالقيود!

ثم تلقه أكرم بالتهويل وهو يضع "جركن" الماء وسط السلم، وقال:

- حيله خائف يطلع!

ولاحظ نزول سعيد. أسلمه "الجركن"، ثم خرجا وأكرم يقول له:

- الأرمد وحده أسفل البرج!

- وأين حيله؟

- سينطلق حالا من الدكان ليجلب الغداء من بيت البدوية.

واقترح عليه أكرم أن يسيرا بالأرمد من حارة الروم؛ ليفاجئا حيلة به وهو ممدد للإوز كما يتمدد حيلة لذباب الشمس، فرفض الاقتــراح قائلا:

- لا، سنسير إلى جوار حيلة كما كنت أسير أيام الكتاب..

ركبا الأرمد ليجدا الرجلين بعتبة الدكان. قال أكرم من خلفه:

- عم نحمده سيناديك الآن "هاء القلم وما يهربون الهروب".

ولكن عم نحمده داعبه مستغلا أجراس الأرمد المزينة رقبته قائلا:

- كل دى أجراس للمرواح!

وأخذ حيلة منه الحقيبة وهو يشير إلى الأجراس و يتتعتع بما معناه: "سأعلق له الأجراس بالحقيبة حتى لا يتأخر على أمه!".

رج الضحك عم نحمده فتساند على ساقي الغلامين؛ حتى استطاعا أن يُحدقا برأفة عينيه المُماثلة لرأفة ملك الموت، حين يطلب من الأرواح أن تعبر بنا كرب الفراق!

تساءل عم نحمده في نفسه: "لو يشيب الضحك؟"

وربت فخذ "هاء الهروب" وسأله:

- لِمَ سميتنى بحارس الأموات؟

ارتبك قائلا:

- لأن الأموات في حاجة دائمة إليك!

نظر إليه مليا وقال:

- أو لأنني في حاجة دائمة إليهم!

قال له أكرم:

- عم كامل أخبرنا أن جدك أحيا بالثلج واحداً ممن عُلقوا في ممـــر البوابة!

فقال ناظراً في سهوم حيلة:

- أي نعم، وكان اسمه نبوي الإخشيدي!

سأله محروس:

- هل كان عبداً؟!

فقال حفياً به:

- اسأل تلميذ العقاد!

فحفزه الإعجاب في نظرته أن يسأله:

- كم عبداً حكمنا يا عم نحمده؟

قال مستعرضا حيلة إلى أعلى وقصره إلى أسفل:

- عبد ونصف عبد!

كان حيلة ساهماً في ذكرى نبوى ومنها سهم في ذكرى الأرمدين صريعا مجد الحديد ومجد الكهرباء؛ فأطرق إلى حوافر الأرمـــد الثالـــث الخالية من أخفاف "الكاوتش" التي تقيه شر تيار الكهرباء. نفض عـــم نحمده سهومه قائلا:

- تيار الكهرباء أرحم على الأرمد من خفي حُنين. سر يا حيلـــة ببركة الرحمن!

ولكنه جاش داخل الدكان يحضر أخفاف "الكاوتش". قفز الاثنان تباعا من ظهر الأرمد، ووقفا يراجعانه:

- نحن نلعب الكرة حفاة في الحارة والشارع.

- لِمَ تكبله؟ حسبه من القيود العريش!

سار حيلة ببركة الأخفاف والشمس تصخد[1] عبال ظهره وكاهليه الناتئين، وتتفضض أشعتها في شعره الرمادي الغزير. مشى لصق الأرمد حاملا الحقيبة تلك الصخرة وفضيلتها الآثمة. فضيلة الهروب، وعقابها المستعصي على التعب، تماما كحمل الصخرة، فهو عمل سيزيف المقترن بعمل الأرباب.

ولكن هل خطرت ذِروة العقاب لحيلة؟ ولو قدر له ارتقاؤها هل سيجعله الارتقاء ضميراً أو قدرة أو خيالاً أو استلهاماً لما سيبقى من فضائلنا وكشفنا، ولما يحفظ للرموز قدسية دوامها، وللأسطورة وشائجها معنا؟ وهل سيرى العابرون سريرته كما يراها القدر؟ مشى فخوراً بالحقيبة، وكان لفخاره غرورا كغرور الطير وغرور سيزيف.

لم ير أحد سيزيف وهو يحمل الصخرة، ولم يسمعه أحد يشتكي الارتقاء والانحدار، أو يشتكي حوزة تعب أو حوزة إثم.

فيم كنا نبكيه؟

بينما هو في عزلة السرور، يرتقي الأسباب ومراقي القدرة والجمال.

لقد تعب من أجلنا، ولكننا لن نكون خالدين حتى نتعب مثله.

لقد أشعرنا بجمال القدرة، فهل نروم نصيبه من الجمال بالاقتدار والارتقاء ارتقاء الرموز؟

---

(1) صخده الحر: صهره.